موقع فلسطيني:

كتاب

يهوه إله اليهود الخاص

عبد الرحمن غنيم

* * * *

الفهرس:

مقدِّمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

لنعترف بادئ ذي بدء، أنَّ مجرَّد التفكير في تنظيم مذكرة بحث عن «يَهْوَه» من الناحية التاريخية، يشكل مغامرةً صعبة. فهناك الكثير من علماء الغرب حاولوا وعلى مدى فترة زمنية ليست بالقصيرة تحديد المصدر التاريخي بل واللغوي لاسم «يَهْوَه» دون أن يوفقوا في ذلك. وظل مصدر هذا الاسم بالنسبة لهم «لغزاً»، ويختلفون حتى على تفسيره. فكيف يمكن إذن أن نتجاوز هذا الواقع، وأن نقترب ـ ولا أقول نصل ـ إلى حل هذا اللغز؟.

كان لا بدّ من توظيف كل المعطيات التاريخية المتاحة، من مصادرها المتعددة، ومحاولة الربط بينها، وتعقب الاحتمالات دون كلل. ولقد أنجزنا مسوّدة الكتاب في البداية دون الفصل الذي حمل الرقم 11 والذي أضفناه لاحقاً، إذ لم نكن قد تعرّفنا بعد على البدعة الرائيلية وما جاء فيها حول شخصية يَهْوَه. وكان السؤال المحيّر الذي يواجهنا في تلك المرحلة من البحث: هل يَهْوَه إلهٌ أم ملاكٌ أم شيطان؟ وهل الإشارات القرآنية المتعددة حول عبادة اليهود لهواهم أو إتباعهم لأهوائهم، إنما تعني يَهْوَه بالذات؟ كان من الممكن أن نستخلص من قول المعاجم العربية أن «هياه» اسم لشيطان، أنَّ يَهْوَه هو شيطان، وأن نوافق العالم اليهودي سيغموند فرويد على رأيه القائل بأن «يَهْوَه» هو شيطان، وأنه ليس هو إله موسى. ولكننا كنا نشعر بالتردُّد في هذا الاستنباط، وخاصة حين نقرأ أسفار الأنبياء في العهد القديم، وإن كان يخامرنا الشك في ادِّعاء بعضهم أنهم رأوا الرب في هذا المشهد أو ذاك وهو ما نعرف أنه لم يتح لأي نبيّ من أولي العزم، ومن غير المعقول أن ترفض رغبة موسى عليه السلام في أن يرى وجه الله، بينما تتاح رؤية الموكب الإلهي كاملاً لأنبياء يهود لاحقين. ولكن ها هو رائيل يقدم لنا رسماً لشخصية يَهْوَه. فهل هو مجرَّد دعيّ؟ أم أنَّ ما قاله هو تسجيل لأحداث عاشها بالفعل؟

إنَّ وجهة نظر رائيل، رغم كل ما فيها من ادِّعاءات زائفة ليَهْوَه، إلاّ أنها تقربنا من فهم جلية الأمر، فيَهْوَه ليس الله.

وحين نتوصَّل إلى حقيقة أن يَهْوَه إله اليهود الخاص أو من اتخذوه إلهاً هو رجل من كوكب آخر في الفضاء، فإننا نتحرَّر من عقدة مزدوجة:

أولاً ـ عقدة أن نجدِّف على الخالق عزَّ وجلّ إذا كان يَهْوَه اسماً آخر لله، وهو ذنب لا نريد لأنفسنا أن نتلبَّسه.

وثانياً ـ عقدة أن نسيء لليهود في عقيدتهم رغم أنَّ بيننا وبينهم بسبب غزوهم الظالم لبلادنا ما صنع الحدّاد.

لذا يستطيع القارئ الكريم أن يدرك لماذا سعينا وراء كل الاحتمالات بكلِّ جدّية، ولم نحاول توجيه البحث في اتجاهٍ محدَّد بشكل مسبق. فنحن نبحث هنا عن الحقيقة، ولا ندَّعي أننا نقدِّم هنا حقيقة توصّلنا إلى معرفتها بشكل مسبق. وعليه، فإنه يتوجب على القارئ أن يقلب معنا الأفكار، ولعلّه يجد بدوره منافذ أخرى

لإضاءة الموضوع تتجاوز ما قدّمنا. وهذا ما جعلنا نمتنع عن وضع خاتمة للكتاب، مكتفين بكون الفصل الأخير يعرضُ لما جاء في القرآن الكريم مما يتّصل بموضوع البحث، فمن شاء عَدَّهُ خاتمة ومن شاء عَدَّهُ مفتاحاً للمحاكمة.

والله وليُّ التوفيق

* * *

ملاحظة: عذراً لورود بعض الكلمات أو الحروف السريانية.. التي لم نطبعها لظروف فنية.

* * *

(1)

وقفة عند الوادي المقدس طُوى

يردُ في التوراةِ القول "وأمّا موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرِّية وجاء إلى جبل اللهِ حوريب. وظهر له ملاك الرب بلهيب نارٍ من وسط عليقة. فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق. فقال موسى أميلُ الآنَ لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الربُّ أنَّهُ مالَ لينظر ناداهُ اللهُ من وسط العليقة وقال موسى! موسى! فقال: هأنذا. فقال لا تقترب إلى ههنا. اخلع حذاءك من رجليكَ، لأنَّ الموضع الذي أنتَ واقف عليهِ أرضٌ مُقدَّسة. ثم قال أنا إلهُ أبيكَ إلهُ إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب. فغطّى موسى وجهه لأنّه خافَ أن ينظر إلى الله" [خروج 1-3/6].

نلاحظُ هنا أنَّ التوراة تخلط بين "الرب" وبين "ملاكِ الرب". فبعد أن قال إنّ من ظهر لهُ هو "ملاكُ الرب" جعلت "الرب" يخاطبه مباشرة، ومثل هذه الظاهرة تتكرر كثيراً في أسفار العهد القديم، حيث يبدو "ملاك الرب" وكأنَّه هيئة يظهر بها الرب، وليس رسولاً من لدن الربّ.

والواقع أننا سنواجه هذه المشكلة بشكل جدّي لو طرحنا على أنفسنا السؤال: ما هو اسم ملاك الرب الذي ظهر لموسى ولأنبياء بني إسرائيل من بعده؟ فمن خلال أسفار التوراة لن نتمكن بتاتاً من التعرف على اسم هذا الملاك. وحين ظهرت بعض أسماء الملائكة في الموروث اليهودي، فقد جاء ذكرها متأخراً وبعد السبي البابلي والأشوري. وقد جاءت هذه الأسماء مقترنة باسم "إيل" وليس "يَهْوَه" مما يرجح أنها أخذت عن الآراميين. وتزداد أهمية هذا السؤال وخطورته حين نتذكر ما جاء في القرآن الكريم حول عداء اليهود للملائكة. يقول تعالى (مَنْ كانَ عَدُوّاً لجبريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قلبكَ بإذن اللهِ مُصَدِّقاً لما بين يديهِ وَهُدَىً وَبُشرى للمؤمنين * مَنْ كانَ عَدُوّاً للهِ وملائكتهِ وَرُسُلِهِ وجبريلَ وميكالَ فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرين) (البقرة 97 - 98).

نلاحظُ أيضاً نوعاً من التمييز غير المفهوم بين "الرب" وبين "الله". وهو واضحٌ في القول "فلما رأى الرب أنَّهُ مالَ لينظر ناداهُ اللهُ من وسط العليقة". وهذا التمييز ليسَ واقعةً عرضيَّةً في نص أو أكثر، ولكنَّهُ يطبع التوراة بكاملها، حتى أنَّ العلماءَ "صنَّفوا أقدم أجزاء التوراة تحت الحرفين J و E ، إذ في جزءٍ منها يُسَمَّى الخالق "يَهْوَه" Jehovah وفي جزء آخر يدعى الله Elohim. ويسود الافتراض بأنَّ الروايات الخاصة بـ "يَهْوَه" قد كتبت في يهوذا وما يتعلق بـ "إيلوهيم" قد سُجِّلَ في أفرايم. وفي عام 719 ق.م بعد سقوط السامرة أمكن توحيد تلك النصوص، وتم تصنيف جزءٍ ثالث تحت الرمز D، من بينها سفر التثنية، وجزء رابع تحت الرمز F قام الكهنة في وقتٍ لاحق بضمِّه إلى المجموعات الأخرى. وقد اتخذت الأجزاء الأربعة صورتها الراهنة نحو العام 300 ق.م" (1).

وفي ضوء هذه الملاحظات، فإنَّ النصّ الذي نعالجه من التوراة، هو نتاجُ مزج تقليدين. ولذلك فإن حمو موسى الذي يظهر هنا باسم "يثرون" ورد ذكره في البداية باسم "رعوئيل" [خروج 2/18]. وبالطبع، فإن التعارض بين التقليدين إلى حدّ تغيير أسماء الأعلام أو تزويرها، يعني أنَّ أحدهما ليس صحيحاً.
على أيّة حال، إذا كان الربُّ عَزَّ وجلَّ قال لموسى إنَّهُ إلهُ أبيه وإلهُ إبراهيمَ واسحق ويعقوب، فإننا نستطيع الافتراضَ بشكل فوري أنَّ موسى يعرفُ إلهَه وإلهَ الآباء. ودليل ذلك أنَّ موسى أطلقَ على أحدِ ولديه اسم "اليعازر"، وهو اسم منسوبٌ إلى الله باسمهِ "إيل". وهذا هو أيضاً الاسم الذي ينتسب إليه "إسرائيل" الجدّ المفترض لبني إسرائيل، وهو أيضاً الاسم الذي ينتسب إليه كاهن مديان "رعوئيل"، مثلماً هو الاسم الذي ينتسب إليه جد العرب "إسماعيل". فإذا قيلَ إن لفظة "إيل" كانت تعني آنذاك "إلهاً" بشكل عام، وتماثل اللفظة المصرية "نطر" بمعنى "إله"، مَمَّا يستدعي تحديدَ إلهِ الآباء، قلنا إنه وفق رواية سفر التكوين، فإنّ إله الآباء "إيل" عرف بأسماءٍ محدَّدة مثل "ايل عليون" (الله العلي) وإيل شدَّاي (الله القدير) وايل عولم (الله السرمدي) و "إيل قونه أرص وشمايم" (الله مالك الأرض والسموات) والذي عُرف عند الحثيين باسم "كونيرشا". ومن هنا، فإنَّ التوراة تفاجئنا حين تختلق قضيَّة حول اسم الله عَزَّ وجَلّ، بغية اقحام التقليد اليهوي على التقليد "الإيلي" أو "الإبراهيمي".
تقول التوراة "فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إلهُ آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي ما اسمه، فماذا أقولُ لهم؟ فقال اللهُ لموسى: "أهيَهْ الذي أهَيْه. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهَيْه أرسلني إليكم. وقالَ اللهُ أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يَهْوَه إلهُ آبائكم إلهُ إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دورٍ فدور" [خروج 11 - 3/15].
وتقرُّ التوراة أنَّ هذا الاسم جديدٌ كلَّ الجدَّة، ولم يكن معروفاً لدى الآباء، وبالتالي فهو مجهول عند الأبناء. وتقول "ثمَّ كلَّمَ اللهُ موسى وقال له أنا الرب. وأنا ظهرتُ لإبراهيم واسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء وأما باسم يَهْوَه فلم أعرف عندهم"[خروج 2 - 6/3].
هذه الرواية تفرضُ بطبيعة الحال أسئلة عديدة:
1 ـ كيف يمكن لموسى عليهِ السلام متى جمع شيوخ بني إسرائيل، أن يقولَ لهم بأنَّ إلهَ الآباء المعروف عندهم باسم "ايل" مرتبطاً مع إحدى صفاته أو أسمائه الحسنى مثل القدير (شدَّاي) أو العليّ (عليون) أو السرمدي (عولم)، قد بات له اسم جديد بديل لـ "إيل" هو "يَهْوَه"؟ وكيف يمكنهم أن يقنعوا بقية جماعتهم بهذا الاسم الجديد؟ وإذا كان العلماء حتى الآن لم يستقروا على فهم معنى هذا الاسم فكيف أمكن إقناع بني إسرائيل به ببساطة؟ وهل اقتنعوا حقاً بهذا الاسم؟ أم أنّ وجود التقليدين "الإيلي" و"اليهوي" في التوراة يعني استمرار المنافسة أو الخلاف بين التقليدين؟
2 ـ ما هي اللغة التي جاء منها هذا الاسم الجديد؟ هل هي اللغة المصرية القديمة؟ أم هي اللغة الآرامية التي سادت بين اليهود في زمن متأخر؟ أم هي لغة أخرى غير هاتين؟. يقول د. فؤاد حسنين إنه اختلفت آراء

الإسرائيليين أنفسهم حول حقيقة هذا المعبود ووطنه الأصلي. فمن قائل إنه مصري، كما اعتقد آخرون أن وطن "يَهْوَه" الأصلي كان في الصحراء الجنوبية ثم اختفت هذه الفكرة وظلّت حيّة عند الشعراء" (2). وهو يشير في هذا الصدد إلى قول هوشع "وأنا الرب إلهكَ من أرض مصرَ حتى أسكنك الخيامَ كأيام الموسم" [هوشع 12/9] وقوله "وأنا الرب إلهكَ من أرض مصرَ. وإلهاً سوايَ لست تعرف ولا مخلّصَ غيري"[هوشع 3/4]. كما يشير إلى ما ورد في سفر حزقيال "وقل لهم هكذا قال السيد الرب. في يوم اخترت إسرائيل ورفعت يدي لنسل بيت يعقوب وعرَّفتهم نفسي في أرض مصر ورفعت لهم يدي قائلاً أنا الرب إلهكم" [حزقيال 20/5]. أما التقليد الآخر، فمن بين الدلالة عليه ما جاء في سفر حبقوق "الله جاء من يتمان والقدوس من جبل فاران" [حبقوق 3/3]. وتيمان تعني الجنوب مثلما تعني "اليمن"، وجبل فاران هو جبل مكّة.

إنَّ المنطق يفترضُ أنَّ موسى حين جاءَ إلى بني إسرائيل في مصر بدعوته، كان لا بُدَّ وأنْ يكلّمهم بلغتهم، التي هي اللغة المصرية القديمة. وعليه فإنَّ اسم "يَهْوَه" كان يجب أن يكون مفهوماً في هذه اللغة بالذات، وأن يكون منتسباً إليها يقولُ تعالى (وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسان قومِهِ ليبيِّنَ لهم فَيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ ويهدي من يشاءُ وهو العزيز الحكيم) (إبراهيم 4). وفي ضوء هذه الملاحظة، فإنَّه إذا كان هناك من مبرِّر لإدخال اسم "يَهْوَه" في المشهد في ذلك الحين، فهو أن يكون هذا الاسم مصرياً، ولكن إثبات هذا الأمر قد يكون متعذراً.

3 ـ إذا كان إقناع بني إسرائيل أو قوم موسى بهذا الاسم الجديد ممكناً، فكيف يمكن إقناع الفرعون بالاستجابة للأمر الصادر عن الله باسمه الجديد المجهول كلياً عند الفرعون؟ والأهم هو التساؤل إذا كان الفرعون يدرك مدلول الاسم الجديد لغوياً أم لا. وإذا كان موسى وهارون عليهما السلام قد دخلا على الفرعون ليقولا "إله العبرانيين التقانا" [خروج 3/18]، فمن المفترض أن الفرعون كان يعرف شيئاً ما عن "إله العبرانيين"، ولكنه لا يعرف حتماً الاسم الجديد "يَهْوَه"، فيكون هناك تناقض بين الحديث عن "إله العبرانيين" وبين إقحام اسم "يَهْوَه" الذي لم يكن مطروحاً أو معروفاً من قبل.

قبل محاولة الإجابة على مثل هذه الأسئلة، لابُدَّ لنا من إيراد رواية القرآن الكريم حول هذا الجانب من الوقائع المتعلقة بقصة موسى عليه السلام. منطلقين من التسليم بقوله سبحانه وتعالى (إنَّ هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) (النمل 76).

يقول تعالى (فلما قضى موسى الأجل وسارَ بأهلِهِ آنَسَ من جانبِ الطورِ ناراً قال لأهلِهِ امكثوا إنِّي آنستُ ناراً لعلّي آتيكم منها بخبرٍ أو جذوةٍ من النارِ لعلكم تصطلون * فلمّا آتاها نوديَ من شاطئ الوادِ الأيمن في البقعة المباركةِ من الشجرة أن يا موسى إنِّي أنا اللهُ ربُّ العالمين) (القصص 29 و30).

كما يرد القول (إذ قالَ موسى لأهلِهِ إنِّي آنستُ ناراً سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قَبَسٍ لعلكم تصطلون * فلما جاءها نوديَ أنْ بُورِكَ من في النارِ ومن حولها وسبحان الله رب العالمين * يا موسى إنَّه أنا اللهُ

العزيزُ الحكيم) (النمل 7-9). وكما يقول تعالى (وهل أتاكَ حديثُ موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهلِهِ امكثوا إنّي آنستُ ناراً لعلّي آتيكم منها بقبسٍ أو أجِدُ على النار هُدى * فلما أتاها نوديَ يا موسى * إنّي أنا ربُّك فاخلع نعليكَ إنَّكَ بالوادِ المقدس طوى * وأنا اخترتُكَ فاستمع لما يُوحى * إنني أنا اللهُ لا إلهَ إلاّ أنا فاعبدني وأقِمْ الصلاةَ لذكري * إن الساعة آتيةٌ أكادُ أُخفيها لتجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى * فلا يَصدُّنَّكَ عنها من لا يؤمنُ بها واتَّبَعَ هَوَاهُ فتردَّى) (طه9- 16). كما يقول تعالى (هل أتاكَ حديثُ موسى إذ ناداهُ رَبُّهُ بالوادي المقدَّس طُوى * اِذهب إلى فرعونَ إنَّهُ طغى * فقل لهُ هل لك إلى أن تزكَّى * وأهديكَ إلى ربِّكَ فتخشى) (النازعات 16 - 19).

ومن هذه الآيات يتضح أنَّ موسى عليه السلام كان عائداً بأهلِهِ إلى مصر حين نودي من جانب الطورِ الأيمنِ في الوادي المقدَّس طُوى، والذي هو حتى الآن موضع اختلاف بين المؤرخين حول تحديد موقعه.

إن اللهَ في هذه الآيات يتحدَّدُ باسمه "الله" (إل أو إيل في اللغات العروبية القديمة)، وهو ربُّ العالمين. والكلمة المصرية المعبِّرة عن هذه الصفة هي "وننتي". ومطلوب من موسى وهارون ليس فقط دعوة قومهما إلى الإيمان والتجمع، ولكن أيضاً دعوة فرعون نفسه للإيمان، ليس باسم "إله العبرانيين"، وإنما باسم "ربّ العالمين"، والذي هو ربُّ الفرعون وربُّ جميع المصريين وجميع البشر أيضاً. يقول تعالى: (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) (الشعراء 16). كما يقول تعالى (فأتياه فقولا إنّا رسولا ربِّكَ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآيةٍ من ربِّكَ والسلامُ على من اتَّبعَ الهُدى) (طه 47).

إنَّ الأمر المثير للدهشة والاستغراب، أن نجد مفهوم "رب العالمين" غائباً بشكل كامل عن كل أسفار العهد القديم، وكأنَّ اليهود لم يلتقوا بهذا المفهوم في أيِّ مرحلة من مراحل تطوُّر ديانتهم. وهو ما يشكّلُ قرينة على عبث من دوَّنوا أسفار التوراة بنصوصها، إذ لا يعقل أن تغيب عن جميع هذه الأسفار بشكل كليٍّ. وســرُّ ذلك بالطبع أن تبنِّي مفهوم "رب العالمين" من شأنه إسقاط الدعوى اليهودية حول العلاقة بين "الرب" الخاص و"الشعب الخاص". ففكرة "الشعب الخاص" تسقط في اللحظة التي يتم فيها الإقرار بأن الله هو "رب العالمين". وفي هذا الصدد يقول د. فؤاد حسنين: [إنه إذا نظر الإسرائيلي إلى الله على أنه رب العالمين وأنه رب الجميع في مختلف البلاد ضاعت فكرة "شعب الله المختار"، ويصبح العكس صحيحاً. لذلك يقول النبي عاموس "إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم" (3).

ومن الواضح أن التمسُّك باسم "يَهْوَه" اسماً لإيل، أو بديلاً له، إنما جاء من نفس المنطلق الفكري الذي جعل اليهود يستبعدون فكرة الإيمان بـ "رب العالمين". وهذا ما ينتبه إليه الأستاذ العقاد قائلاً [لعلّ المنافسة في الحقيقة كانت بين الإيمان بـ "يَهْوَه" والإيمان بالإيل أو الإله. فإن العرب الأقدمين لم يذكروا "يهوا" قط بين أربابهم، وإنما ذكروا الإيل والإله والله تعالى. وكان اليهود يعبدون الإيل كما يعبده العرب، ومن ذلك تسمية إسماعيل وإسرائيل وبتوئيل. فلما تشابه النسب بالانتماء إلى إبراهيم، وتشابهت العبادة بالاتفاق على اسم الإله، جدت الرغبة بالكهان في الاستئثار من جهة والاستثناء من جهة أخرى، فحصروا النعمة الموعودة

في أبناء إسحق ثم في أبناء يعقوب، ثم في أبناء داود، جرياً على عاداتهم المطردة في أمثال هذه الأحوال] (4). وحرصوا في هذا السياق أن يجعلوا من "يَهْوَه" رباً خاصاً بهم دون بقية الشعوب.

ولعلَّ هذا المنطق أيضاً هو الذي جعل اليهود، خلافاً لمنطق الديانة التوحيدية، لا يتحدثون عن الثواب والعقاب في الآخرة، ذلك أنَّ هذه الفكرة من شأنها أن تجعل التفضيل بين البشر في الآخرة قائماً على التقوى فقط، واليهود يريدون حصر النعمة في أنفسهم دون بقية الشعوب.

وإصرار اليهود على فكرة الرب الخاص للشعب الخاص، وعدم الإيمان بأن الله هو "رب العالمين"، واستبعادهم لفكرة البعث والحساب في الآخرة، جعل اليهودية تفترق عن الإيمان الإبراهيمي. وهذا ما يفسِّر قوله تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومَنْ لمْ يحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الكافرون) (المائدة 44).

وإذا كانت النصوص التوراتية المنسوبة إلى الأنبياء (الذين أسلموا) لم تصلنا على النحو الذي يعكس منطق الإيمان الإسلامي (الإبراهيمي)، فلابُدَّ وأنَّ مدوِّني هذه النصوص لم يكونوا أمناء في تدوينها. ويصدق هذا الاستنتاج على أسفار التوراة الخمسة، مثلما يصدق على جميع الأسفار الأخرى والمزامير، أو ما يمكن أن نسمِّيه بالموروث اليهودي المكتوب. ولكن ماذا عن الاسم "يَهْوَه" بالذات، وهو موضوع بحثنا في هذه الدراسة؟

إنَّ وقفتنا عند "الوادي المقدس طوى" هي نقطة البداية في بحث هذا الموضوع الشائك.

* * *

هوامش (1) وقفة عند الوادي المقدس طُوى:

1- ايفان ليسنر، الماضي الحي، ص140.

2- د. فؤاد حسنين علي، اليهودية واليهودية المسيحية، ص13.

3- نفس المصدر، ص20.

4- عباس محمود العقاد، أبو الأنبياء، ص142.

*   *   *

(2)

أهَيِهْ أشِرْ أهْيَهْ

يَهْوَه أرسلني إليكم

يُسلّم سبتينو موسكاتي أنه "لا يعرف معنى الاسم يَهْوَه على وجه اليقين. وفي الآية المشهورة من سفر الخروج [3/14] يفسِّرهُ بعض العلماء بأنَّ معناه "هو الذي يكون"، ويفسِّرهُ آخرون بأنَّ معناه "هو الذي يوجدْ" (بكسر الجيم) أي الخالق. وهناك أيضاً تفسير تأخرى (1). ويقول "إنه في الآية 14، موضع القصيد يُسمِّي اللهُ نفسه صراحة "أهْيَه" (الألف محركة بالسجول، والهاء ساكنة، والياء محركة بالسجول، والهاء الأخيرة لا تنطق وإنما تطول بها السجول السابقة). إذ يقول "أهْيَه أرسلني إليكم". أما عبارة "أهيَه أشِرْ أهيَه" فهي تفسير للمعنى الذي فهمه كاتب الآية من الاسم أهية، فقد فهمه على أنه مضارع المتكلم من الفعل الناقص هيي (كان) في وزن المجرَّد، فيكون المعنى (كما يرى بعض العلماء) للحال "أكونُ الذي أكون I am that I am" في الترجمة الإنجليزية المعتمدة، أو (كما يرى آخرون) للاستقبال: "سأكون الذي سأكون". وهذا المعنى الثاني يربط الكلام بالآية 12، فيكون المقصود "سأكون الذي وعدتُ أن أكونَه"، أي سأكونُ مَعَكَ كما وعدتك وأساعدكَ في إخراج بني إسرائيل من مصر. أما المعنى الأول (أكون الذي أكون) فقد انتقدَهُ بعضُ العلماء (مثل سمند وأوسترلي روبنسون) بأنَّه ميتافيزيقي على نحوٍ لا يتفق وعقلية العبريين القدامى. ولكن يقول هولتسنجر إنه لا يجب أن نأخذ الأمر على هذا النحو الميتافيزيقي، بل يجب أن نفهم الأمر على أنَّ اللهَ ينسبُ إلى نفسهِ صفة البقاء على ما هو عليه في أفكاره وقراراته ووعوده" (2).

ثم ينتقل موسكاتي إلى الاسم المألوف لرب اليهود "يَهْوَه" (الوارد في الآية 15)، ويقول إنه "كان ينطق على الأرجح (كما يقول لودز وهولتسنجر) بفتح فسكون فسجول طويلة، قبل أن ينطق أدوناي (سيدي) على سبيل التحرج ويُحرِّكُ في رسم التوراة بحركات أدوناي. فهذا الاسم اختلف في تفسيره العلماء اختلافاً واسع المدى ويكتفي في هذا الصدد بإيراد بعض الملاحظات:

1- الآية تُعَدُّ أقدمَ محاولةٍ لتفسير الاسم "يهوه". فكاتبها يرى أنَّ يَهْوَه صيغة مضارع الغائب من الفعل هوى (كان) في وزن المجرَّد. فيكون معنى يهوه (يكون) كما أنَّ معنى أهيه (أكون)، ويكون يهوه اسم الله حين يتحدث عنه غيره، كما أنَّ اسم "أهيه" اسم الله حين يتحدث هو عن نفسه.

وغنيٌّ عن القول أن كاتب الآية يعدُّ الفعل هوى (في يهوه) نظيراً للفعل هيي (في أهيه)، وهوى بمعنى (كان) في الآرامية كما هو معروف، ولعل هوى الأصل في هيي العبرية نفسها.

2- يرى بعض العلماء أن يهوه من هوى "كان" أيضاً، ولكن في وزن أفعل (هفعيل)، فيكون المعنى "يُوْجِدُ" (بكسر الميم) أي "يخلق". أي أنَّ يهوه هو الخالق. ولكن انتقد سمند هذا الرأي من ناحيتين: ناحية شكلية هي أنَّ وزن هفعيل لا يرد من هيي في العبرية، وناحية موضوعية هي أنَّ فكرة خلق يهوه للعالم ليست قديمة، ولا ترجع بأية حال من الأحوال إلى الدين العبري في صورته الأولى.

يقول شتاده: "إن الجذر الذي اشتقَّ منه الاسم يهوه يبدو أنه هوى بمعنى سقط، فيكون معنى يهوه "المسقِط"، أي الذي يسقط ببروقِهِ الأعداء والآثمين (ولكن يعقب شتاده نفسه بأنه لا يعلّق على هذا الرأي قيمة ما).

يرى فلهاوزن "أنَّ يَهْوَه من هوى العربية التي منها الهواء، فمعناه "يسري في الأهوية، يهبُّ"، أي أنَّهُ إله العاصفة" (3).

ومن الغريب أن أيّاً من هؤلاء العلماء لم يفكر باحتمال إضافي، وهو أن يكون المصدر هو "هوى" بالعربية، ولكن بمعنى "أحبَّ". ذلك أن المفهوم اليهودي ليهوه لا يترك مكاناً لمثل هذا المعنى.

نلاحظ أنَّ كلَّ الاجتهادات، قد ارتكزت على المقارنة مع اللغة الآرامية أو العربية. ولكن هل كانت هذه أو تلك هي لغة بني إسرائيل في مصر؟.

ومن المؤكد أيضاً أن أصحاب هذه الآراء، قد افترضوا وقوع الحدث في حوالي القرن الثالث عشر ق.م، آخذين بالرواية التوراتية حول تواريخ الأحداث. ولكن ماذا إذا كان هذا الحدث قد وقع قبل ذلك بكثير، وحوالي القرن الثلاثين ق.م؟

وإذا كان العلماء المتخصصون بالدراسات التوراتية يجدون صعوبة في فهم هذا الاسم، ولا يجدون مجالاً لتفسيره إلاّ باللجوء إلى اللغة الآرامية التي لم يعرفها اليهود إلا متأخرين، فكيف ينتظر من بني إسرائيل في مصر، ولغتهم قطعاً هي المصرية أن يستقبلوا اسم إلهٍ لا يعرفون معناه؟!.

إن فهمنا للمعطيات التاريخية، يرجح أنَّ قوم موسى في مصر، كانوا يتألفون من ثلاثة عناصر على الأقل:

1- بنو إسرائيل، وهم مصريون من الدلتا، وقد تلقوا دعوة إبراهيم، وأقاموا معه علاقة مصاهرة، إذ كانت زوجه سارة هي ابنة إسرائيل.

2- العبرانيون الذين رافقوا إبراهيم الخليل إلى مصر وبقوا فيها، وترد الإشارة إلى وجودهم في قصة يوسف حيث لم يكن العبريّ الوحيد المعروف في مصر.

3- بيت يعقوب الذين انتقلوا إلى مصر في زمن يوسف، وهم أيضاً عبريون. والمرجّح أنَّ هؤلاء جميعاً كانوا عند بعثة موسى يتكلمون اللغة المصرية. وإذا تميَّزوا عن المصريين في شيء، فهو اعتماد لفظ "إيل" للدلالة على الله عزَّ وجلّ مقابل لفظ "نطر" عند بقيّة المصريين. وهذا ما يتأكد من أسماء زعمائهم عند الخروج، حيث الكثير منها أسماء إيلية.

فهل هو معقول أن يأتيهم موسى عليه السلام باسمٍ للإله غير مفهوم لديهم لغوياً ولا لدى فرعون والمصريين، خاصة وأن اسم "إيل" كان معتمداً لدى قومه، وربما كان أهمّ الملامح التي تميِّزهم عن المصريين وسببت تعرضهم للاضطهاد.

وإذا كان اسم "يهوه" على أساس اللغة الآرامية التي لم تكن معروفة عندهم آنذاك، بل لعلها لم تكن موجودة بعد، مشتقاً من الكلمة "كان"، فإنه لأمرٌ مثيرٌ للتفكير حقاً، ويكشف التزوير أيضاً، أن نجد اسم "رب العالمين" في اللغة المصرية القديمة "و ن ن ت ي" مشتقاً من كلمة "كان" أيضاً، ولكنه يعطي دلالة مختلفة عن دلالة اسم "يهوه".

يقول د. علي فهمي خشيم، إنه في معجم "بدج" اشتقت من كلمة "ون" المصرية هذه المفردات:

و ء ن ن wann : الكائن.

و ن و ن wnwn : يكون.

و ن و ن . ت wnwn. t : الشيء الكائن.

و ن ن ت wnnt : كائنات، موجودات.

و ن ن و wnnw : كينونة، وجود.

و ن ن وwnnw: إنسان، بشر، كائنات حية، أكوان، مخلوقات.

وهناك "و ن ن ت ي" wnnty : إله الوجود، رب الكون" (4).

وبالطبع، تستوقفنا بشكل خاص الكلمة الأخيرة "و ن ن ت ي"، فإذا كان موسى قد خاطب الفرعون باسم "رب العالمين"، كما أكد القرآن الكريم، فقد كان لابُدَّ وأن يلجأ إلى كلمة "وننتي" بالذات (قال فرعونُ وما ربُّ العالمين * قال ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حولهُ ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إنَّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال ربّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) (الشعراء 23 ـ 28). هذا بعض الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون، باللغة المصرية بالطبع، حيث "ربّ العالمين" يعرف باسم "و ن ن ت ي"، وحيث كلمة "رب" ترد غالباً بصيغة "نطر". وكان موسى قد ابتدأ الحوار مع فرعون باسم "رب العالمين" (وقال موسى يا فرعون إني رسول من ربِّ العالمين * حقيقٌ علي أن لا أقولَ على اللهِ إلاّ الحقَّ قد جئتكم ببيِّنةٍ من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل" (الأعراف 104 و105). وحين هُزِمَ السحرةُ في المبارزة، أعلنوا إيمانهم (وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنَّا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون) (الأعراف120 ـ 122). وفي آيةٍ أخرى (فألقي السحرةُ سُجَّداً قالوا آمنَّا بربِّ هارون وموسى) (طه 70). وكان لابُدَّ لهم من تعريف "رب العالمين" بأنَّه أيضاً ربّ هارون وموسى، لأنَّ كلمة "و ن ن ت ي" التي تعني "رب العالمين" كانت قائمة في اللغة، وأما فهمها لديهم، وهل يخالطهُ الشرك أم لا فتلكَ مسألة أخرى. لذا كان لا بُدَّ من التأكيد على وحدانيته،

وعلى أنه رب موسى وهارون، مثلما كان على موسى وهارون من قبل أن يدركا أنه رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

ومن المفارقات المثيرة للانتباه، أنه من جذر الكلمة المصرية "ون" أيضاً جاء الاسم الذي عرف به قوم موسى عند الخروج في المدوَّنات المصرية، وهو "الأونتيو". "فمن بين جملةِ معانٍ محتملة ينطوي عليها هذا الاسم، هناك احتمال في أن يكون مصدرها كلمة "إون" المصرية التي تعني ـ إلى جانب معانٍ أخرى ـ صاحَ، صرخَ، أعلن، وهي تقابل العربية "أنَّ" (يئنُّ، أنيناً) (5) مما يشير إلى حالة الاضطهاد التي كانوا يتعرضون لها في مصر. ولكن هذه التسمية غابت كلياً من نصوص التوراة.

حين نقارن بين معنى لفظة "و ن ن ت ي" المصرية التي تعني: إله الوجود ـ ربّ الكون ـ رب العالمين، وبين معنى لفظة "يهوه" التي اجتهد العلماء واختلفوا حول تفسيرها، وإن دارَ بين معنى "الذي يكون" أو "الذي يوجد"، فإننا نلاحظ أن تفسير هذا الاسم بالذي يكون لا يتفق مع مفهوم الربوبية. فالرب عزّ وجلَ سرمديَ لا بداية له ولا نهاية، وكلُّ كائن وكلُّ ما كان وما يكون مستقبلاً هو من مخلوقاته. ثم إننا لا ندري كيف يمكن إقحام كلمة من اللغة الآرامية في تراث قوم لم يكونوا يعرفون هذه اللغة، حيث تفسر "يَهْ" على أنها تعني "يكون" وveh تعني "هو" باللغة الآرامية وليس باللغة المصرية القديمة. وبفرض أنَّ بني إسرائيل كانوا لا يزالون يتكلمون لغة إبراهيم الخليل (الآرامية في نظر البعض وهو أمر مستبعد) فإن الدكتور هومِلْ يقول "إنَّ مما لا شك فيه أن اللغة الآرامية في عصر أبرام (إبراهيم) كانت لهجة عربية (ويقصد هنا اللغة الأصلية التي كان يتكلم بها الآراميون في الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها، لأن ما نسمِّيه بالآرامية لم يظهر إلى حيِّز الوجود إلاَّ بعد زَمَنٍ متأخر جداً وإنَّ ما يعرف بآرامية التوراة وآرامية عصر المسيح يرجع إلى زمن الفرس وفترة العصر المسيحي (6). وهومل يقول بهذا الرأي مع اعتقاده بأن إبراهيم عليه السلام وجد حوالي القرن التاسع عشر ق.م، فكيف إذا تبيّن أنه وجد حوالي القرن 32 ق.م؟.

إنَّ الملاحظات التي أوردناها حتى الآن، لا تنفي أهمّية المحاولة في بحث اسم "يهوه" في ضوء اللغة المصرية القديمة، ولو بالإشارة إلى بعض الألفاظ القريبة التي يمكن أن تكون قد تطوَّرت عنها، أو لها صلةٌ بها، ولكن أيضاً مع ملاحظة مسبقة، وهي أنَّ اللغات العروبية متقاربة في دلالة الألفاظ البدائية، مما يعني أنَّ التحقق من وجود لفظ ما لا يشترط التسليم بوجود مفهوم ديني على صلة بهذا اللفظ. ولكنَّ البحث عن مصدر الاسم "يهوه" يفرض علينا حتماً مثل هذه المحاولة.

بالعودة إلى اللغة المصرية والديانات المصرية القديمة، تستوقفنا المفاهيم التالية:

1ـ إن الكلمة هو Hou أو Hw تعني الكلمة الخالقة (7) أو معبوداً يمثل النطق السلطوي الإلهي (8) . وربما كان موسى عليه السلام قد استخدم هذا اللفظ بالذات في حواره مع فرعون (قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى) (طه 49 و50). فإن صح استخدام موسى لكلمة "هو Hw" بمعنى الخلق في هذا السياق. فهي صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، وهي الخلق بالكلمة. وكان

مسلماً في عبادة بتاح في مصر بهذا المفهوم. وربما يكون المصريون قد أخذوه عن إبراهيم ويوسف عليهما السلام، وضمَّنوه مفهومهم الديني. وتبقى مسألة اشتقاق الاسم "يَهْوِه" من الكلمة Hw موضع تساؤل. وهو اشتقاق يفترض أن يكون على أساس قواعد اللغة المصرية القديمة. وقواعد هذه اللغة تقول "إنَّ المقطع Wy عبارة عن علامة المثنى المذكر" (9). لكننا نقابل حالة شبيهة إلى حدٍ ما بصيغة البناء اللغوي في اسم "يَهْوِه" تتمثل في اسم مصر نفسها "ت ء و ي". "وهي مركبة من ت ء (أرض/ طية) + واو الجمع W + ياء التثنية Y. فكأن المصريَّة جمعت كالعبرانية (ئيم) أولاً بالواو، ثم ثنت بالياء (مع عربية الجنوب السبئية بالضبط، إذ التثنية فيها بإضافة الياء" (10).

لكن الكلمة المصرية "ت ء و ي" هدفت إلى التعبير عن المثنى: الأرضَين أو الطيتين، ومثل هذه التثنية غير واردة في اسم "يهوه". ثم إن قلب "هو" إلى "يه" ليس وارداً، مما يستبعد اشتقاق اسم "يهوه" من الكلمة المصرية "هو" بالمعنى الذي أوردناه.

2ـ ترد في اللغة المصرية القديمة الكلمتان "هـ و" و "هـ ء و"، Hw، Haw، ويترجمها "بدج": يوم، وقت، زمن، فصل. ويقارنها بالمصرية هـ ر و Hrw (نهار) وبالقبطية ح و و Hwo (بالحاء) (11). وواضح أن هذه ترتبط بدورة الزمن. ولكن، هل يمكن أن نجد لها صلة اشتقاق مع اسم "يهوه"؟!.

3ـ ترد أيضاً كلمة هأي Hay التي تعني: سقط، وقع. وتماثل العربية هوى، يهوي، هوياً (12). وهذه الكلمة التي نجدها في اللغة الكنعانية أيضاً وبنفس المعنى يمكن أن تتفق مع المعنى الذي ذهب إليه شتاده، حين جعل اسم "يهوه" "المسقط"!.

4ـ وخلافاً للمعنى السابق، توجد في اللغة المصرية القديمة كلمة إ هـ هـ ي التي تعني: فرح، سرور. العربية هأهأ (13). ولا نظن أن اسم يهوه يمكن أن يكون مشتقاً من هذا المصدر.

5ـ يوجد عند المصريين القدماء إله باسم Heh أو Neheh، وهو رب يجسِّد الأبدية، ويمثل الزمن الذي لا ينتهي والحياة السعيدة المديدة (14).

6ـ يمكن أن نورد هنا أيضاً اسم الإله ايهي أو ايحي أو آهي Ihi أو Ahi، لاعب المصلصلة، ابن الربة حاتور وحورس (15). والواقع أنَّ طقوس العزف والرقص أمام تابوت العهد يذكرنا بالطقوس المتعلقة بهذا الإله المصري.

7ـ ترد كلمة إح أ Iha في المصرية بمعنى قتال (16). وبتبادل الهاء والحاء يمكن أن يكون لهذه الكلمة صلة باسم "يهوه" كإله للجنود.

8ـ تستوقفنا أيضاً في هذا السياق كلمة إأخو Iahw، وهي اسم إله النور The god of light في المصرية. وهي تعني كذلك نور، روعة، إشعاع، سطوع، أعمال مجيدة، أفعال رائعة، امتياز، بركات، خيرات (17). وتمثل كلمة "إأخ" جانب الخير أو الجانب النوراني من النفس. و "إ أ خ و. ت ك" عند المصريين تعني عيني حورس المنيرتين: الشمس والقمر. ويرى علي فهمي خشيم أن الهمزة الثانية في إ أ خ مبدَّلة من الراء

(إ ر خ) وأن الصوت الأول من الكلمة (إ) هو صوت ضعيف يتحول إلى همزة أو واو أو ياء بسهولة. ومن ثم يقارن مع اسم القمر (أرخ) والشهر (ورخ) والتاريخ (أرّخ، ورَّخ) وطريق (أرخو في الأكادية) وسريع السير (أرخيش) وفي العبرية "أريحا" = قمر، سار. ومنه اسم أريحا المدينة الفلسطينية. وفي العربية رَوَحَ، راح، يروح، رواح، و "ريحٌ" الهواء المتحرك.. الخ حتى نصل إلى روح (18).

ولكن ماذا إذا حلّت "الياء" محل الهمزة الأولى (إ) والهاء محل الخاء في اسم إله النور إ أ خ و؟ ألا نصل عندئذ إلى اسم الإله في صيغة "ياهو"؟! وهي صيغة وجدت عملياً إلى جانب صيغة "يَهْوَه".

9- كان يدور التفكير في الموتى عند المصريين على أنهم ممجّدون (ياخو)، ويجري الحديث عنهم في نصوص الأهرام باعتبار أنهم الممجّدون، كما نقول بالضبط "مباركون". وما وقع بأنهم كانوا بعد ذلك، يتحدثون عن "ياخوه" أي "ممجَّدُه". ولا يعني هذا أن "ياخو" كان عنصراً آخر في الشخصية. وهذا يتضح في الإشارة إلى أزوريس عندما مات على أنه "ذاهب إلى ياخوه". ويرى بريستد أنَّ هذا كما يستبين بوضوح هو استبدال "كا" بـ "ياخو" في العبارة المعتادة للتعبير عن الموت (وهي ذاهب إلى كاءه)، واستخدام ياخو مع الضمير أي "ياخوه" نادر وقوعه في نصوص الأهرام، ولكن أصبح استخدامه أكثر شيوعاً في الدولة الوسطى كما جاء في أقوال "كاره البشر" الذي يخاطب روحه على أنَّها "ياخو" (19).

إنَّ إبدال "الخاء" بـ "الهاء" ليس أمراً مستبعداً بالطبع لغوياً. وعندئذ تتحوّل "ياخوه" إلى "ياهوه" لتدلّ على الممجَّد والمبارك.

ويذكر هنا أنَّ كلمة خو Xu في اللغة المصرية القديمة تعني الروح المتعالية (20).

أما كا Ka، فإنها تأتي تعبيراً عن الروح وما يتصل بها من صفات في ألفاظ ومشتقات تفيد معنى العزة والرفعة والمكانة والقوة والسلطان والشرف والسمو.. الخ. وتقرأ عادة بالكاف Ka، ولكننا نجدها Ga بمعنى "ثور" كما نجد قا Qa لتفيد معاني الرفعة والارتفاع والشرف والسمو وما إليها من جبل، تل، هضبة، مرتفع..الخ. ويقارن خشيم هذا التعبير أولاً في مادة "قوا" العربية، ومنها القوة (السلطان) والقُوى (العقل)، ثم يرى أنها مقابلة تماماً في معانيها لكلمة "جاه" في العربية. ويلاحظ أن الجيم كانت تنطق معطشة كالجيم القاهرية Gah. وهذا هو النطق الأصلي للجيم قبل أن تجهر حسبما أثبتت الدراسات الحديثة لتطور نطق هذا الصوت (21). ولكن هناك أيضاً من يقلب "الجيم" إلى "ياء"، وقد يكون هذا المعنى بالذات كامناً خلف عبارة "ياه يهوه"، وإلاَّ فما هي هذه "الياه"؟

إنه احتمال لابُدَّ من وضعه في الاعتبار.

10- هناك احتمال آخر يقوم على المقارنة بين "يَهْوَه" وبين إله الهواء المصري "شو" Shu، فبالنسبة للمقابل العربي نستطيع مكافأة "شو" بالجذر الثنائي هو ذ هواء، إذ هو ربّ الهواء. ولكنَّ العربية "جوّ" أقرب وأدقّ باعتبار هذا المعبود مكلفاً بمهمة رفع السماء خشية أن تقع، وهي مهمة الجو كما تصورها الأقدمون. وفي الجو الهواء (النَفَس) ممثل قوى الحياة الضرورية (22).

وقد يساعدنا على فهم هذه العلاقة ما سيرد لاحقاً عن مطابقة البعض بين يهوه والإله الكنعاني "يَ و". ذلك أن "يَ و" هي أيضاً صيغة نطق واضحة لـ "ج و".

11ـ ثمة رأي يقول إن اسم "يهوه" الذي أطلقه اليهود على الإله، هو إحدى الصفات التي كان يطلقها المصريون على إلههم "أمون رع" ومن بعده الإله "آتون". ويعني الاسم "الموجود"، فهو الإله الموجود أو الكائن (23). لكنَّ صاحب هذا الرأي لا يبيِّن لنا ما هي اللفظة المصرية المستخدمة للتعبير عن هذا المعنى، إذ المهم ليس المفهوم، بل الدلالة اللغوية المباشرة المتعلقة بالمفهوم. ويذهب الدكتور أحمد بدوي أيضاً إلى الربط بين "آمون" و "يهوه"، فيقول إنَّ اسم "آمون" مشتق أكبر الظن ـ من فعل "أمن" بمعنى "بطن" وخفي واستتر، فهو "الباطن"، لأنه يمثل الهواء (الأثير) الذي لا يُرى، ونظيره عند العبرانيين (يهوفا) (يهوه) أي الهواء (24).

12ـ هناك رأي يذهب إلى أبعد مما سبق، فيرى أن كلمة "يهوه" أو "ياهو" وجدت في الأدب الشعبي المصري. ويقول "إنه كلما حزمنا أمر قد يقول القائل منا "يا هو"! وقد يكون أصل "ياهو" هذه مولّداً عامياً. ونحن نقول "هو الله" ونقول "يا الله". ومحتمل أن يكون قد استغني بالضمير عن الجلالة بحيث صار الاصطلاح "يا هو". وأستبعد بأن يكون الاصطلاح قد انتقل إلينا من اليهود، ذلك لأنهم أصلاً يحرمون النطق باسم ياهو أو يهوه، فكيف يمكن أن ينتقل منهم إلينا ويتغلغل في طرائق التعبير عندنا حتى يكون من أدبنا الشعبي" (25). والظاهرة التي يتحدث عنها د. الحفني هنا هي ظاهرة عربية عامة، بل نستطيع أن نجدها أيضاً عند رعاة البقر الأمريكيين، الذين يطلقون صرخة "يا هووو" للتعبير عن نشوة الانتصار، بينما نطلقها نحن للتذمُّر. أما تصوُّره أن يكون اليهود قد أخذوا الاسم عن العرب، فهو يتجاهل حقيقة أنَّ بني إسرائيل القدماء كانوا جزءاً من التكوين العربي، وبالتالي، فإنَّ تراثهم القديم بأكمله بما فيه من خيرٍ وشر، فلاح أو فشل.. الخ هو جزء من التراث العربي. ولولا ذلك لما ورد ذكر تجربتهم بكل تقلباتها بتوسُّع في القرآن الكريم. ويجب ألاّ ننسى أنَّ من شروط إيماننا الإسلامي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، ومنهم موسى عليه السلام.

وإذا كنّا قد عرضنا احتمالات علاقة اسم "يهوه" بالتراث المصري القديم على تنوُّعه، فإن هذا يشكّل جزءاً من محاولة للبحث عن هذه العلاقة ضمن التراث العربي ككل، كما يظل السؤال مطروحاً: مَنْ أدخل اسم "يهوه" إلى العقيدة اليهودية؟ ومتى؟ هل هو موسى حقاً أم أنَّ ذلك جرى بعد ذلك؟ وما هي الاحتمالات الأرجح لمعنى ومصدر الاسم في ضوء ذلك؟

وقبلَ أن ننتقل إلى محاولة الإجابة على هذه الأسئلة، لابُدَّ لنا من أن نثبت الملاحظة التالية: من المؤكد أن موسى وهارون عليهما السلام حين دخلا على فرعون، لم يفعلا ذلك باسم أيّ إلهٍ من الآلهة المعتمدة بوضوح في البانثيون الإلهي المصري ذكوراً مثل بتاح وأتوم ورع وأمون..الخ أو إناثاً مثل نيت وحتحور وسخمت.. الخ. واسم "رب العالمين" بصيغة "وننتي" كان معروفاً لدى المصريين كمفهوم، ولكن هذا

المفهوم كان يمكن أن يطلقوه على أيٍّ واحد من آلهتهم الكبار وحتى على الفرعون نفسه، ومن هنا لا نجد اسم "وننتي" كاسم إله في البانثيون الإلهي المصري ـ وكان تسليم فرعون باسم إله موسى وهارون كإلهٍ واحد، وتنفيذ أوامره، يعني تخلي الفرعون عن ادِّعائه الألوهية وعن الآلهة الذين يدَّعي أنه من نسلهم ويحكم باسمهم.

* * *

هوامش (2) أهَيهْ أشِرْ أهْيَهْ: يَهْوَه أرسلني إليكم:

(1): سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ص148.

(2): نفس المصدر، ص284، وص285.

(3): نفس المصدر، ص285، وص286.

(4): علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، ص572، وص573.

(5): نفس المصدر، ص573.

(6): أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص422.

(7): علي فهمي خشيم، م.س، ص782 وفرانسوا دوماس، آلهة مصر، ص21.

(8) : علي فهمي خشيم، نفس المصدر، ص123.

(9): نفس المصدر، ص634.

(10): نفس المصدر، ص231.

(11): نفس المصدر، ص647.

(12): نفس المصدر، ص602.

(13): نفس المصدر، ص626.

(14): ماكس شابيرو، معجم الأساطير، ص176.

(15): نفس المصدر، ص128.

(16): خشيم، م.س.ذ، ص447.

(17): نفس المصدر، ص123.

(18): نفس المصدر، ص123.

(19): جيمس هنري بريستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص95.

(20) : خشيم، م.س، ص717.

(21): نفس المصدر، ص490.

(22): نفس المصدر، ص471.

(23): د. عبد المنعم الحفني، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية، ص241.

(24): هيرودوت يتكلم عن أرض مصر، تحقيق أحمد بدوي، ص136.

(25): د. عبد المنعم الحفني، م.س، ص 13.

(3)

فرضية المصدر المدياني لـ "يَهْوَه"

هناكَ من يقول إن "يَهْوَه" كان إلهاً قمرياً يعبده المديانيون في جنوب صحراءِ سيناء. وكان مقامه في خيمة، وتقدم له القرابين من الماشية. وثمة رأي يقول إن اسم "يهوه" محرَّف عن اسم "يهوب" وهو إلهٌ بركاني كان يعبده المديانيون (1). ولكننا أمام هذا الرأي نتساءل:

1 ـ إذا كان يهوه إلهاً كوكبياً قمرياً، فهل يعقل أن يتبنَّاه موسى إذا اتضح أنه تبنَّاهُ بالفعل؟ وهل يعقل أن يتبنَّاه أنبياء لاحقون مثل داود وسليمان إذا ثبت أنه عرف بعد زمن موسى؟ ونحن نعرف قصَّة سليمان مع ملكة سبأ حين قال له الهدهد (إني وجدتُ امراةً تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومَها يسجدون للشمس من دون اللهِ وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا للهِ الذي يخرج الخبءَ في السموات والأرض ويعلم ما تُخفون وما تُعلنون * اللهُ لا إله إلاَّ هو ربُّ العرش العظيم) (النمل23-26).

2 ـ إن حمو موسى المدياني كان اسمه "رعوئيل"، ممّا يرجِّح أنَّ المديانيين كانوا يعرفون اللهَ باسمه "إيل"، كما أنَّ أغلبية أسماء قوم موسى الوارد ذكرها في التوراة، كانت عند الخروج إيلية. ولكنَّ التوراة عمدت إلى إقحام اسم ثان لرعوئيل هو "يثرون" في محاولة لإعطاء عمق تاريخي للتقليد اليهوي.

3 ـ إنَّ التوراة تتحدث عن حرب لا هوادة فيها، شنَّها بنو إسرائيل بقيادة موسى نفسه على المديانيين، قبل دخول بني إسرائيل إلى أرض كنعان حسب روايتهم ووصل الانقلاب على المديانيين إلى حدِّ اعتبار حمي موسى "قينياً"، والإدعاء أنَّ قبيلته انتقلت إلى أرض كنعان. وبهذه المناسبة ادَّعت لحمي موسى اسماً ثالثاً. لكنَّ حديث التوراة عن هذه الحرب يبدو مختلفاً، إذ يتعذر علينا أن نعرف أين كان المديانيون يقيمون على الأرض حين وقعت هذه الحرب.

4 ـ هناكَ من يرونَ أنَّ اسم "يهوه" كان معروفاً لدى بني إسرائيل قبل موسى بدلالة أنَّ أمَّهُ كانت تُدعى "يو كابد"، وأن المقطع الأول من اسمها هو اختصار لكلمة "يهوه" (2). ومن الممكن أن ينسب اسم "يهوذا" الابن الرابع ليعقوب إلى يهوه، رغم تسليم التوراة أن اسم "يهوه" لم يكن معروفاً من الآباء! ثم إن أسماء مثل "يهود" (اسم بلدة فلسطينية كنعانية كانت قائمة قبل غزو بني إسرائيل)، و"يهوديت" (اسم امرأة كنعانية حثية مثل يهوديت ابنة بئيري الحثي)، وأسماء اعتبر أنها منسوبة إلى يهوه كان يحملها الكنعانيون والحثيون الكنعانيون مثل اسم أوريا الحثي القائد في جيش داود، تثير التساؤل عن أصل كنعاني أو حثي ليس فقط لاسم "يهوه" ولكن أيضاً لاسم "اليهود". وتثير التوراة التساؤل وتكشف عن التزوير المتعمد حين تزعم أن إبراهيم عليه السلام أطلق على موضع واقعة "الفداء" اسم "يهوه يرأه"[تك 22/14]. إذ كيف يطلق عليه هذا الاسم وهو يعرف الإله باسم "إيل" وليس باسم "يهوه"؟.

لكنَّ محاولة الربط بين بني إسرائيل والمديانيين، والمصدر المدياني لعبادة يهوه، احتلت حيِّزاً واسعاً لدى المؤرخين، في ضوء وجهة النظر التي أبداها عالم التحليل النفسي اليهودي سيغموند فرويد، في كتابه "موسى والتوحيد". وقد أبدى فيه ما تعتبر آراء جريئة للغاية حول هذه المسألة. ورغم حِدَّة الصراع الفكري والمصيري الدائر بيننا وبين اليهود الصهاينة، فإننا لا نملك مسايرة فرويد في رأيه حين يقول "ولعل موسانا المصري يختلف عن موسى مديان بقدر اختلاف الإله الكوني آتون عن قاطن الجبل المقدس: يهوه الشيطان" (3).

فنحن رغم معاناتنا من العدوان اليهودي الصهيوني وجرائمه، إلاَّ أننا نميل إلى الأخذ بنصيحة "ابن العربي" التي يقول فيها "لا تقيد نفسك بأية عقيدة وحيدة بحيث تكذب المعتقدات الباقية، وإلاَّ ستخسر خيراً كثيراً. بل ستخفق في التعرّف على الحقيقة الفعلية للمسألة. فالله الكليّ الوجود والقدرة ليس محدوداً في عقيدة وحيدة، لأن الله يقول "فأينما تولوا فثمَّ وجهُ الله". فكل امرئ يمجِّدُ ما يعتقده، فإلهُهُ هو مخلوقه هو، وبتمجيده إنما يمجِّدُ نفسه. وبالتالي، فإنه يوجِّه اللوم إلى المعتقدات الأخرى، ولو كان عادلاً لما فعل ذلك، لكن كراهيته مبنيَّة على الجهل" (4).

قد لا نأخذ برأي ابن العربي بحرفيته، لكننا نتفق معه قطعاً في روح التسامح التي ينطلق منها، ودعوته إلى عدم التعصب، خاصة إذا كانت غايتنا من البحث هي الوصول إلى الحقيقة التاريخية. وهذا هو أيضاً الرأي الذي تذهب إليه كارين آرمسترونغ، ربما تحت تأثير رأي ابن العربي، حين تعقب قائلة "إننا لا نرى أيّ إله سوى الاسم الشخصي الذي تكشف لنا، وأعطي وجوداً ملموساً في كل منّا. وبالتالي، فإنّ فهمنا لربنا الشخصي مشوب بالتراث الديني الذي وُلِدَ فينا. لكنَّ المتصوِّف العارف يعرفُ أن إلهنا هذا هو بكل بساطة ملاك أو رمز مُحَدَّد للإله الذي ينبغي عدم الخلط بينه وبين الحقيقة المستترة ذاتها. وبالتالي يرى جميع الأديان المختلفة تجليات صحيحة" (5).

إن "تشخيص" الإله، وهي صفة واردة في اليهودية وفي المسيحية أيضاً، أو إضفاء صفة الألوهية على ملاك أو نبيّ، لابُدَّ وأن يقود إلى الواقع الذي وصفه ابن العربي ووصفته آرمسترونغ. وربَّما بدا فرويد أكثر جرأة، وأشدَّ موضوعية، حين اختار أن يناقش ديانته هو بالذات: "اليهودية". لكنَّه لم يفكر وهو يناقشها مراجعة التقليد الإسلامي بشكل خاص، وإلاَّ لكانت استنتاجاته بصددها أكثر موضوعية.

يفضِّل العديدون عندنا الاستشهاد بوجهة نظر فرويد (اليهودي) لتكون حجة لنا على اليهود. ولكنَّ هذه الحجة تنطوي على قضايا كثيرة خطيرة، سواء من وجهة نظر علم التاريخ، أو من وجهة النظر الدينية. ويكفي أنَّ السطرين اللذين اقتبسناهما عنه، ينطويان ـ على الأقل ـ على الملاحظات التالية:

1 ـ التشكيك بهوِّية النبي موسى عليه السلام.

2 ـ التشكيك بنبوَّة موسى عليه السلام. فهو في نظر فرويد مجرد قائد من أتباع الفرعون أخناتون، وليس نبيّاً مرسلاً.

3 ـ الإدِّعاء بأنَّ الفرعون أخناتون هو أوَّل من جاء بديانة التوحيد. وهذا يخالف ما نعرف عن الأنبياء الذين بعثوا قبل موسى، وخاصة عن الإيمان الإبراهيمي.

4 ـ الإدِّعاء بأن "آتون" هو الإله الكوني. وما كان آتون إلاَّ قرص الشمس، حتى وإن اتخذ إلهاً وحيداً، فبماذا تختلف عبادته عن عبادة أهل سبأ للشمس؟ إنها ديانة واحدة كوكبية. وأما كلمة "أدون" بمعنى "سيد" والتي يخاطب بها اليهود الرب، فإنّ مصدرها ليس تحوير كلمة "أتون". إذ أنَّ هذه الكلمة لا تزال حيَّة بمعنى "سيد" في اللهجة المصرية العامية، كدلالة على الاحترام والتوقير. كما أنَّ هذه التسمية معلم أساسي من معالم الديانة الكنعانية ـ الفينيقية متمثلة باسم الإله "أدونيس". ولابُدَّ لنا هنا أيضاً من التذكير بأنّ إلهة السلت الكبرى "دون" أو "دانو" أو "دانة" هي مؤنث "أدون"، واسمها ما زال حياً في أسماء العديد من المواقع الجغرافية في فلسطين مثل كفر دان (في موقعين) ودنَّة وأدنا.

5 ـ الإدِّعاء بأنّ الرب يَهْوَه الذي عبده اليهود هو "شيطان". وهذا أمر ليس من السهل القول به ما لم يكن عليه دليل أو برهان، إذ يمسّ مشاعر بعض البشر في عقيدتهم. ولا تكفي مظاهر الإفساد اليهودي كما مارسها الكهنة والحاخامات اليهود للحكم على الإله الذي آمنوا به بأنه شيطان.

6 ـ الإدعاء بأنَّ اليهود ـ ولم يكن بعد يهود ـ قد قتلوا موسى المصري. وليس على هذه الواقعة دليل في القرآن الكريم، وليست هناك إشارة واضحة إليها في التوراة. لكنّ القرآن الكريم يصف اليهود بقتلة الأنبياء. وقصة بني إسرائيل حسب روايتهم ترجح انفصال موسى عنهم عند التيه، إذ لا تيه إلاَّ بفقدان القيادة.

7 ـ الإدِّعاء بأنَّ موسى مدياني حلَّ محلَّ موسى المصري في قيادة اليهود. ولا نظنُّ أن التاريخ يمكن أن يرتب على أساس الصدف، بأن يوجد موسى مدياني كان جاهزاً للحلول محل موسى المصري. وأما علاقة النبي موسى بالمديانيين فقد أكدها القرآن الكريم.

8 ـ الإدِّعاء بأن اتحاداً تمّ بين "اليهود" وبين المديانيين، وأنَّ اليهود أخذوا اسم "يهوه" عن المديانيين. ولو صَحَّ هذا لتغيَّر مسار الديانة اليهودية كلياً، ولما ظهرت النزعة اليهودية الانعزالية المنغلقة والمتغطرسة، لأنَّ المديانيين يفترض أنهم من الإسماعيليين.

الادعاء بأنَّ الخروج من مصر تمَّ بعد زمن أخناتون، ومن ثم إيجاد محدِّد تاريخي لزمن الخروج على فرضية اعتناق موسى لديانة أخناتون. لكننا نعرف أنَّ موسى ولد في ظل فرعون الاضطهاد، وأنَّهُ اصطدم بفرعون الخروج الذي لا نعرف بالضبط إن كان هو فرعون الاضطهاد أو من خلفه، وبالتالي أين موقع أخناتون الطيب في القصة؟ ثم إنّ ادعاء فرويد حول قصة موسى الطفل، على أنها أسطورة. في ضوء أدوات التحليل النفسي تخالف الوقائع التي أكدها القرآن الكريم. ثم إن رسائل عبدي هبة حاكم القدس إلى أخناتون بالذات والتي تحدث فيها عن استيلاء العبرانيين على بعض أراضي الملك ترجح أن قصة خروج بني إسرائيل حدثت قبل زمن أخناتون وليس بعده وهذا كله يبيِّن فساد محاولات الربط بين موسى وأخناتون.

ولكن يبدو أنَّ اليهود، وقد وجدوا أن المكتشفات الأثرية، لم تقدم ولو دليلاً واحداً على قصّة الخروج، ضمن الزمن الذي ادَّعته التوراة، يسعون بأيٍّ شكل من الأشكال إلى إثبات القصّة، ولو عبر تزوير جديد للتاريخ.
ومن هذه المحاولات، قيام باحثين يهوديين فرنسيين، هما مسعود وروجيه صبَّاغ بنشر كتاب بعنوان "أسرار الخروج" يدّعيان فيه أنَّ أخناتون هو إبراهيم عليه السلام، وأن زوجه نفرتيتي هي سارة، وأن "اليهود" هم الأقوام المصرية التي تبعت أخناتون وعقيدته التوحيدية، والتي سكنت مدينة "أخت آتون" (أفق آتون)، وأنَّ القائد آي قام بعد موت أخناتون بطردهم إلى صحراء سيناء، وأنه أطلق عليهم اسم "عبرانيين" لأنهم "عابدو فرعون"! والطريف أنَّ هذين المؤلفين ذهبا إلى أن يوسف هو آي الذي طرد اليهود، وأنَّ القائد حورمحب هو هارون أخو موسى، وأنَّ موسى هو رمسيس الأول (6).
إنَّ مثل هذه التوليفات التلفيقية السافرة، إنما ترمي إلى زعزعة يقين المؤمنين. ولكن أيُّ مؤمنين؟. من الواضح أنَّ سهم التلفيق اليهودي موجَّه ضد المسلمين والمسيحيين، فاليهود ـ كما هو واضح ـ باتت لديهم حصانة تجاه مثل هذه التزويرات، لكثرة ما لفقوا في الماضي، دون أن تتأثر يهوديتهم بهذا التلفيق. ويبدو أنَّ هذا المنطق ينطبق أيضاً على تلفيقات فرويد رغم ما هو مفترض عن وزنه العلمي. وعودة إليه ـ أي فرويد ـ فإنه يقول "إننا نقتبس من سيلن الفكرة القائلة بأنَّ الديانة التي استوردها المصري موسى قد هجرت بعد أن اغتاله اليهود" (7). ثم يقول "إنَّ القبيلة العائدة من مصر انضمت في المنطقة الواقعة بين مصر وكنعان إلى قبائل أخرى نسيبة كانت قد استقرت فيها منذ أمد بعيد. هذا الانصهار، الذي انبثق عنه شعب إسرائيل، تجلّى في اعتناق ديانة جديدة تدين بها القبائل جميعاً، ديانة يهوه. ويقدر إ. ماير أنَّ هذا الحدث تمَّ في قادش تحت تأثير المديانيين" (8).
إنَّ وجهة نظر فرويد تعني أنَّ يهوه حلَّ ببساطة محل آتون، ولا ندري لماذا، مثلما حلَّ موسى مدياني محلّ موسى المصري الذي قتل. ويقول فرويد "وفي وسعنا القول آخذين بعين الاعتبار هذه الواقعة، أن الأمة انبثقت عن اتحاد مركبين اثنين. ومن هنا، كان انفصالها بعد فترة وجيزة من الوحدة السياسية، إلى شطرين، مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا" (9). ويضيف "إنّ معرفتنا بذلك العصر ليست على درجة كافية من التيقن لتبيح لنا أن نؤكد أنَّ من بقي مقيماً في البلاد كان موجوداً في الشمال، وأنَّ من رجع من مصر استقر في الجنوب" (10). وإذا صحّ افتراض فرويد هذا، فإنّه يعني أنَّ قبيلة يهوذا هي التي جاءت من مصر، وأنَّ قبائل إسرائيل كانت مستقرة في الشمال، ولكن مَنْ هو المدياني بينهما؟ ثمَّ إذا صحّ افتراضه وجب أن تكون عبادة يهوه قد جاءت من مصر، أما عبادة العجلين في "بيت إيل" و "دان" في مملكة الشمال فقد كانت تقليداً محلياً ليس مستورداً من مصر! مع العلم أنّ العجل المعبود هو عجل أبيس رمز الإله المصري بتاح، وهو العجل الذي صنعه لهم السامريُّ أثناء الخروج. وبالطبع، فإن وجود السامريّ يؤكد أن قوم موسى لم يكونوا قبيلة واحدة.

ومن الواضح أنَّ ما أراد فرويد قوله هو أن أغلبية الأسباط (عشرة) كانت مقيمة أصلاً في أرض كنعان ومستقرة فيها، ممّا يغير من وجه القضية في دعوى الاستئثار بالأرض.

إنَّ الثنائية في تركيب بني إسرائيل، والتي تحدث عنها فرويد، إنما هي صفة لمن خرجوا معه من مصر. وهذا ما نفهمه بشكل جليّ من قول حزقيال البني "وكان إليّ كلام الربّ قائلاً يا ابن آدم كان امرأتان ابنتا أم واحدة. وزنتا بمصر. في صباهما زنتا. هناك دغدغت ثديّهما وهناك تزغزغت ترائب عذرتهما. واسمهما أهولة الكبيرة وأهوليبة أختها، وكانتا لي وولدتا بنين وبنات. واسماهما السامرة أهولة وأورشليم أهوليبة" [حزقيال 1-23/4]. فمن هذا النص نفهم أن قوم موسى كانوا مشكّلين من جماعتين أساسيتين، هما: بنو إسرائيل وبيت يعقوب، وأنّ التقليد اليهودي حاول جاهداً توحيد العنصرين تحت اسم بني إسرائيل، بعد أن أعطيت أسماء أبناء يعقوب للأسباط التي شكلت وفق ترتيب إداري. وهو ما يؤكده القرآن الكريم في قوله (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً) (الأعراف160). فقصة القبائل النسيبة المحلية لا أساس لها، وقصة الاتحاد مع المديانيين لا أساس لها أيضاً.

ويمضي فرويد في اتجاهٍ آخر، حين يقول "في وسعنا الافتراض بأنَّ عدداً كبيراً من بطانة موسى (اللاويين) قد أمكن لهم النجاة من النكبة التي نزلت بالنبي وبالديانة التي أسَّسها. وقد تكاثر هؤلاء الناجون وتضاعفوا في الأجيال التالية. وقد لبثوا على وفائهم لقائدهم وأكرموا ذكراه، وحافظوا على ميراث مذاهبه، وإن اندمجوا مع سكان البلاد التي كانوا يحيون فيها. وفي حقبة التمازج مع المتشيعين ليهوه، كانوا يشكلون أقلية فاعلة، أكثر تمدناً من باقي السكان (11). وينقل فرويد عن غروسمان قوله بصدد تعدّد الأسماء "إيلوهيم ويهوه وأدوناي" "إن الأسماء المختلفة تشير بوضوح إلى أنَّ المقصود بها أيضاً في البدء آلهة مختلفة" (12). ويرى فرويد أنَّ من المباح أن نسلّم بأنَّ موسى المصري لم يذهب قط إلى قادش ولم يسمع قط باسم يهوه ينطق، بينما لم تطأ قدما موسى المدياني أرض مصر قط، وكان جاهلاً بكل شيء عن آتون. وحتى يتم الانصهار بين الشخصين، كان لابُدَّ أن ينقل الموروث والخرافة موسى المصري إلى مديان" (13).

إنَّ فرويد في منطقه هذا، يجعل "الديانة اليهودية" في نهاية المطاف تعبِّر عن استرداد للموسوية، وأنها أعطت "يهوه" صفات إله موسى "آتون". وفي هذه الحالة لابُدَّ للمرء وأن يتساءل: ما هو المبرّر لقدوم السيد المسيح عيسى بن مريم؟ وما هي الضرورة لأن يستجيب اليهود الذين وصلوا إلى التوحيد الحقيقي لدعوته؟. كما يترتب سؤال مماثل بالنسبة لضرورة البعثة الإسلامية. وكيف يمكن في هذه الحالة أن نفهم قوله تعالى (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) دون أن نسلّم بأنَّ المقصود بذلك هم اليهود؟!.

إنَّ براءة فرويد وعلميته، وتظاهره بوضع الديانة اليهودية على طاولة التشريح، لا تخفي في نهاية المطاف الغاية المتمثلة بمحاولة هدم الديانتين المسيحية والإسلامية، بينما يكون قد حكم لليهودية بخروجها من النفق

الطويل المعتم عبر جهاد بطولي لشيعة موسى. فقصص ثبّتها القرآن الكريم مثل طفولة موسى وتربيته في بيت الفرعون، ثم ظروف هروبه إلى مدين، وتلقيه الدعوة، هي عند فرويد من "الموروث والخرافة". وللأسف يوجد عندنا من يفتنهم تحليل فرويد ظانين أنه حجة على اليهود، دون أن ينتبهوا إلى غاياته البعيدة. بل إن زجَّ فرويد لاسم المديانيين في هذه القصة يرمي إلى تحميل المديانيين مسؤولية التفكير والممارسات الناجمة عن الإيمان بـ "يهوه" الذي وصفه بالشيطان، باعتباره إلهاً مديانياً في الأساس، وأن اليهود إذا كانوا قد ارتكبوا الأخطاء والمعاصي والمجازر الدموية، فإن ذلك كله تم تحت تأثير إله أجنبي مدياني عربي، نجح اليهود في إعادة تشكيل صورته في زمن لاحق.

يقول فرويد إنه "أسبغت على الإله يهوه، بدءاً من قادش، مكارم لا يستحقها، وعزي إليه إنقاذ اليهود الذي تمّ على يدي موسى، ولكن دفع غالياً ثمن هذا التعدّي والاغتصاب. فقد أصبح ظل (الله) الذي احتلّ مكانة أقوى منه، وَقُدِّر للإله الموسوي المنسيّ في ختام هذا التطور التاريخي أن يكسف شمسه بصورة كاملة. وفكرة هذا الإله هي وحدها ـ لا يمكن لأحد أن يشكك في ذلك ـ التي أتاحت لشعب إسرائيل أن يتحمل ضربات القدر كافة، وأن يستمر حتى أيامنا هذه" (14). ويقول فرويد "إننا أضفنا إلى ثنائيات التاريخ اليهودي المعروفة: شعبين ينصهران ليؤلفا أمة (*). مملكتين تتفرعان عن انقسام هذه الأمة، إله يحمل اسمين في مصادر التوراة، أضفنا إلى هذه الثنائيات ثنائيتين أخريين: تأسيس ديانتين جديدتين، تدحر ثانيتهما أولاهما في البداية ولكن الأولى لا تتأخر في انتزاع لواء النصر من جديد. ثم مؤسّسي ديانة اثنين يُسَمَّى كل منهما موسى، ولكن لا مفرَّ لنا من التمييز بين شخصيتيهما. وجميع هذه الثنائيات تتفرع بالضرورة عن الثنائية الأولى كون شطر من الشعب قد عانى من حدث مفجع لم يعانِ منه شطره الآخر" (15). ونحنُ نرى أن الثنائية الأولى ليست بين يهودي ومدياني، وإنما بين بني إسرائيل وبيت يعقوب اللذين كانا في مصر معاً، واللذين عانيا من الحدث المفجع معاً، وأنه لم يكن هناك سوى موسى واحد يعرف الله باسمه "إيل"، وأنَّ اسم "يهوه" قد اقتحم المشهد في زمنٍ لاحق.

ويحاول فرويد التدليل على صحّة رأيه، بإيراد مثال مستوطنة اليهود في جزيرة الفنتين في جنوب مصر، حيث كانت ضروب العبادة في الهيكل المشيَّد فيها تؤدى إلى الإله الرئيسي ياهو وإلهتين أنثيين كانت إحداهما تدعى عناة ـ ياهو. ويعتبر أنَّ هؤلاء اليهود كانوا منفصلين عن الوطن الأم، فما كان لهم أن يعرفوا التطور الديني نفسه، وأن الإمبراطورية الفارسية هي التي نقلت إليهم تعاليم أورشليم الدينية الجديدة. ويرى أن الإله يهوه لم يكن يشبه من قريب أو بعيد إله موسى. فقد كان آتون مسالماً، شأنه شأن ممثله الأرضي، أو بالأحرى بعيمهِ الفرعون أخناتون" (16).

ويتجاهل فرويد هنا بالطبع أن هذه المستعمرة لم تنشأ منذ زمن موسى، وأنَّ عناة هي آلهة كنعانية، وأنَّ الأمر الوحيد ذات الدلالة هو التمايز بين اسمي "ياهو" و "يهوه"، وأن الإمبراطورية الفارسية هي التي جاءت باليهودية الجديدة من بابل إلى أورشليم، ووصل بها الاهتمام باليهود وتوظيفهم في خدمتها حتى

جزيرة الفنتين. أما الأهم من هذا كله، فهو أنَّ فرويد لو عاش طويلاً ليرى نتائج المكتشفات الأثارية، لاكتشف أنَّ ما كان يحدث في فيلة من عبادة إلهتين إلى جانب (ياهو)، لم يكن حادثاً عرضياً منعزلاً، "وأن يهود فيلة إنما كانوا عناصر حامية يهودية جاء بها الفرس من كنعان ومعهم تقاليدهم الدينية" (17).

يكتب الآثاري الإسرائيلي زئيف هيرتسوغ متسائلاً: "كم إلهاً كان، في واقع الحال، لدى إسرائيل؟". ويجيب "في إطار الحقائق التاريخية والسياسية، هناك شكوك حول مصداقية المعلومات المتعلقة بالمعتقدات والعبادة. وقد أثير سؤال حول تاريخ تبني مملكتي إسرائيل ويهوذا للديانة التوحيدية عند اكتشاف نقوش باللغة العبرية القديمة، تذكر زوجاً من الآلهة: يهوه وزوجته أشيرة. ففي موقعين هما كونتيلة عجرود في الجزء الجنوبي من منطقة النقب التلّية، وفي خربة الكوم في سفوح جبال يهودا، عثر على نقوش عبرية تذكر "يهوه وزوجته أشيره" و"يهوه شومرون (أي السامرة) وزوجته أشيره" و"يهوه تيمان وزوجته أشيره". كان هذان الزوجان من الآلهة، يهوه وأشيره، مألوفين لدى المؤلفين. وكان هؤلاء المؤلفون يمنحون بركاتهم باسم هذين الزوجين. وهكذا، إن هذه النقوش، التي ترقى إلى القرن الثامن ق.م تطرح إمكانية أن تنشأ فكرة التوحيد، كديانة لدولة في واقع الحال، في عهد مملكة يهوذا بعد القضاء على مملكة إسرائيل (إلى الشمال منها)" (18). وفي النصوص النبطية التي عثر عليها في جبل المناجاة بسيناء، جاء ذكر أسماء عدة معبودات قديمة مثل العزى وبعل ويهوه وإيل وعشيرة (19).

إنَّ هذه المعطيات تعني ببساطة أن الديانة اليهودية، واقعياً، لم تكن تختلف عن الديانات السائدة عند الكنعانيين وغيرهم في المنطقة، وأنّ نزعة التوحيد في هذه الديانة تمثلت في صرخات الأنبياء وليس في عبادات الأتقياء. ولكن إلى أيّ مدىً يمكننا الوثوق في أنَّ النصوص المدوّنة من قبل الربانيين لم تتعرض للتنقيح على النحو الذي يلائم تصوَّرهم النهائي؟

يعترف فرويد هنا "أن الكهنة نسبوا إلى موسى وقائع كثيرة تفوق الحد المعقول حين تناولوا بالتنقيح والتعديل النصوص التوراتية التي هي اليوم في متناولنا. فبعض المؤسسات، وبعض الشعائر الطقسية، التي لا مراء أنها تعود إلى زمن أكثر تأخراً صُوِّرت وكأنها شرائع سَنّها موسى. وهذا لهدف جلي ظاهر وهو إحاطتها بالمزيد من النفوذ والهيبة" (20). ولو أنهم نسبوها إلى موسى حصراً لهان الأمر، ولكن ألا نلاحظ أنهم نسبوا كل شيء إلى "يهوه" (الله)، وبذلك يكونون قد قوَّلوا الخالق عزَّ وجلّ بما لم يقله. ثم إن فرويد يقرُّ عملياً بأن اسم الرب "يهوه" لم يكن الاسم الذي جاء به موسى. وبافتراض أنّ هذا الاسم اعتمد في زمن لاحق، فما كان منطقياً أن يعودوا به إلى الوراء، وليطلقوه على أسماء ومسميات دون التزام بالحقيقة.

ويحاول فرويد تبرير هذه الظاهرة بالقول "إنَّ الباعث العميق على تلك المبالغة ظاهر للعيان. فلقد تحرَّى الكهنة، في سردهم، أن يوجدوا استمراراً بين عصرهم وعصر موسى. وأرادوا أن ينفوا ما يمثل في نظرنا أبرز واقعة في تاريخ الدين اليهودي: أعني بها وجود ثغرة بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمن، ثغرة سُدَّت في البداية بعبادة يهوه، ثم تمّ التخلص منها فيما بعد رويداً رويداً" (21). "ولقد

كانت رواية الكهنة تخضع لنفس الميل المحرف، المشوه، الذي كان جعل من الإلـه الجديد يهوه، إلـه الآبـاء الأوائل" (22). فالشعب اليهودي الذي هجر ديانة آتون التـي لقنـهُ إياهـا موسـى اعتنـق عبـادة إلـه آخـر يمتّ بصلة وثيقة إلى بعل الشعوب المجاورة. وجميع الجهود التي بذلت فيما بعد لإخفاء هذه الواقعة المذلّـة مُنيت بالفشل. ولكنَّ ديانة موسى تركت، بالرغم من زوالها، آثاراً، نوعاً من ذكرى، ولبثت، وإن محاطة بلا ريـب بالغموض والتشويه، مأثور ماضٍ عظيم استمر يفعل فعله في الخفاء وتوطدت، رويداً رويداً، سطوته علـى النفوس، إلى أن قُدِّر له في خاتمة المطاف أن يحوِّل الإلـه يهوه إلـى إلـهٍ موسـوي وأن ينفخ الحيـاة مـن جديد في ديانة كان موسى قد أقامها قبل قرون طوال ثم كـان مآلهـا الهجـر. وإنّـه ليشقُّ علينـا أن نفهم كيف أمكن لمأثور مخنوق أن يكون له مثل هذا التأثير على الحياة الروحية لشعب مـن الشعوب" (23). ولكـن لـو صـحَّ ادّعاء فرويد لوجب أن يتحول اليهود إلى المسيحية أو أن تتحول اليهودية إلى الموسوية. وبالطبع، فقد كـان الأجدر به إعادة أصل الديانة التوحيدية إلى جذرها الإبراهيمـي ولـيس إلـى ديانـة آتـون الشمسـية، وإن كانـت العودة الحقيقية إلى ملة إبراهيم حنيفاً لم تتحقق إلا بالإسلام، حين أقرّ مبدأي وحـدة الخـالق (الله) والشمولية الكونية للدعوة.

ويقول فرويد إنـه "بعد جهود متواصلة علـى مدى قرون وقرون، وبعد إصـلاحين كبيرين، تمّ الأول قبل النفي إلى بابل والثاني بعده، تحقق تحوّل الإله الشَعْبي يهوه، فصـار هو الـرب الـذي كـان موسـى قد فرض عبادته على اليهود" (24). ولا ندري أيضاً موقع هؤلاء المديانيين من القصة بكاملها. هل كـان دورهـم فـي قادش مقتصراً على منح اسم يهوه لليهود؟ وأنَّ مـا أنجزه اليهود فـي النهايـة كـان تحرراً مـن الإلـه المدياني المستعار؟ وإذا صحَّ هذا، فماذا عن كل ما جاء في كتب الأنبياء؟ أكـانوا يـدعون النـاس إلـى إلـه ومـا هـو فـي نظرهم بإله.

لعلَّ فرويد حاول الإجابة على أهم هذه التساؤلات حين قال "من المؤكد أنَّ يَهْوَه كـانَ أصلح وأنسب لشعبٍ شرهٍ إلى الفتوحات. وطبيعي أنَّ كلّ ما كان يستأهل الإعجـاب حقـاً فـي إلـه موسـى، كـان يستعصـي، ولابُدَّ، على فهم الجماهير البدائية. (25)

لكن هذا الرأي يصطدم مع واقعة أن افتراق موسى عن بنـي إسـرائيل تـم حين قـالوا لـه (اذهـبْ أنـتَ وربـك فقاتلا)، فشراهتهم للفتوحات لم تكن مقترنة بالاستعداد للتضحية. ومـن المؤكـد أن اعتنـاقهم لعبـادة يهـوه بـدلاً عن إله موسى، حسب فرضية فرويد. لم يكن ليهيئ لهم إلهاً يخوض المعارك بدلاً عنهم. ثم إنّ شكوى أنبياء اليهود طوال الوقت كانت تتمثل في اتهام الملوك والكهنة والجمهور بـالخروج عن ديانة يهوه، وتقليد ديانـات الكنعانيين. ولكن حتى هؤلاء الأنبياء ـ حسب منطق فرويد ـ كانوا شركاء إلى حد ما في التفلت مـن المفهـوم الموسوي للألوهية.

يقول فرويد "إن واحدة مـن الشرائع الموسوية لهـا مـن الأهميـة أكثـر ممـا يُعزى إليهـا عـادة للوهلـة الأولـى. أعني بها حظر تصوير الله وتشخيصه، أي إلزام الأتباع بعبـادة إلـه غيـر منظـور. وإنـي لأتكهن بـأنّ موسـى

كان أكثر تشدداً وتصلباً، بصدد هذه النقطة، من ديانة آتون. ولعلّ قصده الوحيد كان أن يكون منطقياً، لأن إلهةُ لا وجه له ولا رسم. ولعلّه كان يرمي من ذلك إلى إقرار إجراء جديد من إجراءات الحماية ضد الممارسات السحرية المحظورة اللامشروعة. ولكن مهما تكن الأسباب، فإن ذلك الحظر قد ترتبت عليه، بمجرد أنه فرض واحترام (**) نتائج خطيرة. أعني تراجع الإدراك الحواسي بالنسبة إلى الفكرة المجردة، وانتصار الروحانية على الحواس، أو بتعبير أدق نكران الغرائز مع كل ما يترتب على هذا النكران من وجهة نظر علم النفس". (26)

لكن الواقع يقول بكثرة التجسيم والتشبيه لله تعالى في التوراة، وإن استمر الحظر على تصويره أو صنع صنم له، وإن استبدل اليهود الصنم بفكرة أن الله يسكن في تابوت العهد أو في الهيكل.

ولنتابع مع فرويد فكرته، فهو يقول "وجد الإنسان نفسه منقاداً إلى الاعتراف بوجود قوى روحية، أي قوى لا يمكن للحواس، وعلى الأخص البصر، أن تفهمها أو تستوعبها. مع أن نتائجها لا مماراة فيها، بل عظيمة. وإذا ما رجعنا إلى اللغة، وجدنا أن تحرك الهواء هو الذي اقتبست منه صورة الروحانية، وذلك ما دامت الروح تأخذ اسمها من نفخ الهواء (Animus Spiritus ، وبالعبرية Ruache دخان). هكذا ولدت فكرة النفس، مبدأ الفرد الروحي. ويمكن للمراقب أن يلحظ نفحة الهواء تلك في تنفس الإنسان الذي لا يقف إلاّ ساعة موته". (27)

وكأن تحليل فرويد هنا يرجح معنىً لاسم "يَهْوَه" على أنه "الذي يسري في الأهوية"، أو أنه روح الهواء.

وباختصار، فإن فرويد يُسلّم بأن "يهوه" لم يكن هو الإله الذي دعا موسى بني إسرائيل لعبادته، ويردّ مصدر هذا المعبود إلى المديانيين، وهو ادِّعاء يتعذر إثباته، مثلما يتعذر حدوث اتحاد بين بني إسرائيل والمديانيين، وحتى لو حصل التعاون بينهما، كان لابُدَّ وأن يتم على أساس ديانة موسى وشعيب عليهما السلام، وهي الإسلام، والإيمان بوحدانية الله عزّ وجلَ.

ولكن، إذا كان يهوه لم يقتحم المشهد في ذلك الحين، ولم يكن مصدره مديان فكيف اقتحم المشهد؟ ومتى؟ ومن أي مصدر؟.

* * *

هوامش (3) فرضية المصدر المدياني لـ "يَهْوَه":

(1): هنري. س. عبودي، معجم الحضارات السامية، ص929.

(2): نفس المصدر، ص929.

(3): سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص58.

(4): نفس المصدر، ص243.

(5): نفس المصدر، ص243.

(6): أحمد عثمان، باحثان فرنسيان: اليهود كانوا مصريين. جريدة الشرق الأوسط، العدد 7978 تاريخ 2000/10/1.

(7): فرويد، م.س، ص60.

(8): نفس المصدر، ص60.

(9): نفس المصدر، ص61.

(10): نفس المصدر، ص62.

(11): نفس المصدر، ص63.

(12): نفس المصدر، ص65.

(13): نفس المصدر، ص67.

(14): نفس المصدر، ص83، وص84.

(*): هل من دليل واحد بسيط مهما كان عن انصهار المديانيين مع بني إسرائيل أو اليهود؟.

(15): نفس المصدر، ص86، وص87.

(16):نفس المصدر، ص104.

(17): أحمد سوسة، م.س، ص530.

(18): زئيف هيرتسوغ، صحيفة هآرتس 1999/10/29.

(19): أحمد عثمان، جريدة الشرق الأوسط، العدد 7964 تاريخ 2000/9/17.

(20): فرويد، م.س، ص108.

(21): نفس المصدر، ص108، وص109.

(22): نفس المصدر، ص109.

(23): نفس المصدر، ص115.

(24): نفس المصدر، ص186.

(25): نفس المصدر، ص104.

(**): من العجيب أن ينجح موسى في فرض هذا الحظر، وأن يفشل في إقناع بني إسرائيل باسم ومواصفات الإله المطلوب منهم عبادتهّ! فإذا كانت له عليهم دالة فمن الطبيعي أن تكون حول ما هو أساسي قبل أن تتناول ما هو ثانوي نسبياً، خاصة وأن القبول بإله يعني التسليم بصفاته.

(26): نفس المصدر، ص189، وص190.

(27): نفس المصدر، ص191، وص192.

* * *

(4)

يوم حلَّ الغضب

إذا كان المفسِّرون المسلمون يقولون إن آية (غير المغضوب عليهم) في فاتحة القرآن الكريم تعني اليهود، فإن المصادر المسيحية واليهودية أيضاً تؤكد وقوع هذا الغضب.

ففي المصادر المسيحية، يستوقفنا بشكل خاص، قول بولس الرسول "وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلاً حَسَبَ دهر هذا العالم حَسَب رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية الذين نحن أيضاً جميعاً تصرَّفنا قبلاً بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً. اللهُ الذي هو غنيٌّ في الرحمة من أجل محبَّته الكثيرة التي أحبَّنا بها. ونحن أموات بالخطايا أحياناً مع المسيح. بالنعمة أنتم مخلَّصون".(1)

لن نتدخل لمحاولة تفسير أي من العبارات التي تضمنتها هذه الرسالة. لكننا مستذكرين ما وصلنا إليه في الفصل السابق مع فرويد، لا بُدَّ وأن نلاحظ أنَّ فرويد حاول إعطاء مدلول موسوي مسيحي لـ "يهوه" وإن وصفه أساساً بأنه "شيطان"، وهو وصف لم يجزهُ لنفسه بولس الرسول فتحدث فقط عن "رئيس سلطان الهواء" ووصفه بـ "الروح"، ومحاولة فرويد بالطبع تريد أن تعطي لليهودية شرعية الاستمرار، رغم أن هذه الشرعية انتهت بمجيء السيِّد المسيح.

إنَّ وجهة نظر مشابهة لما قاله بولس الرسول، نجدها عند الصابئة المندائيين وهم أتباع النبي يحيى (يوحنا المعمدان) الذي مهَّد لقدوم السيد المسيح بالتعميد بالماء. فهم يقولون بأن اليهود "كانوا بصورة عامة يعبدون "الروهة" (*) (الروح) وأبناءها، وبخاصة يوربا (يهو/ ربَّا)، ويجهلون النور، وتعاليم أبناء النور. وإلى هذا اليوم، واليهود يعبدون "يوربا" الذي هو إله الشمس.(**) إن منزلة "يوربا" من الشمس كمنزلة الربَّان من السفينة يديرها، إلاَّ أنه هو نفسه تحت إدارة أرباب النور. لأنَّ أبناء الظلام، والذين هم على حساب الروهة يخدمون أبناء النور، وهكذا منح شامس موسى القوة". (2)

بطبيعة الحال، نحن عاجزون ليس فقط عن قبول، ولكن أيضاً عن فهم، تفسير من هذا النحو يعطي للكواكب مدلولات تتجاوز فهمنا بطبيعتها. كما أنّ الله عزَّ وجلّ ـ وليس شامس ـ هو مَنْ أعطى موسى القوة.

ولكنَّ عجزنا هذا لا يلغي واقعة مثبتة في التقليدين اليهودي والمسيحي حول عبادة اليهود لجند السماء. ففي سفر أعمال الرسل يرد القول عمَّا حدث بعد الخروج "فعملوا عجلاً في تلك الأيام وأصعدوا ذبيحة للصنم وفرحوا بأعمال أيديهم. فرجع اللهُ وأسلمهم ليعبدوا جند السماء كما هو مكتوب في كتاب الأنبياء. هل قربتم لي ذبائح وقرابين أربعين سنة في البرية يا بيت إسرائيل. بل حملتم خيمة مولوك ونجم إلهكم رَمْفان التماثيل التي صنعتموها لتسجدوا لها. فأنقلكم إلى ما وراء بابل" [أعمال الرسل41-7/43].

ونحن نجد التأكيد اليهودي لهذه الواقعة في سفر عاموس إذ يقول "هل قدَّمتم لي ذبائح وتقدمات في البريَّة أربعين سنة يا بيت إسرائيل؟ بل حملتم خيمة ملكومكم وتمثال أصنامكم نجم إلهكم الذي صنعتم لنفوسكم. فأسبيكم إلى وراء دمشق قال الرب إله الجنود اسمه" [عاموس25-5/27].

لنلاحظ في النصَّين أنَّ الخطابَ موجَّه حصراً إلى "بيت إسرائيل" ولم يرد ذكر "بيت يعقوب". وقد يكون لهذا مغزاه.

وعلى أيّ حال، فإنَّ تسليم "بيت إسرائيل" ليعبدوا جند السماء، يعني حلول الغضب عليهم. وفي هذه الحالة، لا نتصوّر استمرار موسى وهارون معهم، فلابُدَّ من الافتراق عنهم. وبفقدانهم القيادة كان التيه، لأنَّ التيه منطقياً لا يكون لقوم مجتمعين خلف قيادة، ولا يكون في أرض مخارجها ثلاثة أيام كحد أقصى في كل اتجاه كما يفهم من رواية التوراة، بل لا بُدَّ وأن يكون قد حدث في قفار واسعة. وافتراق موسى عنهم هو ما اعتبره فرويد، مستنداً إلى سلين، قتلا له على أيديهم. والواقع أن افتراق نبيّ عن قومه هو بمثابة قتل معنوي، إن لم يكن قتلاً مادياً.

ثمة رواية توراتية وأخرى قرآنية تتعقب قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل منذ بعث إليهم، وإلى أن حلَّ الغضب بهم. وسنحاول هنا تعقب هذه القصة وفهم أبعادها استناداً إلى المصدرين.

حزقيال نبيّ من أنبياءِ بني إسـرائيل، بدأ نشـاطه في حوالي العام 593 ق.م، وهو في السفر المعتمد باسمه يقدم ما يمكن اعتباره تاريخاً موجزاً للأحداث التي مرّ بها بنو إسرائيل.

يقول حزقيال "هكذا قال السيد الرب. في يوم اخترت إسرائيل ورفعت يدي لنسل بيت يعقوب وعرفتهم نفسي في أرض مصر ورفعت لهم يدي قائلاً: أنا الربّ إلهكم. في ذلك اليوم رفعت لهم يدي لأخرجهم من أرض مصر إلى الأرض التي تجسستها لهم تفيض لبناً وعسلاً هي فخر كل الأراضي. وقلت لهم اطرحوا كل إنسان منكم أرجاس عينيه ولا تتنجسوا بأصنام مصر. أنا الربّ إلهكم. فتمردوا عليَّ ولم يريدوا أن يسمعوا لي ولم يطرح الإنسان منهم أرجاس عينيه ولم يتركوا أصنام مصر فقلت إني أسكب رجزي عليهم لأتمَّ عليهم سخطي في أرض مصر. لكن صنعت لأجل اسمي لكيلا يتنجس أمام عيون الأمم الذين هم في وسطهم الذين عرفتهم نفسي أمام عيونهم بإخراجهم من أرض مصر. فأخرجتهم من أرض مصر وأتيت بهم إلى البرِّية. وأعطيتهم فرائضي وعرَّفتهم أحكامي التي إن عملها إنسان يحيا بها. وأعطيتهم أيضاً سبوتي لتكون علامةً بيني وبينهم ليعلموا أني أنا الربُّ مقدِّسهم" [حزقيال 5-20/2].

لنلاحظ هنا أن الكلام المنسوب إلى حزقيال النبيّ، منسوب مباشرة إلى الربّ. ومع ذلك فإنَّ الرب الواسع العليم المحيط بكل شيء يحتاج إلى أن يتجسس الأرض، وأن يحكم على الأرض التي "تجسَّسها" لهم بأنها فخر كل الأراضي، وهو حين وجدهم متمردين على تعليماته يشعر بأنه بات متورطاً معهم لكيلا يتنجس اسمه أمام عيون "الأمم"، فيتراجع عن معاقبتهم أو التخلّي عنهم إلى إتمام مهمة إنقاذهم. والواقع أننا أقحمنا

كلمة إنقاذهم في النص، لأنَّ النص لم يفكر صاحبه في أصل القضية بإنقاذ بني إسرائيل ومن معهم من المضطهدين من اضطهاد الفرعون، والانتقام من الفرعون لطغيانه.

في القرآن الكريم يجري التطرق لهذه الوقائع في آيات نذكر منها:

ـ يقول تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومكَ من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله) (إبراهيم 5).

لنلاحظ هنا استخدام كلمة (قومك)، ولم يرد اسم "بني إسرائيل" أو "بيت يعقوب" أو "العبريين" فقوم موسى عملياً هم كل هؤلاء ومضطهدون آخرون معهم. وما يجمعهم أنهم كانوا في زمن مضى على ملّة إبراهيم الخليل، ثم دخلوا في الظلمات ومهمة موسى أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن يذكرهم بأيام الله.

وهذا العمق التاريخي للقصة المتعلقة بديانة التوحيد، تتجاهله التوراة كلياً، وقد رأينا كيف أن فرويد نسب التوحيد إلى أخناتون حتى لا ينسبه إلى إبراهيم.

ـ يقول تعالى (فما آمن لموسى إلاَّ ذريَّة من قومِهِ على خوفٍ من فرعون وملئهم أن يفتنهم إنَّ فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين * وقال موسى يا قومِ إن كنتم آمنتم باللهِ فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على اللهِ توكلنا ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين) (يونس 83-85).

وهكذا نلاحظ أنَّ القرآن الكريم يتعامل مع القوم المضطهدين بالحسنى واللين وشدِّ الأزر والتشجيع، مقدِّراً الظروف المحيطة بهم، ومثل هذا التفهم للموقف لا نعثر على أثر له في رواية النبي حزقيال. وفي تلك المرحلة كان الهدف هو إخراجهم من استعباد الفرعون لهم، وتشجيعهم على الالتفاف حول هذا الهدف والصبر على الأذى.

ـ يقول تعالى (قال موسى لقومِهِ استعينوا باللهِ واصبروا إنَّ الأرض للهِ يورثها من يشاءُ من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبلِ أن تأتينا ومن بعدِ ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) (الأعراف 128-129). وكأنَّ موسى كان يستشرف أفق المستقبل، كيف سيكون سلوك هؤلاء إذا استخلفوا في أرض ما، وهل سيتصرفون كما يفعل الفرعون.

ولكن لنلاحظ أنه في جميع الآيات السابقة كان الحوار يدور بين موسى عليه السلام وقومه بالمعنى الشامل، أي الثنائي بمفهوم فرويد (بني إسرائيل + بيت يعقوب والعبريين). ولكن، تعالوا إلى هذه النقلة التي أعقبت الخروج مباشرة.

ـ يقول تعالى (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون * قال أغيرَ اللهِ أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين) (الأعراف 138-140).

في هذا الموقف بالذات، كان يمكن لفرويد اكتشاف ثنائية قوم موسى منذ البدء، وليس الثنائية المزعومة (يهود + مديانيون). فبنو إسرائيل من بين قوم موسى هم من تقدموا إليه بهذا الطلب، لأنّ صلتهم بدين إبراهيم أساساً كانت شكلية أو لم تكن قائمة، إذ ما يجمعهم مع بيت يعقوب هو خؤولتهم لهم. وبالتالي فمفاهيمهم الدينية أقرب إلى المصريين. وهؤلاء من عبدوا العجل في سيناء، ومن عاودوا عبادة العجل في مملكة إسرائيل ولم يستطيعوا الخروج من تأثير مفاهيم الديانة المصرية عليهم. وقد كان هؤلاء هم الأغلبية، لذلك كانوا الأقدر على التحكم بمقدرات الجماعة.

لنعد الآن إلى حزقيال، وإلى المرحلة الثانية من القصة.

يقول حزقيال على لسان الربّ "فتمرَّدَ عليَّ بيتُ إسرائيل في البريّة. لم يسلكوا في فرائضي ورفضوا أحكامي التي إن عملها إنسان يحيا بها ونجَّسوا سبوتي كثيراً. فقلتُ إنّي أسكبُ رجزي عليهم في البريّة لإفنائهم. لكن صنعتُ لأجل اسمي لكيلا يتنجَّس أمام عيون الأمم الذين أخرجتهم أمام عيونهم. ورفعت أيضاً يدي لهم في البريّة بأني لا آتي بهم إلى الأرض التي أعطيتهم إياها تفيضُ لبناً وعسلاً هي فخر كل الأراضي. لأنهم رفضوا أحكامي ولم يسلكوا في فرائضي بل نجَّسوا سبوتي. لأنَّ قلبهم ذهب وراء أصنامهم. لكنّ عينيّ أشفقت عليهم عن إهلاكهم فلم أفنهم في البريّة" [حزقيال 13-20/17].

مرةً أخرى نلاحظ أنَّ حزقيال يتحدث عن "بيت إسرائيل". ومرة أخرى الربُّ عزَّ وجلّ يقرِّرُ ثم يتراجع عن قراره، إمّا أنه يتحسّب من شماتة الأمم التي ترى حتى في البرية حيث لا أمم، أو بدافع الشفقة.

والواقع أنَّ حزقيال اختصر القصّة هنا كثيراً، مع أنَّ الغضبَ وما أعقبه من تيهٍ تمَّ في هذه المرحلة. لكن أسفار التوراة تذكر الكثير عن هذه الوقائع، وترد في القرآن الكريم أيضاً، وفي آيات عديدة.

وسنحاولُ هنا ومن خلال آيات القرآن الكريم تقديم الوقائع الأساسية.

ـ يقول تعالى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتّقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عَدْلٌ ولا هم يُنصرون * وإذ نجّيناكم من آل فرعونَ يسومونكم سوءَ العذابِ يُذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحرَ فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلةً ثم اتخذتم العجل من بعدِهِ وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون * وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون * وإذ قال موسى لقومه يا قومِ إنّكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنّه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثنا من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمامَ وأنزلنا عليكم المنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حطّةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدَّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من

السماء بما كانوا يفسقون * وإذ استسقى موسى لقومِهِ فقلنا اضرب بعصاكَ الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مشربهم كلوا واشربوا من رزق اللهِ ولا تعثوا في الأرض مفسدين * وإذ قلتم يا موسى لن نصبرَ على طعامٍ واحدٍ فادعُ لنا ربَّكَ يخرجُ ممَّا تنبتُ الأرضُ من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلَّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من اللهِ بأنَّهم كانوا يكفرون بآيات اللهِ ويقتلونَ النبيِّين بغيرِ الحقِّ ذلكَ بما عصوا وكانوا يعتدون) (البقرة 47-61).

ولم تكن هذه الواقعة هي ختام الوقائع في تلك المرحلة، فثمة وقائع أخرى قادت بالمحصلة إلى تفاقم غضب الربّ عزَّ وجلَّ عليهم. ومنها ما جاءَ في قولهِ تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوةٍ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل اللهِ عليكم ورحمَتُهَ لكنتم من الخاسرين * ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبتِ فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين) (البقرة 63-65).

كذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام (يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدَّسة التي كتب اللهُ لكم ولا ترتدُّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا يا موسى إنَّ فيها قوماً جبَّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإنا داخلون * قالَ رجلانِ من الذين يخافون أنعمَ اللهُ عليهما ادخلوا عليهم البابَ فإذا دخلتموهُ فإنكم غالبون وعلى اللهِ فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنّا ههنا قاعدون * قال ربِّ إني لا أملك إلاَّ نفسي وأخي فافرُق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرَّمة عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين) (المائدة 21-26).

وواضح أنه عند هذه الواقعة افترق موسى وهارون عن قومهما أو عن بني إسرائيل.

ومما تجدر ملاحظته هنا أنّه في كل حوار بين بني إسرائيل وموسى كانوا يطلبون منه دعوة ربِّه هو، وكأنَّ الاعتقاد بربوبيته لهم لم تنشرح له صدورهم.

كما يلاحظ أن ذكر (الأرض المقدسة) هنا، يمثل المرّة الوحيدة الواردة في القرآن الكريم، ويرجَّح أن يكون موقعها مرتبطاً بموقع الوادي المقدس طوى. ومعروف أنَّ فلسطين ترد في القرآن الكريم باسم "الأرض المباركة" في آيات عديدة، مما يرجح أن الأرض المقدَّسة المقصودة لم تكن أرض كنعان (فلسطين). ونميل إلى الاعتقاد بأن موسى عليه السلام استخدم تعبيراً مألوفاً لديهم في تسمية هذه الأرض، وهو التعبير المصري "ت ء. ن ت ر و"، أو معدَّلاً بصيغة "ت ء. ن ت ر" = أرض الإله. وكان المصريون يطلقون هذه التسمية على الجزيرة العربية.

رغم أنَّ واقعة الغضب، يفترض أن تكون قد تمثلت بالتيه، إلا أن التقليد اليهودي يمدُّها إلى ما بعد التيه، فيلغيها في التقليد بشكل عام، لكن في سفر حزقيال وفي القرآن الكريم أيضاً ما يدلُّ على فرض فرائض هي بمثابة العقوبة لبني إسرائيل.

ولنبدأ بالصورة كما يطرحها حزقيال. يقول على لسان الربّ عزَّ وجلّ "وقلت لأبنائهم في البريّة لا تسلكوا في فرائض آبائكم ولا تحفظوا أحكامهم ولا تتنجسوا بأصنامهم. أنا الربّ إلهكم. فاسلكوا في فرائضي واحفظوا أحكامي واعملوا بها. وقدّسوا سبوتي فتكون علامة بيني وبينكم لتعلموا أني أنا الربّ إلهكم. فتمرد الأبناء عليّ. لم يسلكوا في فرائضي ولم يحفظوا أحكامي ليعملوها التي إن عملها إنسان يحيا بها ونجَّسوا سبوتي. فقلتُ إني أسكبُ رجزي عليهم لأتمَّ سخطي عليهم في البريّة. ثم كففتُ يدي وصنعتُ لأجل اسمي لكيلا يتنجس أمام عيون الأمم الذين أخرجتهم أمام عيونهم. ورفعتُ أيضاً يدي في البريّة لأفرقهم في الأمم وأذريهم في الأراضي، لأنهم لم يصنعوا أحكامي بل رفضوا فرائضي ونجَّسوا سبوتي وكانت عيونهم وراء أصنام آبائهم. وأعطيتهم أيضاً فرائض غير صالحة وأحكاماً لا يحيون بها. ونجَّستهم بعطاياهم إذ أجازوا في النار كلَّ فاتح رحم لأبيدهم حتى يعلموا أني أنا الربّ" [حزقيال 18-20/26].

هنا يلتقي حزقيال مع عاموس وبولس في أنَّ بني إسرائيل وحتى خلال فترة التيه لم يعبدوا الرب سواء باسم "إيل" أو باسم "يهوه"، وإنما كانوا طوال الوقت يعبدون صنمهم رَمْفَان، ويحملون خيمة ملكومهم وليس خيمة الاجتماع التي أوجدها موسى كما يزعمون. وقد ترتب على ذلك إعطاءهم فرائض غير صالحة. ولكن هل كان ذلك بالأمر، وهم الذين رفضوا الأوامر الصالحة، ولم تقنعهم كل العجائب التي شاهدوها ليدخل في صدورهم الإيمان، أم بالغواية بأن سُلّطَ الشيطان عليهم ليزيِّن لهم أعمالهم؟

لنستعد إلى الذاكرة ما جاء في كلام بولس الرسول عن "رئيس سلطان الهواء"، لكنّ الجوابَ سنجدهُ واضحاً كل الوضوح في القرآن الكريم.

يقول تعالى (تاللهِ لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلكَ فزيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم فهو وليُّهم اليومَ ولهم عذابٌ أليم * وما أنزلنا عليكَ الكتاب إلاّ لتبيِّن لهم الذي اختلفوا فيهِ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون) (النحل 63-64).

وواضح أنَّ المقصود هنا بشكل أساسي هم اليهود.

يقولُ تعالى (فاصدع بما تؤمرُ وأعرض عن المشركين * إنا كفيناكَ المستهزئين * الذين يجعلونَ مع اللهِ إلهاً آخر فسوف يعلمون * ولقد نعلمُ أنَّهُ يضيقُ صدرك بما يقولون * فسبِّح بحمد ربكَ وكن من الساجدين * واعبد ربَّك حتى يأتيك اليقين) (الحجر 94-99).

ويقول تعالى (وقالَ اللهُ لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إلهٌ واحدٌ فإياي فارهبون) (النحل51).

ويقول تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون باللهِ ولا باليومِ الآخرِ ولا يحرِّمون ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُهُ ولا يدينونَ دينَ الحقِّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية من يدٍ وهم صاغرون * وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وقالت النصارى المسيح ابن اللهِ ذلكَ قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم اللهُ أنَّى يؤفكون* اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللهِ والمسيح بن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانهُ عمّا يشركون) (التوبة 29-31).

ويقول تعالى بما يؤكد ما ورد في سفر حزقيال حول قتل كل فاتح رحم باعتبارها أقسى عقوبة أنزلت باليهود (وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاءَ اللهُ ما فعلوهُ فذرهُمْ وما يفترون) (الأنعام 137). كما يقول تعالى (وقد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علمٍ وحرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على اللهِ قد ضلّوا وما كانوا مهتدين) (الأنعام140).

ويقول تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزلَ اللهُ ولا تتَّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوكَ عن بعض ما أنزلَ اللهُ إليكَ فإن تولوا فاعلم أنما يريد اللهُ أن يصيبهمْ ببعض ذنوبهم وأنَّ كثيراً من الناس لفاسقون) (المائدة 49).

ويقول تعالى (فبما نقضُهم ميثاقهم لعنَّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يُحَرِّفونَ الكلمَ عن مواضعهِ * ونسوا حظاً مما ذُكّروا به ولا تزال تطّلعُ على خائنةٍ منهم إلاَّ قليلاً منهم) (المائدة13). كما يقول تعالى (ضُرِبَت عليهم الذلّةُ أينَ ما ثقفوا إلاَّ بحبلٍ من اللهِ وحبلٍ من الناس وباءوا بغضبٍ من اللهِ وضربت عليهم المسكنةُ ذلكَ بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللهِ ويقتلون الأنبياء بغيرِ حقٍ ذلكَ بما عصوا وكانوا يعتدون) (آل عمران 112).

ويقول تعالى (مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحملُ أسفاراً بئسَ مَثَلُ القومِ الذين كذّبوا بآيات اللهِ واللهُ لا يهدي القوم الظالمين) (الجمعة 5).

ويقول تعالى (فبظلمٍ من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيِّبات أُحِلَّت لهم وبصدِّهم عن سبيل اللهِ كثيراً * وأخذهم الربا وقد نُهوا عنهُ وأكلهم أموالَ الناس بالباطلِ وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً) (النساء160 و191). كما يقول تعالى (وعلى الذين هادوا حَرَّمنا كلَّ ذي ظفرٍ ومن البقرِ والغنمِ حرَّمنا عليهم شحومهما إلاَّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظمٍ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون * فإن كذَّبوكَ فقُلْ ربكمْ ذو رحمةٍ واسعةٍ ولا يُرَدُّ بَأْسُهُ عن القوم المجرمين) (الأنعام 146-147).

هذه الآيات هي جزءٌ من فيض، كلها تؤكد أنَّ اليهود في معظمهم إنما يعبدون أهواءهم، وأنَّ التشريعات التي فرضت عليهم بشكل أو بآخر، كانت عقوبة. ولقد أرسل إليهم السيد المسيح عيسى بن مريم معززاً بالروح القدس ليقوم بمعجزات كثيرة، لعلهم يؤمنون، فكان منهم تجاهه ما كان. وأصرُّوا على ضلالتهم، والتزموا بالموقف نفسه تجاه الدعوة المحمَّدية للإسلام، فحكموا على أنفسهم بالخروج من جزيرة العرب.

ولكن، هل كان خروجهم هذا من جزيرة العرب هو أول خروج؟

يبدو من رواية النبي حزقيال أنَّ الأمرَ لم يكن كذلك. ومن الملائم هنا أن نتابع هذا الفصل التالي من القصّة من الزاوية التاريخية والدينية أيضاً، لنرى حقيقة المسار.

يتابع حزقيال بعد ذكر "الفرائض غير الصالحة" التي فرضها الربّ على بني إسرائيل: "لأجل ذلك كلّم بيت إسرائيل يا ابن آدم وقل هم. هكذا قال السيد الرب. في هذا أيضاً جدّف عليَّ آباؤكم إذ خانوني خيانة. لما أتيتُ بهم إلى الأرض التي رفعت لهم يدي لأعطيهم إياها فرأوا كل تل عالٍ وكل شجرة غبياء فذبحوا هناك ذبائحهم وقرّبوا هناك قرابينهم المغيظة وقدَّموا هناك روائح سرورهم وسكبوا هناك سكائبهم. فقلت لهم ما هذه المرتفعة التي تأتون إليها؟ فدعي اسمها مرتفعة إلى هذا اليوم. لذلك قل لبيت إسرائيل. هكذا قال

السيد الرب. هل تنجَّستم بطريق آبائكم وزنيتم وراء أرجاسهم. وبتقديم عطاياكم وإجازة أبنائكم في النار تتنجسون بكل أصنامكم إلى اليوم. فهل أسأل منكم يا بيت إسرائيل. حي أنا يقول السيد الرب لا أسأل منكم. والذي يخطر ببالكم لن يكون إذ تقولون نكون كالأمم كقبائل الأراضي فنعبد الخشب والحجر. حي أنا يقول السيد الرب إني بيد قوية وبذراع ممدودة وبسخط مسكوب أملك عليكم. وأخرجكم من بين الشعوب وأجمعكم من الأراضي التي تفرقتم فيها بيد قوية وبذراع ممدودة وبسخط مسكوب. وآتي بكم إلى برية الشعوب وأحاكمكم هناك وجهاً لوجه. كما حاكمت آباءكم في برية أرض مصر. كذلك أحاكمكم يقول السيد الرب. وأمرُّكم تحت العصا وأدخلكم في رباط العهد. وأعزل منكم المتمردين والعصاة عليَّ. أخرجهم من أرض غربتهم ولا يدخلون أرض إسرائيل فتعلمون أني أنا الرب" [حزقيال 27-20/38].

لنتذكر أنَّ حزقيال قال هذا الكلام حوالي 593 ق.م، وهو كما نلاحظ قال إن الأرض الموعودة التي نزل فيها بنو إسرائيل، دعي اسمعها "مرتفعة" أي "سارية" إلى ذلك اليوم، أي زمن حزقيال على الأقل. وواضح أنّ هذه التسمية تخصُّ السراة وليس أرض كنعان في فلسطين. وهذا معناه أنَّ اليهود بسبب كفرهم أخرجوا من هناك وذرُّوا في الأراضي بما في ذلك فلسطين. وهذا هو الأرجح في ضوء استنتاجنا لزمن الخروج في دراستنا بحوالي العام 3000 ق.م.

ويبقى جديراً بالملاحظة أيضاً حديثه عن جمعهم في برية الشعوب، وهي غير بريّة أرض مصر، فأي بريّة في العالم يمكن أن تعطى هذا الاسم غير بريّة الحجاز في تخوم مكة والمدينة، حيث اجتمع اليهود بالفعل قبل البعثة ومرروا تحت السيف فمنهم من أسلم ومنهم من طرد من جزيرة العرب إلى آخر الحشر، لتصدق عليهم نبوءة حزقيال في أن يخرجوا من أرض غربتهم التي لابُدَّ هنا وأنه يقصد بها فلسطين ولا يدخلون أرض إسرائيل أي "المرتفعة = السراة" إذ حُرِّمَ عليهم دخولها حتى يوم القيامة. وإذا كانوا قد احتلوا فلسطين في هذا العصر، بما يعتبر مصداقاً لما جاء في سورة الإسراء، فليس لأنها "أرض إسرائيل"، إذ أنَّ تلك الأرض المقدَّسة محرَّمة عليهم أبد الدهر.

متى خلال هذا الزَمَن الطويل بدأ اسم "يَهْوَه" بالظهور عملياً؟

إنَّ تتبُّع هذه المسألة يمكن أن يتم من خلال تعقب الأسماء الشخصية، حيث اعتاد الناس قديماً ولا زالوا إطلاق أسماء مرتبطة بأسماء الآلهة، مما يمثل إحدى وسائل المؤرخين لمعرفة الوقائع التاريخية.

من مراجعة سفر العدد، نجد بين المشرفين على الإحصاء الأسماء الأيلية التالية من ممثلي الأسباط:

1 ـ أليصور بن شديؤور من رأوبين.

2 ـ شلوميئيل بن صوريشدَّاي من شمعون.

3 ـ نثنائيل بن صوعر من يسَّاكر.

4 ـ أليآب بن حيلون من زبولون.

5 ـ أليشاماع بن عميهود من أفرائيم.

6 ـ جملئيل بن فدهصور من منسَّى.

7 ـ فجعيئيل بن عكران من أشير.

8 ـ ألياساف بن دعوئيل من جاد.

ولا نجد أيّ اسمٍ يهوي.

وأما زعماء اللاويين المشكّلين من أربعة عشائر، فكل أسمائهم إيلية، وهي:

1 ـ الياساف بن لائيل زعيم الجرشونيين.

2 ـ اليصافان بن عزيئيل زعيم القهاتيين.

3 ـ اليعازر بن هارون زعيم رؤساء اللاويين.

4 ـ صوريئيل بن أبيحيئيل زعيم عشائر مراري.

وإذا كان لهذا الأمر من مدلول، فهو أن "يَهْوَه" لم يكن معروفاً أو معتمداً من قوم موسى قبل واقعة الخروج، ولم يكن متوارثاً عن الآباء البطاركة مما يؤكد أنهم لم يعرفوه بهذا الاسم، وإنما كانوا على الجملة مرتبطين باسم إله إبراهيم "إيل". وهذا يفترض أنَّ الأرضَ كانت ممهَّدة أمام موسى لمخاطبة قومه باسم الإله المعروف عندهم "إيل" أي "الله" ولا مبرِّر لأن يبحث عن اسم جديد غير معروف.

إن كثافة الأسماء الايلية في قوم موسى، تتضح أيضاً من أسماء الرجال الذين قيل إنه بعث بهم لتجسس الأرض المقدسة، رغم قولهم إنَّ الرب تجسسها لهم، حيث نجد الأسماء الإيلية التالية:

1 ـ يجآل بن يوسف من سبط يسَّاكر.

2 ـ جديئيل بن سودي من سبط زبولون.

3 ـ عميئيل بن جملي من سبط دان.

4 ـ ستور بن ميكائيل من سبط أشير.

5 ـ جأوئيل بن ماكي من سبط جاد.

والاستثناء الوحيد في هذه المرحلة التي سبقت التيه، هو اسم "هوشع" الذي صار "يشوع بن نون"، والذي وصف بفتى موسى، وتقول التوراة إنَّ موسى هو الذي أطلق عليه اسم "يشوع" (العدد 3/16). ولكن هناك ما يرجح أن يشوع بن نون جاء بعد زمن داود وسليمان، كما أن هناك من يربط هذا الاسم باسم "يثع" في اليمنية القديمة.(***)

وإذا صحَّ أن موسى عليه السلام، جاء إلى قومه باسم الرب "يهوه"، فمن المفترض ورود أسماء يهوية بعد سنوات التيه الأربعين، حيث برز جيل جديد، وزعامة جديدة. لكننا نجد معظم أسماء الأشخاص الذين قيل إن موسى كلّفهم بقسمة الأرض بين الأسباط إيلية، ولا نجد بينها ولو اسماً يهوياً واحداً. وهذه الأسماء الإيلية هي:

1 ـ شموئيل بن عميهود من سبط شمعون.

2 ـ أليداد بن كسلون من سبط بنيامين.

3 ـ حنيئيل بن ايفود من سبط منسَّى.

4 ـ قميئيل بن شفطان من سبط أفرائيم.

5 ـ العازر الكاهن من اللاويين (ووجوده ينفي ادِّعاء موت الجميع خلال التيه عدا يشوع بن نون وكالب بن يفنه).

6 ـ اليصافان بن فرناك من سبط زبولون.

7 ـ فلطئيل بن عزان من سبط يسَّاكر.

8 ـ فدهئيل بن عميهود من سبط نفتالي.

وفي مرحلة القضاة، فإننا نجد مجموعة من الأسماء المتأثرة بديانة الكنعانيين. وهذا لا تنكره التوراة، فإلى جانب عتنيئيل بن قناز، نجد شمجر بن عناة (الإلهة الكنعانية) وجدعون بن يوآش (وربما كان اسمه منسوباً إلى الإله الكنعاني "يو" الذي يُعَدُّ ابناً لإيل)، ويربعل (واسمه منسوب إلى البعل)، وايلون وعبدون بن هليل.

وهذا يعني أنه وعلى مدى أكثر من قرنين من زمن موسى، لم يكن هناك ظهور للأسماء اليهوية، ولو أخذنا أسماء أبناء داود كمقياس يتعلق بفترة صعوده، سنجد العديد من أبنائه يحملون أسماءً إيلية، مثل دانيئيل وأليشامع وأليفالط وأليشع والياداع وأليفلط. ولا يوجد اسم يهوي واحد صريح.

لكن الباحثين التوراتيين توسَّعوا في قبول الصيغ التي يعتبرونها منسوبة إلى يهوه. حيث يرد في بعض أسماء الأعلام صدراً للكلمة بالصيغ (ي هـ و) و(ي و) أو عجزاً لها كما هو الحال في (ـ ي هـ) و(ـ ي و) وقد وردت صيغ أخرى مثل (ي هـ و) و(ي هـ هـ) و(ـ ي ا) و(ـ ي هـ) (3). وفي مثل هذه الحالة، فإن بعض قادة داود عُدّ اسمه يهوياً، مثل أوريا الحثي الذي قيل إن اسمه يعني "يهوه نوري" (4). ولكن لنلاحظ هنا أن صاحب الاسم الرائد في هذا السياق هو حثي، ولكن حين نلتقي باسم "الياهو" النبي من عصر داود فهذا يعني تكريس هذا الاسم منذ ذلك العصر.

ومع ذلك، نلاحظ أنه بدءاً من عهد سليمان، فقد كثرت الأسماء اليهوية، إذ نجد بين أسماء أبنائه أسماءً يهوية صريحة مثل يهوشافاط أو محتملة مثل يورام ويوآش ويوثام ويوشيا، وأخرى تنتهي بالمقطع (يا) مثل أبيّا وأخزيا وعزريا وحزقيا. وأما بين بني بنيه، فنجد أسماء مثل يوحنان ويهوياقيم وهوشاماع. وسنجد بين بني اليوعيني من ذريته اسم هودا ياهو. وهذا إن دلَّ على شيء فعلى أنَّ هذا الاسم دخل إلى الأسماء اليهودية في زمن داود أو سليمان، ولكن ليس في زمن موسى.

إن هذا الاستنتاج، يتفق مع استنتاج ديل ميديكو القائل "إن الحقيقة هي أنَّ المعطيات التي حصلنا عليها بنتيجة حل الرموز الهيروغليفية النيوحثية، تجعلنا نعتقد أن اسم "يهوه" الذي أطلقه العبرانيون على إله الجنود لم يكن موجوداً قبل زمن إيليا، أي في منتصف القرن التاسع ق.م (5). وميديكو يصل إلى هذه

النتيجة، رغم أنه يستخلص من الترجمة التي اعتمدها لنصوص أوغاريت أنَّ العبرانيين دخلوا فلسطين في زمن تل العمارنة (حوالي 1400 ق.م)، وهم الهابيرو الذين كانوا يناوشون باستمرار حكام الكنعانيين، وأنه يتبيّن من بعض نصوص رأس شمرا أنهم تحالفوا مع عبدي أشيرتا الذي أعلن العصيان على الحكم المصري، علماً أن المدن التي ذكرت في العهد القديم مذكورة أيضاً في أخبار وقائع أوغاريت، وأن تقاليد العبرانيين في ذلك الزمن، كانت قريبة من المفاهيم الحثية ومفاهيم بلاد ما بين النهرين. ويعتقد أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من الهيفية (لغة الخطوط الهيروغليفية النيو ـ حثية). وقد كان اسم إلههم الأكبر "ياه" أو "يهوه" تماماً كما كان اسمه في تلك اللغة. وكانت تجمعهم قرابة عرقية ولغوية مع الحثيين الذين ذهبوا حوالي عام 1900 ق.م لغزو بابل، غير أنَّ العبرانيين ما لبثوا أن هاجروا أمام ضغوط شعوب جاءت من الشمال (الآشوريين على الأرجح)، فاجتازوا الصحراء السورية ودخلوا فلسطين عن طريق أريحا، واشتبكوا مع السكان بمعارك ضخَّمها كثيراً مؤلفو العهد القديم، ثم استقروا في البلاد (6). وقد لاحظ ميديكو أن ملحمة "أنباء عهد الملك الكبير" الأوغاريتية التي تحدثت عن العابيرو واليوديم لم يرد فيها اسم يهوه.

إن حقيقة ظهور اسم "يهوه" في حوالي منتصف القرن التاسع ق.م يعني أنَّ هذا الاسم أقحم على الديانة اليهودية في ذلك الزمن فقط. وهذا ما يسلّم به فرويد بقوله "وهناك ميل آخر، يسعى إلى أن ينفي أن يَهْوَه كان لليهود إلهاً جديداً، إلهاً أجنبياً. وهذا ما ترمي إليه سير الآباء الأوائل، إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فيهوه يؤكد أنه كان إله هؤلاء الآباء وإنْ أقرَّ هو نفسُه بأنه كان يُعْبَدُ عصرئذ تحت اسم آخر" (7). ويقول أيضاً إنه كان لنسبة دين يهوه الجديد إلى الآباء الأوائل هدف آخر أيضاً. فهؤلاء الآباء قد عاشوا في كنعان، وكانت ذكراهم مرتبطة ببعض أماكن البلاد. ولعلهم كانوا هم أنفسهم أبطالاً كنعانيين أو آلهة محليين انتحلهم اليهود المهاجرون ليدمجوهم بتاريخهم القديم. وكان الانتساب إليهم يعني، إذا صحَّ التعبير، إشهار ارتباطهم بالأرض واتقاء الكراهية التي تلاحق عادة الفاتحين الأجانب. وبفضل مناورة بارعة ساد الادعاء القائل بأنّ كلَّ ما فعله يهوه هو أنه أعاد إلى اليهود ما كان ذات يوم ملكاً لأسلافهم" (8).

لكنَّ مناورة كهذه، إذا حدثت، ما كانت تتمّ باسم إله جديد غير معروف، بينما إله الآباء معروف جيداً تحت اسم "إيل" بشكل عام، وهو الإله الأكبر عند الكنعانيين. فإذا كان الهدف هو التقرب من سكان الأرض، فقد كان من الأجدى اعتماد اسم الإله المعتمد عندهم. ولكن هل كان اسم "يهوه" وارداً في الموروث الكنعاني؟ وهل كان هناك اسم إله يخصُّ سكان البلاد الأصليين ويتفق من حيث بنيته اللفظية مع اسم "يهوه" كثيراً أو قليلاً؟

لنحاول الإجابة على هذين السؤالين.

* * *

هوامش (4) يوم حلّ الغضب:

(1): رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس 1-5 الاصحاح2.

(*): يمكن مقابلة هذا الرأي مع النتيجة التي توصل إليها فرويد بين مفهوم "يهوه" و "الروح = النفس وبالعبرية Rauche دخان".

(**): هذا يخالف الاجتهاد القائل بأن يهوه هو إله القمر.

(2): محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، ص173.

(***)كان (يثع) أحد أسماء الإله القمر. وكان ينطق أيضاً (يشع) و(يشوع). وفي هذه الحال كان يعني المخلص. وقد تخلف في اسم يشوع بن نون، وينطق أيضاً يسوع الذي تخلّف في اسم المسيح، وبالقلب عيسى.

(3): د. فؤاد حسنين علي، اليهودية واليهودية المسيحية، ص16.

(4): معجم الحضارات السامية، ص160.

(5): ديل ميديكو، التوراة الكنعانية، ص192.

(6): نفس المصدر، ص24، وص25.

(7): فرويد، م.س، ص73.

(8): نفس المصدر، ص76.

* * *

(5)

يهوه والجذور الكنعانية/ والسلتية

تقول كارين آرمسترونغ "لقد سمَّى الإسرائيليون يهوه إله آبائنا". ويبدو من المحتمل أنه كان إلهاً مختلفاً تماماً عن إيل الكنعاني الله المتعالي الذي عبده الآباء وربما كان يهوه إلهَ شعب آخر قبل أن يصبح إله إسرائيل. ويُصرُّ يهوه في جميع تجلياته لموسى تكراراً أنه هو حقاً إلهُ إبراهيم على الرغم من أنهم أطلقوا عليه "إيل شداي" (الله القدير) في البداية. فقد يحفظ هذا الإصرار الأصداء البعيدة لمناظر قديمة جداً حول هويّة إله موسى. لقد قدم اقتراح أنَّ يَهْوَه كان أصلاً إلهاً محارباً، إلهَ البراكين، إلهاً كان الناس يعبدونه في مدين (أي الأردن الآن). لن نعرفَ أبداً أين اكتشف الإسرائيليون يَهْوَه. هذا إذا كان فعلاً إلهاً جديداً تماماً. وهذه مسألة بالغة الأهمية لنا اليوم، لكنها لم تكن حاسمة بالنسبة للكتاب التوراتيين. فالآلهة في الفترة الوثنية القديمة كانت تدمج وتملغم في أغلب الأحيان، أو أنَّ الناس كانوا يقبلون الآلهة المحلّية في منطقة محلّية على أنها نظائر لإله شعب آخر. فمهما كان أصلُ هذا الإله فإنَّ أحداث الخروج جعلت يَهْوَه إله إسرائيل النهائي المميَّز" (1).

سبق لنا أن بيَّنا أن ظهور اسم "يهوه" عملياً كان في عهد داود وسليمان وأنَّ موسى عليه السلام لم يعرف هذا الاسم. وهذا الاستنتاج جعلنا رغم تعدُّد المفاهيم المصرية التي يمكن أن تكون لها صلة بـ "يهوه"، لا نسارع إلى الادِّعاء بأنّ موسى أخذ هذا الاسم عن المصادر المصرية، مع تقديرنا بطبيعة الحال، أنَّ المفاهيم الثقافية التي يكتسبها شعب ما، لا بُدَّ وأن تؤثر على معتقداته. وقوم موسى عاشوا في مصر طويلاً، وبعضهم كانوا مصريين أيضاً، كما أنَّ موسى نهل من علوم المصريين حين رُبِّي فيهم وليداً في قصر الفرعون نفسه، وأمّا هارون فمن المرجح أنه كان له موقع في الكهنوت المصري أهَّله لتشكيل الكهنوت الإسرائيلي، مثلما أهَّلهُ ليكون وزيراً لأخيه موسى. ولكن موسى لم يجئ بدعوته إلى الفرعون لينصر الإله شو المصري على الإله بتاح المصري. لقد جاء يدعوهم إلى الله بالمعنى المطلق، والذي يعني الإيمان به إلغاء كل الآلهة التي يؤمنون بها. وهذه المسألة نجد أنّ الباحثين الغربيين، بشكل عام، لا ينتبهون إليها، ذلك أنهم يعتقدون بالنشأة الوضعية للدين، ويحاكمون الأمور على هذا الأساس.

كذلك سبق أن تناولنا تلك القصّة المتعلقة بـ "مدين"، في إطار مناقشتنا لآراء فرويد. ونضيف هنا أننا كمسلمين، فإننا إضافة إلى ما جاءنا عن طبيعة العلاقة بين موسى عليه السلام والشيخ المدياني، وأنها كانت علاقة بين مؤمنين، بل وبينها اتفاق على المفاهيم كان عرض عليه أن يأجره ثماني حجج (أي سنوات)، ولكن باتخاذ الحج إلى مكة أساساً لقياس الزمن، فإننا نعرف أن مدين في ذلك الحين كانت تلك التي سبق وأرسل إليها النبي شعيب عليه السلام، مما يعني أنها كانت قد أعادت إحياء الديانة الإبراهيمية. والموروث الإسلامي، وفي الحديث الشريف، يؤكد أن موسى نفسه قد قام بالحج إلى مكة. ومثل هذا يقال أيضاً عن

سليمان عليه السلام. فإذا كانت أنظار اليهود قد صرفت عن مكة والحج إليها، فلا بُدَّ من وجود إرادة إلهية في إبعادهم عنها، لكي تكون لمن يستحقونها. وهذه الفكرة تنسجم مع فكرة "الغضب الإلهي" عليهم التي عالجناها في الفصل السابق. ويبقى أن نقول إنه لا توجد آثار صريحة تدل على أن المديانيين كانوا يعبدون يَهْوَه. ولو عبدوه حقاً لكان من المحتمل أن تبقى عبادته قائمة بينهم حتى البعث الإسلامي. وكان أكثر ما حاول الدارسون الربط بينه وبين يهوه، هو هُبَلْ مُدَّعين أن هذا الاسم هو تصحيف لاسم (يهو بعل). وقد رَدَّ العقاد على هذا الرأي بالقول "ومن قال إن اسم (هُبَلْ) تصحيفٌ لاسم (يهو بعل) لم يستند إلى دليل ولا قرينة معقولة. إذ لا معنى لتصحيف الكلمة في اسم الصنم مع وجودها في اللغة بمعنى السيد أو الزوج إلى اليوم. وإنَّ الدعوة إلى يهوا تناقض الدعوة إلى بعل، إلاّ أن يقال إن اسم يهوا مأخوذ من اللغة العربية الحجازية أو الجنوبية. وينبغي لمن يقول هذا أن يستشهد بأمثلة لوجود الكلمة مفردة ومقترنة في أي أثر ثابت. وليس لهذا وجود" (2). ونحن نخالف العقاد في هذا الرأي حول الأصل العربي لكلمة يَهْوَه، وسنعود إلى تفصيل الكلمة في هذا الموضوع لاحقاً. أما الآن، فنتابع مع العقاد قوله "إن علماء المقارنة الدينية يتحدثون عن التقارب بين عبادات العرب الأولين، فيقول الأستاذ أندرسون في مجموعة العهد القديم والدراسات العصرية: إن إله الكنعانيين الأعلى "إيل" يعبد بأسماء متعددة بين الساميين الغربيين، ويعرف باسم شدَّاي (القدير)، وإيل عليون (الله العلي)، وسالم، وصادق، وَحَدد، ويرى انجنل Engnell أنَّ اسم يَهْوَه واحد من هذه الأسماء، كان مهملاً على عهد موسى فأحياهُ موسى بدعوته، ثم امتزج اسم يَهْوَه بالصيغ الأخرى ولا سيما صيغة ايل عليون في أورشليم. وتم هذا الامتزاج بسهولة لأنها عنوان على إله واحد. ثم قال إن الوحدانية التي كانوا يدركونها في ذلك الزَمَنْ لم تكن وحدانية تفكير، ولكنها كانت وحدانية تغليب لربّ من الأرباب على سائر الأرباب. ويقول وولي صاحب أهم المباحث في تاريخ إبراهيم "إنه من المحتمل جداً، وإن لم يكن ثابتاً بثبوت اليقين، أنَّ اسم يهوا كان معروفاً عند بعض قبائل سوريا الشمالية قبل زمان موسى بعهد طويل". والظاهر أنهم كانوا إلى الزمن الذي كتب فيه المزمور 135 من المزامير المنسوبة إلى داود يصفون يهوه بأنه "مفرق جميع الآلهة" (3).

ويقول د. فؤاد حسنين "إن الإسرائيليين الأوائل كانوا قريبين جداً في تصورهم للخالق من القائلين بمبدأ تعدُّد الآلهة. لذلك كان من السهل جداً على الإسرائيليين الإيمان بتعدد الآلهة، سواء كانت هذه المعبودات إسرائيلية أو أجنبية، وذلك لسبب جوهري وهو أن فكرة الوحدانية لم تكن قد شقت بعد طريقها إليهم. ومن الجدير أيضاً أن لفظي (يَهْوَه) و(ألوهيم) يختلفان فيما بينهما لغوياً دلالة وعقيدة. فلفظ (يهوه) اسم علم كغيره من أسماء الأعلام التي تستخدمها اللغة عندما تريد أن تميّز فرداً بعينه على سائر بني جنسه. فلفظ (يهوه) يفيد أنّ معبوداً إلى جانب معبودات أخرى عرفها الإسرائيليون قديماً وقدَّسوها. أما لفظ (ألوهيم) فيعبِّر عن النوع لذلك جاءنا في صورة الجمع للتعبير عن كثرة الآلهة (4).

إنَّ هذه الآراء كما نلاحظ، لا تحاول التمييز بين المفهوم الذي جاء به الأنبياء، وبين المفاهيم التي درجت على الأرض رغم تعاليم الأنبياء. فقد يتبيّن لنا أنَّ لفظ (يهوه) ظهر في الأساس كصفة للإله، وليس كاسم له، ولكنَّهم حوَّلوه إلى اسم، ولكن ليس كواحد من أسماء الله الحسنى كما نفهمها في الإسلام، وإنما كاِسم لإله إسرائيل دون بقية الشعوب. ومثل هذا يعني الانزلاق في دائرة الشرك. فلو أنَّ مسلماً سمح لنفسه بأن يصف اللهَ سبحانه وتعالى بأنه ربُّ المسلمين وحدهم، فإنه ورغم أنَّ الدين عند الله الإسلام سيكون قد انزلق إلى دائرة الشرك، بتجريده الربّ من ألوهيته على الآخرين.

يتناول مرسيا الياد بدوره هذه النقطة، فيقول إنه "يوجد بدئياً الواقع الذي ولدت فيه اليهودية ضمن وسط من الرعاة وتطورت ونمت في الصحراء. إنَّ العودة لليهوية الصرفة ستبدو ماثلة كعودة لحالة الصحراء، وسيكون هذا المثل الأعلى البدوي للأبناء. وتماماً مثل رب الأب، فإنّ يهوه لم يرتبط بمكان متميّز. غير أنَّ للفوارق دلالتها. ففي حين كان رب الأب مغفلاً، فإنّ يَهْوَه اسم علمٍ أوضح سِرَّهُ وعظمته. إنَّ العلاقات بين الإله والمؤمنين قد تغيَّرت: فلم يعد الكلام مطلقاً عن رب الأب وإنما عن "شعب يهوه". وإن فكرة الاختيار الإلهي الماثلة في العهود المقطوعة لإبراهيم تتحقق. يَهْوَه يدعو ذريّة الآباء "شعبي". إنهم حسب تعبير ر. ديفو "ملكيته الشخصية". وبتتبعنا عملية تمثل رب الأب لإيل فإنَّ يَهْوَه أيضاً قد تماثل به" (5).

لعلّه لن يتسنّى لنا أن نفهم هذه المسألة، للعلاقة المتمايزة بين مستويين عقليين: مستوى يدعو لإله أعلى هو "رب العالمين" مثلما أدركه عقل إبراهيم الخليل وهو فتىً بتقليب بصره في السماء، ومستوىً لا يستطيع إلاّ أن ينتقل من فكرة رب الأب إلى فكرة "رب القبيلة" أو "رب الشعب"، وهذان المستويان المتمايزان بالذات، هما اللذان يكمنان وراء قوله تعالى "إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادوا" (المائدة 44). فالذين هادوا لم يستطيعوا الارتفاع إلى مستوى الإسلام، ولو أنهم ارتفعوا إلى مستوى الإسلام بعد كلِّ هذا الزمن لما شهدنا ظاهرة إقامتهم للكيان الصهيوني الاستيطاني في فلسطين الآن، فهذا الكيان هو وليد يهوديتهم الجامدة عند حَدٍّ مُعَيَّن لا تستطيع أن تتجاوزه إلى المستوى الذي أراده الأنبياء الحقيقيون.

كان البانثيون الإلهي الكنعاني قائماً على تعدد الآلهة. ولكن على رأس هؤلاء جميعاً كان هناك الإله إيل اللطيف الرحيم، وأما بقية الآلهة التي على شكل العائلات البشرية، فهم في الواقع يجسدون كل مظاهر الطبيعة، إذ يعبر عن كل مظهر منها إله معين أو آلهة معينة. ورغم تعدد الدراسات التي تناولت هذا الموروث، وخاصة نصوص أوغاريت، إلاّ أنَّ دراسة معمَّقة لمدلولاتها الفكرية لم تتم حتى الآن. كما أن هناك تفاوتات في الترجمة تجعل من الصعب الركون إليها بشكل نهائي. ولكننا نستطيع أن نقدر ببساطة أن بعل هو إله الأمطار والعواصف ويم هو إله الأنهار والبحار وموت هو إله الموت.

في ترجمة الأستاذ أنيس فريحة لملحمة "البعل وعناة"، يستوقفنا ما جاء في العمود الرابع من الفصل الثامن، كما يلي:

"فأجاب لطفان (أي إيل) إله الرحمة:

ان اسمَ ابني يَوْ (= ياهو) ايليم (= الآلهة)

وأعلن اسمَ "يَمْ".

أَجَبْنَ: إلى الطعام [الذي أعددناه]

أنتَ أيها السيِّد، تعلن "يم"؟

أجاب ثور ـ ايل

أنا لطفان إله الرحمة.

علي يديّ (= على مسؤوليتي؟ أو بقوة يديّ؟) أعلنتُ

اسمك حبيبَ الله.

ويورد الأستاذ فريحة أنَّ ما يقابلْ يَوْ إيليم في العبرية هو "يهوه الوهيم" أ أي يَهْوَه الإله (6).

ولو افترضنا أنَّ هذه القراءة صحيحة، فإنّه تنجم عنها نتيجتان بالغتا الأهميّة والخطورة في حلِّ لغز يهوه:

أولاً: أنَّ "يو" أو "يَهْوَه" هو اسم إله النهر "يم"، وليس اسم إله الصحراء كما هو شائع.

ثانياً: أنَّ اسم "يو = يَهْوَه" يعني "حبيب الله".

لا شك أنَّ هاتين النتيجتين تفاجئان أكثر ما تفاجئان أصحاب الموروث اليهودي، لأنه يتعذر عليهم إدراج مفاهيمهم الملتوية ضمن الموروث الكنعاني غير الملتوي.

يعود الزمن الذي دوِّنت فيه هذه الملحمة في أوغاريت إلى القرن الرابع عشر ق.م أي قبل الزمن المستنتج لانتشار الأسماء اليهوية بحوالي 450 سنة، ولا نعرف بالطبع إلى أي زمن أسبق يعود ما في النص من رؤى قبل التدوين.

لكن الأطرف أنَّ النصَّ، وكما عرضته ترجمة فريحة، يبدأ بتشييد هيكل لـ "يم" أي "يو = يَهْوَه". ويجيءُ في النص ما يلي:

"... كفتور (=جزيرة كريت) البعيدة، آلهة مصر البعيدة

"وكرّر القول للآلهة الجالسين صفوفاً قرب عناة: الأرضُ حُرثت ثلاثاً (؟)

"الكهوفُ فتحت أشداقها (؟)

"عند ذاك يتجه نحو إيل عند نبع النهرين وسط مجرى الغمرين

"ويدخل حمى إيل ويأتي مسكن الملك، أبيّ السنين،

"وعند قدمي إيل

"يسجد وينحني ويركع ويكرمه... ويرفع صوته ويصرخ

"يا كاشر وخاسس أسرع في بناء قصر يم،

"في تشييد هيكل القاضي نهر

"صدرك... أسرع يا كاشر وخاسس في بناء مسكن الأمير "يم" (7).

ويتقدم أولاً للاحتجاج "عشتر" الذي يقول لأبيه إيل:

".. أنا ليس لي بيت كما للآلهة

"ومسكن كما لبني القدس" (8)

ويبدو أن "إيل" يصدُّ "عشتر" إذ ليس له زوجة كما للآلهة، ولا فتيات (جوارٍ) كما لبني القدس (9).

ودون أن نستطرد طويلاً في استعراض الصراع بين بعل (الذي بني له هيكل في النهاية على جبل صفون) وبين يم، ثم بين بعل وموت، فإننا لا نستطيع أن نحكم أكانت هذه المعارك المدوَّنة صيغة أسطورية لبيان العلاقة بين النهر والمطر والبحر والصحراء والهواء والطل والموت والشمس..الخ، والتي تتصارع وتتكامل، وينظمها إله أعلى لطيف رحيم هو إيل، أم أنها أصداء لأحداث تاريخية. فحين يقولُ "يم" مثلاً "سَلّمي أيتها الآلهة من تخافينه (تحمينه) من تخشاه الجماهير، سلّمي البعل وأعوانه (أو سحبه) ابن داجون فأرث فأسه (نصيبه)" (10). يلوح لنا وكأنّ الأمر يتعلق بحرب حقيقية بين أتباع ديانتين، ولكن حين يجيب إيل الأب قائلاً: "البعل عبدك يا "يم" إنَّ البعل خادمك. أيها النهر، إن ابن داجون أسيرك، سيحضر لك ضريبة أرجواناً كما تجلب الآلهة" (11)، فإننا نفهم عندئذ أنَّ ما يعنيه "إيل" هو أنَّ النهر لا يتجدد دون المطر، وبالتالي فإنّ حياة "يم" تعتمد على فعّالية "بعل" ونجاة الناس بتجدد هطول المطر سنوياً تعتمد على انتصار "بعل" على "موت" وبدون الهواء والرياح، وتقديرنا أن الكنعانيين رمزوا إليها بعناة، لن تتكون السحب التي يسيِّرها البعل، وبدون البحر "آثرة يم" لن تحصل عناة على البخار الذي يشكل السحب، وبدون دور الشمس (شفش) لن يتبخر الماء... وهكذا، فكل رمز يعبر عن جانب محدد أو وظيفة محددة في الطبيعة، والمنظم الأكبر هو الإله الأكبر "إيل".

إنَّ ما يهمّنا أكثر في هذا السياق، وما هو مؤكد هو وصف إله النهر "يم" بأنّه "ي و"، ولا ضرورة للتسليم بأنها "ي هـ و ه"، ولكن مفهوم أو معنى كلمة "ي و" هو "حبيب الله"، فإن تطابق معنا هذا المعنى لاحقاً بين "ي و" و "ي هـ و ه" كان بوسعنا تأكيد صحّة الاستنتاج. ويلاحظ هنا أن ترجمة د. علي أبو عساف تؤكد قول إيل: "اسم ابني يو إيل. وورد اسم يم" (12) في ترجمة د. علي أبو عساف للأسطورة نفسها، تحت عنوان "دورة بعل"، وحين يتعلق الأمر باستصدار قرار من الإله الأعلى "إيل" ببناء هيكل للبعل، يرد النص:

"[اعبـ] ر الجبل أعبر؟

"قعل، أعبر أهة (قعل: اسم مدينة أو مقاطعة. وأهه: اسم أسطوري لتيار بحري)

"ونفس الماء (مجرى الماء)، شمشر (= شمَّر أي أرسل)

"سماك أثرة،

"أمضي لقدش أمرر،

"إذاك (بعدئذ ألا تتجهوا

"لوسط حَكفة (ممفيس عاصمة مصر)

"نحو إله الجميع، إن كفتر (= كريت)

"مقرَّ كرسيِّ عرشه، وحَكفة

"هي أراضيه الخاصة" (13).

والمطلوب أن يقولوا لكثر وخساس (الحريصي اليدين = الماهرين) بالقدوم لبناء هيكل لبعل.

وبالطبع، تستوقفنا هنا الأسماء. فَعَل تذكرنا بالمدينة الفلسطينية التي لعبت دوراً في استقبال العبريين "قعيلة"، وأهة، وإن اعتبرها الباحث اسماً أسطورياً لتيار بحري، إلاّ أنها لغوياً قريبة من اسم "يهوه" الذي ظهر لاحقاً، ثم إن هناك نهراً في العراق حمل اسم أهوا، ويرد ذكره ثلاث مرات في سفر عزرا، إذ نزل عنده اليهود عند عودتهم إلى القدس من بابل (عزرا 15 و21 و8/31)، ونظنه نهر الأهواز. أما العلاقات بين بلاد كنعان وكريت ومصر في هذه الأسطورة، وكون "المهندس" كثار وخساس من كريت، فلا بُدَّ وأنها لغز تاريخي، لا علاقة له بقصة الصراع بين الآلهة كما أوضحنا طبيعتها. فنحن هنا أمام تفاعل حضاري في إطار جغرافي واسع محدد يعكس واقعاً تاريخياً لا زال مجهولاً لدينا، وإذا كان "أهه" اسم أسطوري لتيار بحري، فهذا أيضاً قد تكون له صلة ما بإله النهر "يم"، ولكن الراجح في النص أن عبور "أهه" يسبق نَفَس الماء (= مجرى الماء) وموافاة الرسول "قدش أمرر" للطلب منه أن يتجه إلى كريت.

وكما أن "يم" اكتسب اسم "ي و"، فإنه في موقع آخر من الأسطورة يكتسب الاسم "إي" (14) وفي هذه المرة يبدو أنَّ لهذا الاسم علاقة قديمة بآلهة اليوديم (اليهود) فوفق ديل ميديكو، فإن لـ "ا ي ي ل ل"، كانت آلهة اليوديم الكاذبة وهي التي يجب أن تعلم بواسطة خرير المياه في الأنهار، أنّ إيل إله قدير، يستطيع القضاء على أعدائه (15).

ومرة أخرى نلاحظ هنا العلاقة بالأنهار وليس بالصحاري والقفار.

ومن الطريف هنا أن نلاحظ أنه ليس "يم" فقط من اكتسب لقب حبيب إيل (يو)، فقد أعطت الأسطورة الكنعانية إلى الإله "موت" أيضاً لقب "م د د. إ ل" أو "ي د د. إ ل". ولفظة "مدد" أو "يدد" تعني شيئاً واحداً: الحبيب، من جذر سامي مشترك: ود، فهو حبيب إيل أو الذي يحبه إيل (16).

وعلينا أن نلاحظ أنَّ الاسمين (ي و) و(إ ي) لـ "يم"، يمكن مقابلتهما مع اسم الإله السومري أيا (أنكي)، حتى أن د. علي أبو عساف ترجم كلمة (إ ي) في أسطورة "ولادة الآلهة" بـ (أيا)، فقال:

"يأكلون من خبز أيا ويشربون من خمر ونبيذ أيا

"قربان الملك، قربان الملكة، والعربيم والتنيّيم" (17).

وأصل النص بالأوغاريتية، هو:

ل ح م. ب ل ح م. (أ) ي . و ش ت ي. ب خ م ر. ي ن. أي. ش ل م . م ل ك ش ل م. م ل ك ت. ع ر ب م. و ث ن ن م (18).

وواضح أنّ الكلمة جاءت بالصيغة "أي"، ولكن الأوغاريتية تميز الهمزة في أوضاع حرف الألف الثلاثة، مما يرجح أن يكون الأصل (أيا).

ثمة احتمال آخر من احتمالات اللغة الكنعانية لوجود علاقة بين اللفظتين (ي و) و(يوح)، والأخير اسمٌ من أسماء الشمس، ومن السهل سقوط الحاء من النطق أو تحوُّلها إلى هاء. وعندئذ، فإن (يوح) أو (يوه) أو (ي و) سيطابق الاسم الذي قال به الصابئة المندائيون (ي و/ ربًّا) وعلاقته بالشمس. إلا أنه في التقليد الكنعاني كان "ايل" هو الإله الأعلى، وبقية الآلهة بمرتبة أبنائه وبناته عدا عن زوجته أو حتى زوجتيه (أنثتا إيل).

يبقى من المقاربات اللغوية في هذا السياق القول إن (ي و) لن تعطي معنى الحب (الهوى) في العربية، إلاّ بإضافة حرف الهاء لتصير (ي هـ و) أو (هوى)، مع ملاحظة أن "كلمة هوى بالكنعانية تعني هوى بالعربية أي صُرِعَ (سقط) كما تعني أهوى/ أطبق" (19). وثمة كلمة كنعانية أخرى تحمل معنى المحبة هي (ر إ م ت) (20). وبالطبع، فإنّ هذه الكلمة مع كلمة (رام) الكنعانية التي تعني العلوّ والارتفاع يمكن أن تسهم في تفسير اسم الصنم الذي عبده بنو إسرائيل أثناء التيه، وهو (رَمْفان). وواضح أنه مكون من مقطعي (رامَ) بمعنييْه المحتملين و(فان = بان أو رؤي)، مع العلم "بأن كلمة (ي ف هـ) بالكنعانية تترجم "يرى" (21). وواضح أنه يمكن أن تكون لها صلة حتى مع اسم (يَهْوَه). كما أن كلمة "فان" بالعربية تعني جاء أو أتى. فيكون معنى رمفان "جاء العلي" أو "جاء الحبيب".

هذه هي الجذور المحتملة لعلاقة (يهوه) عند اليهود بالديانة الكنعانية، ولم نقحم فيها بعد ملاحظات إضافية تتصل بالأسماء في إيبلا وبابل وسبأ، مما يحتاج بدوره إلى المتابعة.

لكنَّ هناكَ سؤالاً أهم وأكثر خطراً، وهو هل تأثر بنو إسرائيل أو اليهود بعقائد ضحاياهم الذين زعموا أنهم قرضوهم من أجزاء واسعة في فلسطين؟ ونقصد بني عناق أو العناقيين.

إن بحثنا عن هؤلاء العناقيين (المنقرضين) أوصلنا إلى أنّ السلت في أوروبا كانوا منهم، فاسم (السلت) من المصدر العربي (سلت) الذي يفيد الكرَّ في القتال، وإذا قيل الكلت فقد حمل اسمهم إلى اليوم وادي الكلت في المنطقة بين القدس وأريحا (*). وهم الـ "ماب اينوقيون" أي أبناء عناق، وهم أمة الكمري. (والكمير في الكنعانية تعني الجموع) (22). وأما أسماء آلهتهم وهي عربية المبنى لفظياً، فنستطيع تعقبها في عشرات المواقع الجغرافية في فلسطين بما في ذلك اسم آلهتهم الأم دانة التي يحملها العديد من المواقع وإله السماء اللود.

ومن تراث هؤلاء الديني، سنختار أمرين لهما علاقة أكثر من سافرة بعبادة اليهود ليَهْوَه.

أولاً: في كتاب عن "الباردات Barddas" أي القصائد الشعرية (البُردات بالعربية)، وهو بعنوان "الرمز" ويتعامل مع أصل الحروف الأبجدية والكتابة السرّية للبُردات. فإن الحروف اخترعت بواسطة عينيجيد

Einiged(**) العملاق ابن السر Alser، وسجلت على قوالب خشبية كانت تُسمَّى كويلبرن Coelbren . وقد أعطيت الحروف الأصلية الثلاثة إلى مينو Menw المعمِّر من اللهِ نفسه، حيث تمثلت في ثلاثة إشعاعات من الضوء هكذا: /|\ في ثلاثة أعمدة. الصوت O سجل في العمود الأوَّل، و I في الأوسط، وV في الثالث. وهذه كتبت بشكل OIV، والتي هي ليست شبيهة بالرسوم الرونيَّة، ومثل الأحرف الأربعة لقواعد كتابة اسم الإله العبري (YHVH)، ينبغي ألاّ تلفظ. هذه الأحرف السرّية، قيل إنها تُعَبِّر عن القيم الطيبة في الحب LOVE والمعرفة والصدق، حيث المبادئ الثلاثة مثلت في ثلاث درجات عُبِّر عنها في الباردات الإنكليزية (23).

ها نحنُ عدنا مع (OIV) الشبيهة كل الشبه بكلمة (YHVH) إلى المعنى الكنعاني لـ (ي و) = (محبوب إيل) أو (الحب).

ثانياً: المفاجأةُ الثانية هي في اسم الإله "هو قادرن Hu Gadarn، والاسم ليس بحاجة إلى الترجمة، فهو ببساطة "هو القادر" حيث النون في آخر الكلمة للتنوين على الطريقة العربية الجنوبية.

والمفاجأة لا تقف عند هذا الحد.

تقول موري هوب إن السلت اعتقدوا أن الشمس والأرض انبثقتا من بيضتين منفصلتين في قارب كيردوين Keridwen ، وقد كانت الشمس هي المخلوقة ثانياً (كما في الخرافة الإغريقية عن أرتميس وأبولو). اسم الشمس كان طاليسن Taliesin [هذه الكلمة تفهم حرفياً من النصوص على أنها تعني طويل العمر]، وأيضاً كان (بتذكير الشمس) يعرف باسم (هو قادرن Hu Gadarn) (24). وقد كان الثور OX مقدساً لـ "هو قادرن" بينما الدجاجة مقدسة لكيردوين (25) (هذه الملاحظة مهمة، فقد كان أجداد اليهود بحكم إقامتهم في سعير لا يعرفون الدجاج. وهي ملاحظة أبرزها الصليبي في كتابه "التوراة جاءت من جزيرة العرب".

وكما في التقاليد اليهودية في اللجوء إلى السحر، فإنّ السحر السلتي القديم كان يتم تحت ولاية الآلهة كيردوين وحاشيتها، وهؤلاء كانوا يشملون هو قادرن أو جويديون Gwydion، وأفاجدو Avagddu، وشاعر الطاليسن نفسه. وطبقاً لدافيز Davies (مؤلف)، فإنَّ "هو قادرن يمثل الحقائق القديمة مثلما أحضرت إلى هذه الجزر (بريطانيا وإيرلندا) من مكان ما (وهذا ما نرى أنه فلسطين) عبر الماء. كيردوين هي الآلهة التي تحدد أدوارهم، بينما دور طويل العمل (طاليسن) هو دور المسجل. شاعر القرن الرابع عشر يولو جوش كتب عن "هو Hu":

""هو Hu"" هو القوي، السيد، الحامي، ملك، معطي الخمر والسمعة الطيبة، إمبراطور الأرض والبحار، وحياة كل أولئك الذين في العالم كانت هو. بعد الطوفان، هو أمسك بالمحراث القوي المشع، فعّال وجيد، هذا ما فعله سيدنا لجنسنا النشيط، ذلك أنه أعطى الإنسان المتكبر، وذلك العاقل المتواضع، الفن الذي كان مجرباً من قبل الأب المخلص؛ ولم تكن عاطفته زائفة (26).

وترى موري هوب أن هو Hu كان واحداً ومماثلاً مثل الإله البريطاني القديم بيلي Bile (أي بعل أو السيد) أو الويلزي جويديون (27)، كما تطابق في موقع آخر بين بيلي (بعل أو دجن كما هو معروف) وجويديون وهو (28)، وجميع الأسماء عربية صرفة.

في الواقع، إنَّ ما ينقص الأوصاف التي أوردناها في هذا السياق للإله العناقي ونسمحُ لنفسنا باستخدام هذا الوصف، وبين يَهْوَه، هو أنَّ أحفاد العناقيين لم يعودوا معنيين بالحديث عن "راكب الغيوم" وهي إحدى الصفات المشتركة بين بعل ويهوه.

قد يقول قائل إن اليهود أخذوا اسم "هو" Hu من ضحاياهم العناقيين وحرفوه إلى اسم يَهْوَه. ولكن، علينا أن نتذكر أساس الأسطورة، وهي أن موقع Hu من الشمس مثل موقع (يو/ ربًّا) كما يقول الصابئة المندائيون. تلتقي الأفكار رغم تباعد المسافات، ومع ذلك، علينا أن نلاحظ كيف أن Hu وصف بالمحب والمنعم لقومهِ، وإلى حد ما فقد نظروا إليه كإنسان قادهم بنشاط في إعادة بناء حياتهم بعد الطوفان.

إن المقارنة التي أجريناها بين (يهوه) و(هو) وبين مصيري "شعبيهما" يجعلنا ندرك أكثر وأكثر مغزى قوله تعالى في توضيح الحكمة وراء المعركة بين طالوت وجالوت والتي قتل فيها داود جالوت "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرضُ ولكنَّ الله ذو فضلٍ على العالمين" (البقرة 251). فقد كانت فلسطين مصدر إشعاع حضاري في العالم من خلال هذا الدفع بالذات. وقد كان بوسع اليهود في "الشتات" أن يكونوا مصدراً للتفاعل الحضاري مع كل الشعوب لو أنهم فهموا أن أصل اسم (يهوه) هو المحبَّة، وليس العكس. ولكنهم لم يفهموا هذه المسألة في الماضي، ولا يفهمونها إلى اليوم رغم إرسال عيسى بن مريم رسولاً للمحبة إليهم.

لنعد الآن إلى الاسم الآخر لـ "هو قادرن" وهو "طاليسن"، لاشك أن المقطع (سن) في هذا الاسم يعني (سن = عمر)، وبالتالي، فإنّ ترجمته بصيغة "طويل العمر" التي يخاطب بها "الشيوخ" في الجزيرة العربية صحيحة، ولكن هذا الاسم أيضاً يذكرنا باسم "طالوت" = (شاول) في مقابل جالوت، مما يشكل قرينة لغوية على أنَّ العناقي (السلتي) كان يستخدم لفظة (طال) بدل (طويل) في ذلك الزَمَنْ.

وعلينا أن نلاحظ أيضاً أنه كان من ألقاب (الثور ـ إيل) لقب "م ل ك. أ ب. ش ن م"، أي كما قرأها البعض "الملك أبو السنين"، يريدون بذلك الملك الأبدي. غير أن غنزبرغ يعترض على ترجمة هذه العبارة ويعتقد أن "ش ن م" اسم علم: شونم أو شانم، لأنَّ جمع سنة في الأوغاريتية ش ن ت = سنوات، لا "ش ن م". وقد يكون معنى عبارة "أ ب. ش ن م" أبو العلاء أو أبو المعالي، أو المرتفعات (29).

ولكن ماذا عن العلاقة المحتملة بين (ش ن م) وبين (سيناء) التي تأتي بصيغة "سينا" وأيضاً بصيغة "سينيم" بالجمع. وقد جاءت في القرآن الكريم بصيغة (طور سينين). الشائع القول إنها سمِّيت بذلك نسبة إلى القمر (سين). ولكن الناس ـ وحتى يومنا هذا ـ يتحدثون عن قمر واحد لا أقمار. فهل كان اسم سينا أو

سينيم أو سينين اسماً للجبل أو الموضع الذي جمع فيه شيوخ إسرائيل السبعون لإبرام الميثاق؟ فيكون السينيم هم شيوخ وعقلاء القوم (المُسِّنون).

لنقارن بين (ش ن م) الكنعانيين و(س ي ن ي م) بني إسرائيل و(السنهدرين) الذي أقامه اليهود قديماً في فلسطين و(سينا) اسم مجلس الشيوخ في روما، و(السينا/ تورات) في مجلس الشيوخ الأميركي، ورئيس السن في كل مؤتمر برلماني أو غيره، أما طالي سن العناقي السلتي فهناك قصيدة (بُردة) له، يستعرض فيها مسلسل الأحداث التاريخية التي شاهدها منذ بدء الخليقة، وواكبها على مرِّ الزَمَنْ.

* * *

هوامش (5) يهوه والجذور الكنعانية/ والسلتية:

(1): كارين آرمسترونغ، م.س، ص34.

(2): العقاد، م.س، ص164.

(3): نفس المصدر، ص150، وص151.

(4): د. فؤاد حسنين، م.س، ص11.

(5): مرسيا الياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج1، ص221، وص222.

(6): أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، ص211.

(7): نفس المصدر، ص108، وص109.

(8): نفس المصدر، ص110.

(9): نفس المصدر، ص111.

(10): نفس المصدر، ص114.

(11): نفس المصدر، ص116.

(12): د. علي أبو عساف، نصوص من أوغاريت، ص75.

(13): د. علي أبو عساف، نصوص من أوغاريت، ص71.

(14): نفس المصدر، ص99.

(15): ديل ميديكو، م.س، ص289. ويجب أن نلاحظ أن النص الأوغاريتي موضع التحليل يعود إلى القرن الـ 14 ق.م.

(16): أنيس فريحة، م.س.ذ، ص52.

(17): د. علي أبو عساف، م.س، ص112.

(18): أنيس فريحة، م.س. ص348.

(19): نفس المصدر، ص185.

(20): نفس المصدر، ص216.

(21): نفس المصدر، ص325.

(*): وقد تلفظ "القلط" وتعني المزدهين بأنفسهم وذوي الهيئة الجميلة وكانوا مشهورين بارتداء اللباس الطويل الذي ربما لا يزال حياً في "الديماية" الفلسطينية والسروال.

(22): د. علي أبو عساف، م.س، ص160.

(**): يذكرنا هذا الاسم بموقع "عين جدي" في فلسطين كما يذكرنا بسيد الغرب "عنجتي" في مصر.

(23): Murry Hope, Practical Celtic Magic, P. 131.

(24): نفس المصدر، ص153.

(25): نفس المصدر، ص162.

(26): نفس المصدر، ص212.

(27): نفس المصدر، ص213.

(28): نفس المصدر، ص227

(29): أنيس فريحة، م.س، ص41.

* * *

(6)

جذور شبه يهويه في إيبلا وبابل وسبأ

بعد تردُّدٍ في اختيار عنوان هذا الفصل، استقرَّ بنا المطاف على تعبير "شبه يهويه". فالمفردات اللغوية في اللغات العروبية القديمة، ليست حكراً لجماعة دون أخرى. وتطوُّر الدلالة في تلك المفردات مسألة منطقية إلى أن استقرَّ بنا المطاف لنجتمع حول اللغة العربية الفصحى. ومع ذلك، فما زالت لهجاتنا المحلية متفاوتة ولا زالت بعض لغاتنا العروبية القديمة حيِّة في العديد من المواقع في الوطن العربي. واللغة العبرية في نهاية المطاف، ليست سوى امتداد لإحدى تلك اللغات العروبية القديمة، وقد جاء هذا الامتداد رغم ما شهده من اصطناع معتمداً قواعد تلك اللغة القديمة إلى حد كبير. وبالتالي، فإن الكلمات التي ينطقها مَنْ يُسَمَّى بالعبري اليوم نستطيع أن نعيدها إلى أصلها العربي أو بالعكس أن نبيِّن صيغتها العربية الراهنة. وهكذا فإنّ اليهود رغم كل جهودهم للمحافظة على عزلتهم لا يستطيعون الخروج من فخّ الثقافة التي جاءوا منها أصلاً.

ثمة ملاحظة ثانية لا بُدَّ وأن نوردها في سياق التمهيد لهذا الفصل. وهي أنّنا سنتناول وقائع تاريخية تعود إلى الألف الثالث أو الثاني ق.م، وإلى زمن يفترض الدارسون التوراتيون، واستناداً إلى التوراة أن بني إسرائيل لم يكونوا قد تشكّلوا فيه بعد. ذلك أنهم غالباً ما يردُّون واقعة الخروج إلى القرن الثالث عشر ق.م. وإن لم تتوفر على ذلك أية قرينة تاريخية. لذلك، فإن كلَّ شيء يأتي من ذلك الماضي البعيد، لا بُدَّ وأن يقرأ بمعزل عن تجربة بني إسرائيل. وأما بالنسبة إلينا، فإننا نعتقد أن خروج بني إسرائيل من مصر تمَّ حوالي العام 3000 ق.م، أو ربما بعد ذلك بقليل، لذلك يمكننا أن نعيد قراءة المعطيات التاريخية من منظور مختلف.

الملاحظة الثالثة، التي يتوجب أن نوردها في هذا السياق، هي أنّ بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر، أو جزءاً هاماً منهم على الأقل، كانوا صنيعة ما نفضل أن نسمِّيه بـ "اقتصاد قارون"، وهو نمط اقتصادي لا زال يميِّز نشاط اليهود الاقتصادي حتى يومنا هذا. والعنصران الأساسيان فيه هما الصناعات الحرفية والتجارة، ولكن أيضاً السعي وراء المعادن الثمينة ولو بالإبحار بعيداً أو على متن نوع آخر من السفن في ذلك العصر هو الحمير. ومثل هذا النمط من الاقتصاد يفترض وجود محطات أو جاليات في مختلف المراكز التجارية المهمة، وبالتالي يفرض شتاتاً اختيارياً، هو غير السبي الآشوري وغير السبي البابلي. ومثل هذا الشتات الاختياري الذي يفرضه "اقتصاد قارون" أو اقتصاد الحرف والتجارة، كان لا بُدَّ وأن يجعل الإسرائيلي أو اليهودي المغترب يعرف نفسه في المغترب بأنه "إسرائيلي" أو "يهودي"، والتجارة ـ كما هو معلوم ـ تفترض عنصرين متناقضين هما: التعاون والتنافس. وربما قصة العلاقة مع المديانيين والكنعانيين تعكس هذا التناقض بين التعاون والتنافس. ونحن نعرف من قصّة المديانيين في القرآن الكريم

أنهم كانوا أهل تجارة ويطففون الكيل، وأما التوراة فإنها تتهم التجار الكنعانيين بالغش في الموازين، والتقليد اليهودي خارج إطار التوراة يتهم أهل سدوم وعمورة بأنهم كانوا غشاشين، ويحرّفون القضاء. إنَّ هذا الوضع بالذات، أي الشتات الاختياري للتجار والحرفيين، هو الذي جعل اليهود معنيين في نهاية المطاف أن يكون لهم إله خاص، وله اسم محدد، وألاّ يتوقفوا عند الاعتقاد بألوهية الله "إيل"، خاصة وأنَّ مفهوم هذه اللفظة لم يكن قد وصل إلى المعنى الذي تبلور في الإسلام. ولنلاحظ هنا أنه حتى السيد المسيح عيسى بن مريم، فإنّ آخر ما قاله ـ وهو على الصليب ـ وفق رواية الأناجيل "إيلي إيلي لم شبقتني"، أي "إلهي إلهي" ولم يقل "يا الله" بما يفيد المعنى المطلق. وعلى هذا النحو، كان لا بُدَّ لليهود من أن يعطوا لإلههم اسماً مختلفاً عن بقية أسماء كل آلهة الشعوب الأخرى. وما دامت الأسماء الإبراهيمية مشتركة مع الكنعانيين فقد كان لا بُدَّ وأن يبتعدوا عنها لصالح الاسم الجديد.

هل نقول بأنَّ الاسم الجديد المغاير لكل الأسماء اليهودية التي عرفها الآخرون، بما في ذلك الآباء، كان بمثابة العلامة التجارية في البداية، أو هو بطاقة التعارف التي لا بُدَّ منها في شبكة العلاقات التجارية؟

ربما كان الوضعُ على هذا النحو، ولكن المسألة أعقد من أن نقف بصددها عند استنتاج مُحَدّد. ومن الخير أن نغوص في التاريخ القديم، بحثاً عن الجذور شبه اليهوية في هذا التاريخ.

وفق رواية التوراة نفسها. فإنّه قبل أن يولد إبراهيم عليه السلام، كان هناك من بين أسماء أبناء يقطان (قحطان) من حمل اسم "يوباب"، وهو اسم لو ظهر في زمن لاحق، وعند بني إسرائيل لقيل إنه يَهَوِي. فالمقطع (ي و) في بدايته هو من المقاطع التي قيل إنها تدلُّ على (يَهْوَه).

وبعد زمن إبراهيم الخليل، وقبل أن يكشف الربّ عزّ وجلَ عن اسمه يهوه إلى موسى، حسب رواية التوراة، نجد بين أبناء إسماعيل عليه السلام من حمل اسم "يطور" وبين أبناء عيسو أخي يعقوب "يعوش" و "يعلام"، وإذا كانت هذه الأسماء قد تفسّر (الياء) فيها بأنها للمضارع، فقد كان أحد ملوك أدوم "هو يوباب بن زارح من بصرة" [تك 36/32] ولم يقل أحد بأنّ الأدوميين عبدوا يهوه في أيِّ وقت من الأوقات، لكن المقطع (ي و) في الاسم قد يقودنا إلى (ي و = يم) الكنعاني. وثمة إشكالية أكبر تتمثل في اسم "يهدون ليم" أحد ملوك ماري (1845 ـ 1810 ق.م)، فهل بوسع أحد أن يزعم بأن هذا الاسم كان يهوياً؟ وهل يمكن فصله عن مفهوم "الهدى" وعن مدلول اسم "هود" عليه السلام، النبي الذي أرسل إلى قوم عاد قبل زمن إبراهيم عليه السلام؟

وقد أثيرت نقاشات واسعة بين العلماء حول الأسماء الشبيهة باليهوية في مناسبتين أساسيتين، هما مكتشفات إيبلا، وثانياً بعض الأسماء المكتشفة في بابل زمن حمورابي وأبيه سين موبلط، ونرى من المهم الوقوف عند هاتين الحالتين.

تعود مكتشفات إيبلا إلى أواسط الألف الثالث ق.م، وقد ثارت ضجة كبيرة حين حاول جوفاني بيتيناتو عضو البعثة الأثرية الإيطالية المتخصص في الدراسات المسمارية، والذي تولى فك رموز اللوحات

المسمارية التي اكتشفتها البعثة، ربط حضارة إيبلا بأحداث التوراة. ومن بين ما ادَّعاه، وجود اسم (يهوه) أو (يا) مركباً في أسماء الأشخاص الوارد ذكرهم في نصوص إيبلا، والزعم بأن (يهوه) خلال حكم الملك إيبريوم حلَّ مكان الإله (إيل)، مما يدعو للافتراض بقيام عملية ارتقاء نحو التوحيد الإلهي في ديانة إيبلا (1). ولكن أثبت كل من الأستاذ الفونسو آركي (إيطالي) وكروس (أمريكي) وموللر (ألماني)، أن اسم (يهوه) لا وجود له في قائمة الآلهة التي كان أهالي إيبلا يقدمون لها القرابين والأضاحي. أما الإشارة السومرية التي تلفظ (يا) والمركبة في مقدمة أو مؤخرة أسماء الأعلام، فهي أداة تصغير ودلع معروفة في اللغات السامية المتأخرة (2).

وقد قال آركي إنه "معلوم تماماً أنَّ العنصر (يا) عبارة عن أداة تصغير شائعة جداً في أسماء الأشخاص السامية، وهي شائعة بشكل خاص في أسماء الأشخاص الواردة في الرقم المسمارية المكتشفة في ماري (تل الحريري). وفيما يتعلق بنصوص إيبلا، فقد أشار جوفاني بيتيناتو إلى أن تحوُّل أسماء الأشخاص مثل ميكائيل واينائيل وإشرائيل إلى ميكايا واينايا واشرايا، دليل على أن العنصر (يا) ـ في إيبلا على الأقل ـ يحتفظ بنفس القيمة الربوبية للعنصر (إيل). وبالتالي يمثل (يا) إلهاً معيناً" (3).

ويورد آركي بعض الأمثلة من الرقم المسمارية. وهي تتضمن أسماء فيها:

"اش ـ را ـ ايل" = اش ـ را ـ يا/ ني

"م ي ـ ك ا ـ ايل" = مي ـ كا ـ يا/ ني

ويلاحظ أن الإشارة السومرية هي "ني"، وأن الاسمين هما لمسمًّى واحد، ولذلك يصعب أن يعني ذلك تبديلاً للعنصر الربوبي في هذا الاسم بعنصر ربوبي آخر في ذلك الاسم (4).

الغريب ألاَّ يلاحظ الباحث في هذا السياق أن العرب حتى اليوم تقلب بعض الأسماء الإيلية إلى إينية، فجبرائيل يصير (جبرين) وإسرائيل يصير (إسرائين) وإسماعيل يصير (إسماعين). وما حدث في إيبلا ليس إلاّ هذا بوجود الإشارة السومرية (ني) في آخر الاسم. ذلك أن إله السماء (آنو) عند السومريين والبابليين هو المكافئ لـ (إيل) عند الساميين أو العرب الآخرين.

إن المهم في هذا السياق ليست محاولة بيتيناتو الفجة لتحويل "إين" أو (يا / ني) إلى (يهوه)، ولكن وجود الاسمين اشرائيل وميكائيل في إيبلا، فإنّ هذين الاسمين، وإن كانا لشخصين عاديين، وربما ـ وهو الأرجح ـ أنهما كانا تاجرين، مما استدعى تثبيت اسميهما على الرقم، فإن لهما صلتهما (كاسمين) بالتراث الديني في التكوين العربي. فإسرائيل (وليس إسرائيل إيبلا بالطبع) هو رفيق إبراهيم في موقع الأبوّة لعدد من الأنبياء، وهو جَدُّ بني إسرائيل. وميكائيل (وليس ميكائيل إيبلا بالطبع) هو مَنْ عُدَّ في المأثور الديني المتأخر بالنسبة لليهودية والمبكر بالنسبة للمسيحية اسم رئيس الملائكة، وقد أكد على اسمه واسم جبرائيل كملاكين في القرآن الكريم، وأشار القرآن الكريم إلى عداوة اليهود لهما.

وسواء اتفق معنا الباحثون حول زمن خروج بني إسرائيل من مصر أو اختلفوا وهل كان قبل مكتشفات إيبلا أو بعدها بحوالي ألف سنة، فإن النتيجة واحدة، وهي وجود ارتباط ما، ثقافي وحضاري بالطبع، سابق أو لاحق، بين قصة (بني إسرائيل) وبين التراث العربي القديم.

ويقول آركي إنه "لأمر طبيعي أن تحمل أسماء العنصر (إيل) الذي يجب أن نعتبره الرب إيل في الأسماء الواردة أعلاه على الأقل، وذلك لأن (إيل) كان إلهاً حياً ومعبوداً في إيبلا. كذلك لا بُدَّ أن نتوقع ذلك لاسيما وأن أسماء الأشخاص المركبة مع اسم الربّ (إيل) تشكل الأكثرية في أسماء الأشخاص المعروفة في أوغاريت، وفي أسماء الأشخاص الأمورية المعروفة في عهد سلالة أور الثالثة، وفي ماري . هذا وإن وجود العنصر (يا / يهوه) في أسماء الأشخاص الأمورية على الإطلاق لا يزال معضلة بالفعل. فالعالم د. ديلتش أثار هذه المسألة منذ سنوات طويلة، لكنّ الصدى كان سلبياً على تساؤلاته، وتشير الدراسة التي قام بها العالم فينيه Finet مؤخراً، إلى أن كافة الأسماء المعروفة في ماري والتي تحمل العنصر الربوبي (يا/ يهوا) تعني على الأرجح (دجن ـ حدد) إلخ، أي (يتجَّلى أو يكشف عن نفسه). وذلك لأن تلك الأسماء يتألف جذرها من العنصر (هـ. و. ي). لذلك يبدو جلياً أنه لو وجد إله أموري أو سامي غربي ـ بوجه عام ـ باسم (يهوا) فلن تكون له علاقة بما كان (يهوه) يعني بالنسبة لإسرائيل. يضاف إلى ذلك كله أن العنصر (يا/ يهوه) في إيبلا لم يتمتع بما فيه الكفاية من الأهمية في عالم الأرباب بحيث أن (يا/ يهوه) لا يرد في قائمة الأرباب التي قدم لها أهالي إيبلا الأضاحي والقرابين" (5).

بطبيعة الحال، قد تكون نظرتنا إلى المسألة مختلفة عن نظرة آركي، لذلك إنَّ عقدة الانعزال اليهودية، أو المفاهيم المتعصبة التي أضفاها اليهود على (يهوه)، لا تحولُ بيننا وبين البحث عن جذور هذا الاسم في حضارتنا العربية، لأنها حضارة تخصُّنا. فإذا كان الممثلون لهذه الحضارة يعبرون بصيغة جذرها من العنصر (هـ. و. ي) عن آلهة أخرى غير إيل أو حتى عن إيل نفسه، فإنّ هذا يهمنا الوصول إلى معرفته أيضاً. ومن منطلق هذه النظرة، ننتقل إلى القضية التي أثارها العالم الألماني ديلتش في كتابه "بابل والكتاب المقدس".

يقول ديلتش إنه حصل بفضل مدير القسم المصري ـ الآشوري، التابع للمتحف البريطاني على صورة ثلاثة ألواح طينية. وسوف تسألون: ماذا نستطيع أن نرى على هذه الألواح المصنوعة من الطين الهش بل المكسور وعليها خط منقوش غير واضح؟ صحيح. ولكنها ذات قيمة كبيرة أولاً للتأكد من التاريخ الذي تعود إليه وهو عصر حمورابي وأحدها من فترة حكم أبيه سن موباليط (حوالي 2000 ق.م، وثانياً للأهمية الكبرى التي تستمدها من ثلاثة أسماء مكتوب عليها، والتي لها أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ الديني وهذه الأسماء هي:

I a ? ve - ilu

I a ve ilu

I a ? um ilu

بمعنى "يهوه هو الله". ومعنى (يهوه) (على حسب معلوماتنا) الكائن والدائم. أي الذي لا يتغير ولا يزول مثلما يزول البشر، بل الذي يوجد فوق قبة السماء ونظام الكواكب الأزلي، والذي يؤثر في العالم من جيل إلى جيل. إن اسم (يهوه) هذا هو ملكية فكرية لتلك القبائل البدوية التي انفصل عنها بنو إسرائيل بعد ألف سنة" (6).

وقد أثار هذا الرأي ردود فعل عنيفة من قبل اليهود والباحثين التوراتيين، إذ أنه يعني أن (يهوه) تجلّى لعباده قبل ألف سنة من تجليه لموسى. وعليه، فإنه يكفّ عن أن يكون الرب الخاص لشعب إسرائيل دون غيرهم من الشعوب. وهذا من شأنه أن يقوِّض الرواية التوراتية كلياً، وأن يزلزل العقيدة اليهودية الانعزالية. واضطر ديليتش عندئذ أن يَرُدَّ على منتقديه.

وفي ردِّه قال ديليتش "أصرُّ على أن القراءة الوحيدة للاسمين "يا - أ - في - ايلو" و "يا - في - ايلو"، هي "يا، في". كشفت محاربة قراءتي السليمة مائة بالمائة طبقاً لمعلوماتنا الحالية عن جهل مؤسف من جهة النقاد. وقد تعود إلى السبب نفسه بعض التهمات التي وجّهت إليِّ مثلما تجرأ الأستاذ كيتل على أن يسمِّي قراءتي "مناورة مغرضة" (7). وهذا ما دفع ديلتش إلى تقديم دراسة موجزة وفقاً للنصوص الآشورية.

وفي هذه الدراسة، قال ديلتش إن كل من يعرف إلى حد ما طريقة الكتابة في عصر حمورابي يعلم أولاً أن المقطع "ما m ? " حتى لو سلّمنا بالقراءة "يا - و - ما" (ia - u- m?) لا يمكن أن يفهم أن "ما" هذه هي الأداة البارزة، كما أخطأ في هذه النقطة كونيغ وكيتل وغيرهما، لأنَّ هذه الأداة تكتب بالإشارة العادية لـ "ما" (ma). لذلك لا يمكن في حالة من الحالات أن يكون معنى الاسمين المعنيين "يا"، "ياؤ" هو الله. أما من يعارض هذا الرأي، فليأتِ بمثال واحد تكتب فيه الأداة "ما" ma البارزة بالإشارة ..... ؟! ومن الجدير بالذكر أن الـ "م" في "يا - و - وم - ايلو" للتنوين وليس "ما" المختصرة. وثانياً: إنّ القراءة "يا - أ - بي - ايلو" التي يؤيدها ث. بيزولد غير ممكنة، إذ أنّ في عصر حمورابي قد تستخدم الإشارة .... "بي" (i) محل المقطع بي (Pi) ولكن لا تستخدم على العكس الإشارة ..... محل المقطع Bi . ثالثاً: بعد شيء من التفكير، يجب أن نرفض أيضاً القراءة "يا (أ ،) - بي - ايلو) ia - (a) - pi - ilu . قد نجد استخدام الإشارة Pi أيضاً في عصر حمورابي تتكرر مثلاً في العقود التي نشرها مايسنر في مقالته التي تتناول "القانون المدني في بابل"، مثلاً بي - ار - اشتار Pi - ir- ishtar وبي - ار - حو Pi- ir - hu وايحبي ihippi . وكذلك في شريعة حمورابي (مثلاً أوبتي: uptti). ولكن في أغلب الأحيان نجد الإشارة ...... لـ "بي" Pi كما في الرسائل التسع والسبعين التي نشرها "كنغ" والتي تعود إلى العصر نفسه حيث لا نجد مرّة واحدة لـ "بي" Pi الإشارة ...... بل الإشارة .... بشكل مضطرد.

ونضيف إلى ما سبق أنَّ فعلاً كنعانياً على شكل "يا، بي، يا، بي" لا يمكن اشتقاقه إلاّ من المصدر ...... أو ما يشبه ذلك، غير أنه لا يوجد مثل هذا المصدر. إنّ غاية ما نستطيعه هو أن نقرأ "يا (،) في - ايلو" (ia

(,)) ve - ilu) على شــــــكل "يا - (، أ / و) ـ فا/ و - ايلـو" (ia l, a/ u - va/ u - ilu) حيث "ف" حرف أصلي، وهي طريقة تنتهي بنا إلى الاعتراف بوجود إلـه (ياهو). لذلك تبقى قراءتي "يا - أ - في - ايلو" و "يا - في - ايلو" أقرب إلى الصواب، والوحيدة التي تدخل في الاعتبار جدياً. أما بالنسبة لقراءة "يا (،) في - ايلو" فإني أقل تأكيداً - والحق أن الترجمة بـ "ليحمي الله" التي اقترحها كونيغ (ولم لا "ليحمي إله")؟ وهي مشتقة من كلمة "حمى" العربيـة، وكذلك ترجمـة بارت بـ "الله يمنح الحياة" (يا - أهـ - في - ايلو) Ia - ah - ve - ilu غير مصـيبتين، كاسمين أجنبيين يجب أن يتحولا إلى "يهفي - ايلو Iahve - ilu أو حتى "يا في - ايلو" ia - ve - ilu (راجع را- حيم - ايلي (Ra - hi - im - ili). وآخر ما يمكن افتراضـه أنَّ مثل هذين الاسمين الأجنبيين يتغير نطقهما الذي اقترب تدريجياً من النطق البابلي بحيث أصبحا غير واضحين بكل بساطة. إننا نستبعد هذه الفكرة. وإذا كان "يا، في" (a, ve) أو يافي (iave) ينطوي على فعل فيكون الأقرب إلى الصواب أن نفكر في فعل هيه (خروج14/3) وترجمته بـ "يوجد الله" التي انتهى إليها هومل، غير أن ديلتش يرى أن ترجمته "يافي هو الله" هي الأقرب إلى الصواب (8).

والسؤال الذي يراودنا إزاء هذا التحليل، والذي تجري فيه محاولة إقحام حرف (الهاء) الواردة في اسم (يهوه) حيث لا مكان لـه، أو إعادة الاسم إلى الاشتقاق من فعل هيه بمعنى "يكون"، بينما يبدو الجذر العربي للكلمة (وفى) مضارعة (يفي) أكثر من ملائم في هذا المقام. وقد تعني "يفي" هنا الحماية أو من يظلُّ الناسَ بظلّه أو من يفي بوعوده لهم. ويبدو لنا أن اسم "يافا" في فلسطين ليس بعيداً عن هذا المعنى. ولنلاحظ هنا أن إقحام الهاء على هذه الكلمة لتصير "يهفي" من شأنه أن يُعطي المعنى المعاكس كلياً، أي الذي يبيد ويدمر إلى درجة الإفناء!.

يتابع ديلتش دراسته، فيقول إننا نصادف هنا اسم رجل ثالث من ذلك العصر هو "يا - و - وم - ايلو" (- Ia u - um - ilu). ومن المؤسف حقاً من وجهة نظر العلم أن هومل يقدم للعالم اسمه "ياو - أي" (iau - Ai) بمعنى القمر كإله بابلي أو سامي قديم، وهو من بنات خياله لا وجود له في الواقع. وليأت هومل بشاهد واحد من الأدب البابلي برمته لإله اسمه "إيل يا" (il-ia) أو "ايل يا - و" أو "يا - ، و"، ولاسيما كاسم لإله القمر. إنه لن يستطيع ذلك. إن الاسم "يا - و - وم - ايل," اسم أجنبي ولا محال، وينتمي إلى القبائل السامية الشمالية (أو بالتحديد إلى الكنعانيين)، غير أنه في هذه القبائل لا نرى إلهاً "يا - و" (ia - u) غير الإله يا هو iahu ، هذا الإله الذي نجد لفظته في الأسماء مثل "يا - و - ها - زي" و"يا - أ - هو - و - لا - كيم" و"يا - هو - و - نا - تا نو" (راجع نصوص مورشو لـ "هلبرخت" وغيرها). ولكن اسم الجلالة "ياهو" (ia - hu) هذا الذي نجده في أول أسماء الأشخاص وفي آخرها بشكل خاص ليس إلاّ شكلاً مختصراً من لفظة "يهفي iahve. وإذا كان اليهود في المنفى، وبعد العودة من المنفى، يعرفون الاسم (يَهْوَه) قادرين على نطقه كما تؤكد ذلك الأسماء الكثيرة المألوفة في ذلك الوقت المتأخر مثل أشعيا وفلايا وغيرها، فلا بُدَّ من معرفتهم به في تلك العصور القديمة التي لم يتصف اسم الجلال (يهفي = يهوه) بعد بهذه القداسة التي

اكتسبها فيما بعد في إسرائيل. وهكذا يشترط الاسم "يا هوم ـ ايلو" وجود اسم بهذا المعنى وبشكل أكمل مثل "يا ـ في ـ ايلو"، وطالما تأكدنا من وجود مثل هذا الاسم فلمَ لا نُسَلِّم، لاسيما وأنّ إنكاره لا يمحي وجود اسم إله مماثل عند القبائل السامية (الكنعانية)، وهو الاسم "ياهو ـ ايلو" = ياهو يا هو هو الله الذي يتفق مع الاسم العبري يوئيل، وهو سبق بألفِ سنة كلمة النبي إيليا التي قالها على جبل الكرمل: "الرب هو الله". أما عدم أخذنا بقراءة بارت "يا ـ هو ـ وم ـ ايلو" الشكل المختصر من "يا ـ اهـ ـ في ـ ايلو" فليس بحاجة إلى التفسير. وحتى ينحزن يشك في أنّ هذين الشكلين ينطويان على اسم الجلالة "يهفيه ـ ياهو"، ويضيف بحق "من المرجح أن المقطع (يا، وو) في هذا الاسم ليس من أصل آشوري بابلي، وإنما من أصل أجنبي".
ولذلك نعتقد أنّ الاسم كلّه اسم كنعاني، وبالتالي يكون المسمَّى به أو المسَّمون به "كنعانيين" (9).
ونحن لا نعترض مبدئياً على وجهة النظر التي توصل إليها ديلتش، ولكن كنا نتمنّى لو أنه أوضح لنا منذ البداية مضمون الألواح الثلاثة التي وجد فيها الأسماء الثلاثة، ولم يكتفِ فقط بذكر الأسماء. فهل كانت تلك الألواح تخصّ التعامل مع ثلاثة من التجار، مثلما هي الأسماء التي يعالجها كتاب موراشيو؟ فإذا كانوا تجاراً، فمن الممكن أن يكونوا أغراباً في بابل، ومن الممكن أن يكونوا كنعانيين، ولكن من الممكن أن يكونوا أيضاً من بني إسرائيل، إذا كان بنو إسرائيل موجودين في ذلك الزمن، أي حوالي العام 2000 ق.م.
وعموماً، فإن الأسماء التي جرت معالجتها لا تتطابق حرفياً مع اسم (يَهْوَه)، ولكنها يمكن أن تكون قد تطورت وكما رأى ديليتش أيضاً إلى هذا الاسم. إلاّ أنّ الملاحظة الجديرة بالانتباه هنا، أنه إذا كان اسم يهوه قد عُرف في زمن داود، وقد ربط ديليتش إعلانه بالنبي إيليا في القرن التاسع ق.م، فهل كان ذلك الزمن هو زمن داود؟ أم أن داود وجد في وقت أسبق؟.
إنها أسئلة لن تجد جوابها النهائي إلاّ حين يضع المؤرخون يدهم على حقيقة تاريخ بني إسرائيل وتحولاته خارج إطار الرواية التوراتية التي هي المصدر الوحيد حتى الآن.
وإذا كنّا قد تحدثنا عن المقاربات الإيبلية والبابلية للأسماء "شبه اليهوية" فإن هناك قرينة أخرى لا يجوز إغفالها بالنسبة للمؤرخين، وهي أنّ شيوع الأسماء اليهوية في عهد سليمان اقترن بالعلاقة التي نشأت بين سليمان وبين ملكة سبأ. وفي هذه الحالة، لا بُدَّ لنا وأن نلاحظ شيوع الأسماء التي تبدأ بالمقطع (يه) في سبأ، وعلى مدى زمني طويل، دون أن يكون يهوه بحال من الأحوال إلهاً سبئياً وعندئذ ألا يحتمل أن يكون سليمان قد اختار لبعض أبنائه أسماء على النمط السبأي توطيداً لهذه العلاقة، وأن تكون هذه الأسماء قد شاعت بعد ذلك بين بني إسرائيل، ووصل مدلولها إلى ما وصل إليه؟.
نورد هنا بعض الأسماء اليمنية القديمة التي تبدأ بالمقطع (يه): يهنعم، يهأمن، يهحمد، يهرعش، يهعان، يهبر، يهصدق، يهنف، يهرحب يهوضع، يهقبض، يهرجب، يهرب.
ولنلاحظ أن الاسم الأخير يمكن أن يفهم حرفيا "ياه/ رب"، معادلاً للاسم "يوئيل".
وقد أطلقت مثل هذه الأسماء أيضاً على بعض القبائل اليمنية مثل: يهبعل، يهبار، يهفرع.

فهل من صلة بين هذه الأسماء اليمنية وبين ظهور عبادة "يهوه" عند اليهود؟

إن الأمر الذي يجب وضعه في الاعتبار، أن الثنائية أو التنافس بين عبادة "يَهْوَه" وعبادة "إيل" قد استمرت حتى زمن متأخر، وجاءت نصوص التوراة لتشكل محاولة توفيقية بينهما، ومن الوقائع الدالة على هذه المشكلة ما جاء في العهد القديم "وأخذ شعب الأرض يهو آحاز بن يوشيا وملكوه عوضاً عن أبيه في أورشليم. كان يو آحاز ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر في أورشليم. وعزله ملك مصر في أورشليم وغرَّم الأرض بمائة وزنة من الفضة وبوزنة من الذهب. وملّك ملك مصر ألياقيم أخاه على يهوذا وأورشليم وغيَّر اسمه إلى يهوياقيم. وأما يوآحاز أخوهُ فأخذه نخو وأتى به إلى مصر" [أخبار الأيام الثاني1-36/4].

لقد هذا حدث في عاصمة يهوذا مقر التقليد اليهوي في مقابل السامرة حيث التقليد الإيلي. ولكن ما معنى أن يفرض ملك مصر على ملك يهوذا تغيير اسمه من إلياقيم إلى يهوياقيم؟ هل كان (يهوه) في نظر المصريين معادلاً لإلههم آمون أو لإله الهواء شو عندهم؟.

من الغريب بالطبع، رغم الأصول السامية للمصريين، ورغم وجود الكثير من الآلهة السامية وخاصة الكنعانية عندهم ألا نلمس وجوداً لاسم "إيل" بديلاً عن "نطر" للتعبير عن أيِّ إله. فهل كان الموقف من هذا الاسم مرتبطاً بالواقعة القديمة المتعلقة بظروف خروج بني إسرائيل من مصر وما رافقها من غرق الفرعون وجنوده؟.

وأما الفكرة التي طرحها ديليتش من أن الاسم "يا هو" لم يكن في الأزمنة الأولى يملك القداسة التي أُحيطت بعد ذلك بـ (يَهْوَه)، فهي بدورها جديرة بالتمعُّن، فإنّنا نجد اسم (ياهو) في جزيرة الفنتين مقترناً بآلهتين أنثيين معادلاً لـ (يَهْوَه)، لكننا نجد اسم (يا هو) اسماً لنبي زمن داود، واسماً لشخص عادي من ذرية المصري يرجع الذي تزوج من امرأة من سبط يهوذا، واسماً لملك من ملوك السامرة، فكيف يطلق اسم الرب بشكل مطلق على إنسان عادي؟ من الواضح أن هذا الاسم لم يكن في البدء اسم إله أو اسماً لله، بل كان اسماً عادياً يمكن إطلاقه على الأشخاص قبل أن يتطور صيغةً ومفهوماً إلى شكله الأخير.

وبذلك، فإننا حين وصفنا الأسماء التي عالجناها في هذا الفصل بأنها جذور "شبه يهويه" لا نكون قد خالفنا الصواب.

* * *

هوامش (6) جذور شبه يهويه في إيبلا وبابل وسبأ:

(1): قاسم طوير، ايبلا ـ عبلاء، ص39.

(2): نفس المصدر، ص40.

(3): نفس المصدر، ص62.

(4): نفس المصدر، ص63.

(5): نفس المصدر، ص64، وص65.

(6): فريدريك ديلتش، بابل والكتاب المقدس، ص52، وص53.

(7): نفس المصدر، ص95.

(8): نفس المصدر، ص96-98.

(9): نفس المصدر، ص98-100.

* * *

(7)

ياه والرأي في يهوه

في ضوء ما توصَّلنا إليه سابقاً، وما أقرَّه العديد من المؤرخين الغربيين، من أن الأسماء اليهودية إنما بدأت بالظهور منذ عهد داود، وخاصة عهد سليمان، وأنَّ اسم (يهوه) إنّما ذُكر لأول مرّة في عهد داود، فلعلنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إنَّ هذا الاسم ورد لأول مرة في المزمور الثامن والستين المنسوب إلى داود. لكننا نعتقدُ أيضاً أنّ هذا المزمور تعرَّض في تدوينه للعبث من قبل مدوِّني العهد القديم. والدليل السافر على هذا التزييف أن ينسب إلى داود القول: "أَيِّدْ يا اللهُ هذا الذي فعلته لنا من هيكلك فوقَ أورشليم لك تقدِّمُ ملوك هدايا". ولم يكن الهيكل قد بني بعد. ويمكن أن يكون التزوير قد عبث بنصِّ المزمور كله، لكننا نتوقف بشكل خاص عند هذا النص:

"غَنُّوا للهِ رَنِّموا لاسمه. أعدُّوا طريقاً للراكبِ في القفار باسمِهِ ياه واهتفوا أمامه. أبو اليتامى وقاضي الأرامل اللهُ في مسكن قدسِه. اللهُ مُسكن المتوحدين في بيت. مخرجُ الأسرى إلى فلاح. إنما المتمردون يسكنون الرمضاء" [مز68].

طبعاً يثيرُ هذا النص على قِصَرِهِ إشكاليات ليست قليلة، ويتضمن ما تبدو معطيات مهمّة. فليس منطقياً أن يتكلم داود عن القفار إذا كان المسرح فلسطين، فلا بُدَّ وأن يكون المسرح الذي خاض فيه داود معاركه الأولى خارج فلسطين، وتحديداً داخل الجزيرة العربية حيث يمكن الحديث عن القفار. والحديث عن الأرامل والمتوحدين والأسرى يرجح أنَّ بني إسرائيل في الفترة التي سبقت صعود داود كانوا قد تعرّضوا لهزائم مريرة. وهذا الاستنتاج يمكن أن نستنتجه من القرآن الكريم أيضاً، حيث يقول تعالى (ألم تَرَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتلُ في سبيلِ اللهِ قال هل عسيتم إن كُتِبَ عليكم القتالُ ألاَّ تقاتلوا قالوا وما لنا ألاَّ نقاتل في سبيل اللهِ وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كُتب عليهم القتال تولَّوا إلاَّ قليلاً منهم واللهُ عليم بالظالمين) (البقرة 246).

إنَّ حديثهم هنا عن إخراجهم من ديارهم وأبنائهم يثير التساؤل حول الديار المقصودة. فما لم تكن مصر التي سعوا للخروج منها، واعتبروا نجاحهم بالخروج نصراً، ولا دليل على ترك أبناء لهم فيها، فلا بُدَّ وأن تكون الأرض الجديدة التي انتقلوا إليها وأقاموا فيها. وهم لا يذكرون أنَّ شيئاً من هذا حدث لهم في فلسطين، بل يتحدثون عن معارك متبادلة كان فيها انتصارات وهزائم، ولكن ليس فيها جلاء. وهذا يعني أنَّ مسرح معارك داود الأولى على الأقل لم يكن في فلسطين.

على أيِّ حال ما يهمّنا وفق مضمون دراستنا هذه هو قوله "أعدوا طريقاً للراكب في القفار باسمه ياه". فإن "ياه" على هذا النحو هو الشكل الأول الذي ظهر فيه الاسم الذي تطوّر إلى يَهْوه. ولكن "ياه" طرحت في البداية، وكما هو واضح من نصِّ المزمور 68 اسماً لله (إلهيم)، وليس اسماً منفصلاً عنه.

في وقت لاحق، فإنّ "ياه" هذه، ستبدو جزءاً من "يَهْوَه". ومن الأمثلة على ذلك نورد ما يلي:

1- يرد في العهد القديم "هو ذا اللهُ خلاصي فاطمئنُ ولا أرتعب لأنَّ ياهَ يَهْوَه قوَّتي وترنيمي وقد صارَ لي خلاصاً" [أشعياء 12/2].

2- كما يرد النص "توكلوا على الربّ إلى الأبد لأنّ في ياهَ الربّ صخر الدهور" [أشعياء 26/4].

وإذا كان اسم (يَهْوَه) يتألف كما يرى الباحثون من المقطعين (ياه) و(هو)، فإنّ أشعياء سيقدم لنا أكثر من مثال على أن الرب هو "هو Hu"، مما يذكرنا باسم الإله (هو قادرن) عند السلت (العناقيين).

يقول أشعياء "أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا (هو)" [أشعياء 41/4].

ويقول "أنتم شهودي يقول الرب وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا أني أنا (هو). قبلي لم يصور إله وبعدي لا يكون" [أشعياء43/10].

ويقول "أنتم شهودي يقول الرب وأنا الله. أيضاً من اليوم أنا (هو) ولا منقذ من يدي. أفعل ومن يرد" [أشعياء 12-43/13].

يبدو أنّ التقليد جمع بين "ياه" و "هو" في (يهوه)، ولكنّ يَهْوَه بات التذكير باسمه يأتي في معرض إثارة الخوف.

لننظر في هذه الأمثلة:

1 - "ليخزوا ويرتاعوا إلى الأبد وليخجلوا ويبيدوا. ويعلموا أن اسمك يَهْوَه وحدك العلي على كل الأرض" [مز 83 -17و18].

2 - "فإنّه هو ذا الذي صنع الجبالَ وخلقَ الريح وأخبر الإنسانَ ما هو فكره الذي يجعل الفجر ظلاماً ويمشي على مشارف الأرض يَهْوَه إله الجنود اسمه" [عاموس 4/13].

3 - "الذي صنع الثريا والجبّار وَيُحوِّل ظلَّ الموتِ صبحاً ويظلم النهار كالليل الذي يدعو مياه البحر ويصبُّها على وجه الأرض يَهْوَه اسمه" [عاموس 5/8].

4 - "والربُّ إلهُ الجنود يَهْوَه اسمه" [هوشع 12/5].

5 - "والسيِّد ربُّ الجنود الذي يمسُّ الأرض فتذوب وينوح الساكنون فيها وتطمو كلها كنهر وتنضب كنيل مصر، الذي بنى في السماء علاليه وأسَّس على الأرض قبَّتَه الذي يدعو مياهَ البحر ويصبُّها على وجهِ الأرض يَهْوَه اسمه" [عاموس 5-9/6].

6 - "لذلك هاءنذا أعرِّفهم هذه المرة أعرِّفهم يدي وجبروتي فيعرفون أن اسمي يَهْوَه" [إرميا6/20].

7 - "ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا ثانية وهو محبوسٌ بعد في دار السجن قائلة: هكذا قال الرب صانعها الربّ مصوِّرها ليثبتها يَهْوَه اسمُهُ" [ارميا 1-33/2].

8 - "هل يصنع الإنسان لنفسه آلهةً وهي ليست آلهة؟ لذلك هاءنذا أعرِّفهم هذه المرّة أعرِّفهم يدي وجبروتي فيعرفون أنّ اسمي يَهْوَه" [ارميا20-16/21].

وواضح أنه في كل هذه النصوص، والتي يفترض أنها تعود إلى فترات متباعدة تُعَدُّ بمئات السنين، فإنّ هناك صيغة هي أشبه ما تكون "بكليشة" تؤكد على أن (اسمه) يَهْوَه. ولا تفسير لهذا الأمر غير أنَّ مدوِّني التوراة من عزرا الوراق وزملائه قد تصرَّفوا من عندهم، بحيث طبعوا النصوص بطابعهم.

إنَّ مقارنةً سريعةً بين "ياه" الراكب في القفار، أبو اليتامى وقاضي الأرامل والمتعالي في مسكن قدسه (في السماء)، ومسكن المتوحِّدين في بيت، ومخرج الأسرى إلى فلاح والذي هو الله، وبين (يهوه) الذي اتخذ الأنبياءُ من اسمه فزاعة تهديد وتخويف، ونموذجاً للقوة العاتية المدمِّرة، يجعلنا واثقين أن "ياه" كان تقليداً داووديا، ينطوي على معنى المحبَّة، أي نفس المعنى الذي مُنح لـ (ي و) الكنعاني الذي كان إله النهر "يم"، أما (يَهْوَه) فقد بدا إلهاً عنيفاً مدمِّراً، وبديلاً لـ "إيل" اللطيف الرحيم، أو الله العلي القدير الرحمن مالك السموات والأرض كما عرفه إبراهيم.

يتناول أرنولد توينبي إشكالية التناقض الهائل بين المفهومين حين يقول "أما المسيحي، فيجد نفسه مكرهاً على اختيار أحد رأيين يبلبل كلاهما فكره ببلبلة مفجعة. فإما أن الله ـ وهو محبَّة ـ لا بُدَّ أنه خلق كوناً ظاهر الفساد، وإما أن يكون خالق الكون إلهاً آخر غير إله المحبّة. ولقد اعتنق الملحد مارسيون في بداية القرن الثاني الميلادي والشاعر بليك في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ـ اعتنق كلاهما ـ الرأي الأخير. إذ قام الحل الذي ذهبا إليه لهذا اللغز المعنوي، على نسبة خلق الكون إلى إله "لا حاب ولا محبوب". فعلى حين يجذب الإله المخلص النفوس بالمحبة، فإنّ الإله الخالق ليس في وسعه إلاّ أن يفرض قانوناً ويوقع عقوبات وحشية على من يخرق هذا القانون شكلاً. وهذا الإله السوداوي المزاج الفارض نفسه سيّداً ـ الذي رأى فيه مارسيون يَهْوَه الموسوي ودعاهُ بليك بـ "يوريزن" Urizen، وأطلق عليه تهكماً "أباً غير كائن" ـ لا بُدَّ أن يكون سيئاً بما فيه الكفاية، إذا كان كفؤاً على أداءِ واجباته بما يتفق ووجهة نظره المحدودة. لكن هذا الإله اشتهر بأنه يفشل في أداء واجباته بكفاءة، ولا بُدَّ أن يُرَدَّ فَشَلُهُ: إما إلى عدم كفايتهِ، أو إلى سوء نيِّته!! ولا شك أنه ليس ثمة علاقة مفهومة ـ أياً كانت بين آثام العالم وآلامه!!" (1).

لا شك أن هذا الذي قاله توينبي، يعكس البلبلة التي يعيشها المسيحي، منذ أن قرّر اعتماد العهد القديم إلى جانب العهد الجديد، دون أن يكون لديه مصدر مثل "القرآن الكريم" يبيِّنُ لَهُ أكثر ما كان فيه بنو إسرائيل يختلفون. حين كنتُ عاكفاً على تدوين هذه الدراسة، وكان جهاز التلفزيون مفتوحاً، دون أن أتابعه، على محطة فلسطين الفضائية، استرقت أذني فجأة اسمين من أسماء الله الحسنى في سورة كان يتلوها القارئ، وقد جاءا متعاقبين، (الضارُّ، النافع).

علينا أن نتصوّر كيف يصل مدلول هذين الاسمين إلى أناس تجتاحهم الدبابات والجرافات الإسرائيلية، وتهدم بيوتهم وتقتلهم وتقتلع أشجارهم، دون أن تكون لديهم الأسلحة التي تمكّنهم من الدفاع عن النفس، ومع ذلك يصمدون.

إنّهم يؤمنون كمسلمين بأنّ ما يحدث هو بإرادة الله، وأنّ صمودهم حتى الاستشهاد يقرِّبهم من الله، وأنّ أيّ أذىً يلحق بهم في الحياة الدنيا، سيكافئهم عليه الله في الآخرة، وأنّ أقصى ما يطمعون به هو محبة ورضى الله. والرضى لا يأتي إلاّ على قاعدة المحبّة. ثم إنهم يدركون، في ضوء ما أخبرهم به القرآن الكريم أنّ هذا الذي يحدث لهم كان لا بُدَّ وأن يحدث، لأنّ اللهَ عزَ وجلَ أنبأهم مسبقاً بحدوثه، كما أنبأهم مسبقاً بالنتيجة النهائية، وبانتصارهم المحتوم، وذلك في قوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسِدُنَّ في الأرض مَرَّتين ولتعلُنَّ عُلُوًّاً كبيراً * فإذا جاءَ وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً * ثم رددنا لكم الكرَّة عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنينَ وجعلناكم أكثر نفيراً * إنْ أحسنتمْ أحسنتمْ لأنفسكم وإنْ أَسَأتُمْ فلها فإذا جاءَ وَعْدُ الآخرةِ ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوهُ أوّلَ مرَّةٍ وليُتَبِّروا ما علَوا تتبيراً * عسى ربكم أن يرحمكم وإنْ عدّتم عدنا وجعلنا جَهَنَّمَ للكافرين حصيراً) (الإسراء8/4).

ولنلاحظ هنا أن الإنسان، وإن كان عليه أن يسلّم بإرادة الله (الضار، النافع)، إلاّ أنه مطلوب منه أيضاً أن يختار، فإن أحسَنَ أحسَنَ لنفسه وإن أساءَ فلها. لكنّ اللهَ هو أيضاً ملجأ المؤمنين، وفي هذه اللحظة عنّ لي أن أنتبه إلى جهاز التلفزيون، فإذا به ينقل صوراً للضحايا في قطاع غزة، وأصوات بعض من يقومون بالإنقاذ تردد "الله ينتقم منهم". ولقد ذكرني هذا التعبير مباشرة بقول أشعياء "لأنَّ ياه يهوه قوتي وترنيمتي" أو قوله "لأنَّ في ياه الرب صخر الدهور"، فما هي هذه الـ "ياه"؟ وما هو معناها الدقيق سواء اعتبرناها اسماً للهِ تعالى كما جاء في المزمور 68 أو "ياه" (يَهْوَه) كما جاء في مواقع أخرى؟.

إنّ التعامل مع اسم (يَهْوَه) من الناحية اللغوية ينطوي منذ البدء على إشكالية دائمة، فالحرف "العبري" الدال على الواو، هو أيضاً الدال على حرفي "ف" و "V". ولا ندري إن كانت هناك دوافع مقصودة وراء التمسُّك بحرف أبجدي واحد للدلالة على ثلاثة أحرف، ذلك أنّ معنى الاسم سيختلف في حالة تبديل نطق للحرف بنطق آخر. ومثل هذا الاختلاف قد يكون مفيداً لديانة تبطنُ شيئاً وتظهر شيئاً آخر. وليس غريباً أن نجد الباحثين يطرحون أول ما يطرحون السؤال: كيفَ يُقْرَأ؟!.

وإذا كان الحرف (V) ليس وارداً في اللغة العربية، مما يجعلنا مجبرين على نطقه (و)، مع أنَّ الحرف الأقرب إليه هو (ف)، إلاّ أنّ معنى (يهفي) باللغة العربية هو (يبيد)، كما أن معنى (يهوي) إذا قلبت الهاء الأخيرة ياءً هو (ينقَضّ). ولكننا نعرف أن حرف الواو (W) موجود في كل اللغات الهندو ـ أوروبية، إلاّ أن التقليد اليهودي على جميع المستويات يحتفظ بصيغة النطق YHVH، وليس YHWH. ولو كانت (الواو) هي المقصودة لوجب أن تسود عند اليهود في العالم، مهما تعددت لغاتهم، ولجرى تثبيت الحرف (و = W) في جميع الحالات.

على كل حال، ففي ضوء ورود (ياه = YH) و(VH) على وجه الاستقلال بوسعنا الانطلاق أولاً من فرضية أن اسم (يهوه) (YHVH) مؤلف من مقطعين، هما (ياه) و(VH).

لقد فُسِّر هذا الاسم حتى الآن على أساس اللغة الآرامية، حيث اعتبرت YH من فعل (كان) وVH = هو.

ولكن لو عدنا إلى اللغة المصرية القديمة، سنجد أن (ف) هي ضمير المفرد الغائب هو، وبإضافة (الهاء) في نهاية الاسم، فلا بُدَّ وأن تكون قراءته هي (ياهُهُ)، وهي تعادل تماماً التعبير التوراتي (ياه يهوه)، فياه يهوه هي ياه الربّ أو ياهه هو أو ياهُهُ، ولا خلاف في المعنى في جميع الحالات. وبالتالي، فإنّ البحث عن المعنى لا بُدَّ وأن يقف عند كلمة "ياه" بالذات. إلاّ أنّ هذا الاستنتاج لا يجب الوقوف عنده كاستنتاج نهائي.

خلال بحثنا عن حلول لفهم هذه المسألة اللغوية المعقدة، استوقفنا قول العلامة مرسيا الياد، جاء فيه "إنّ المثل الأكثر دلالة في معناه، هو الغياب لمصطلح مميّز، في الهندو ـ أوروبية الشائعة الدال على (المقدس). ومن جهة أخرى فإنه يوجد لدينا في الإيرانية واللاتينية والإغريقية مصطلحات قديمة، (في الإيرانية spenta yaozdata (أيضاً Haih weih) في اللاتينية sacer sanctus وفي الإغريقية hagios hdgios" (2).

ذات يوم قال لي زميل كان قد غرق في الدراسات التوراتية، وصدرت له العديد من الكتب في هذا المجال، إنّه توصّل إلى معرفة مصدر اسم (يهوه)، فسألته: وما هو؟ قال: إيران، وما الأصل؟ قال: أهورا مازدا. فلذت بالصمت. يبدو أنّه اعتبر المقطع "أهو" في اسم "أهورا مازدا" هو مصدر اسم (ياهو) أو (يَهْوَه)، ولكن لو قال Haih weih لكان الأمر مختلفاً. فهنا نجد حقاً ما يمكن أن يعتبر فراشاً لاسم (يهوه). ولكن، هل هذا الفراش في أصله آرامي أم إيراني. في ضوء ما نعرف عن اعتماد الملوك الفرس للآرامية كلغة رسمية في إمبراطوريتهم؟. إن إيراد مرسيا الياد لتعبيرين نقلاً عن المصادر الإيرانية يرجح أن التعبير الأول كان فارسياً والثاني آرامياً. ولكن، مهما كان الحال فنحن أمام تأكيد على التركيب اللغوي الثنائي لاسم (يهوه) حيث (ياه) تكافئ Haih وVH تكافئ weih ومن المهم هنا أن الكلمة الإيرانية أو الآرامية بدأت بحرف W وليس V مما يرجح أن الاسم المنطوق بصيغة YHVH ليس آرامياً. وأما المصدر الأصلي الأول لهذا التعبير، فنرجح ألاّ يكون آرامياً ولا إيرانياً، بل يهودياً دخل التراث الإيراني عبر اللغة الدارجة في حينه وهي الآرامية.

إذا قبلنا بهذا المصدر، لا بُدَّ وأن نعترف بأنّ اسم (يهوه) هو ليس فقط اسماً مركباً من لفظتين، ولكنه أيضاً مختصر عنهما. فسِرُّ (ياه) يجب أن نبحث عنه في كلمة Haih وسرُّ VH يجب أن نبحث عنه في كلمة weih.

ويبدو أننا هنا، سنلجأ مرةً أخرى إلى تناول المقطع الثاني، قبل أن نحاول معرفة كنه المقطع الأول، مع العلم أننا حتى هذه المرحلة من الدراسة أجّلنا ما يقولُهُ المعجم العربي.

على كل حال يمكننا الافتراض أن (الهاء) تعبّر عن ضمير الغائب، وهذا هو المعمول به في العربية والكنعانية والمصرية القديمة. فماذا يمكن للمقطع وي (wei) في كلمة (wei/h) عندئذ أن يعني؟!.

لا بُدَّ وأن حرف الـ (e) في هذه الكلمة مبدل من الهمزة، فهي أصلاً (وأي). وفي هذه الحالة، ماذا تعني هذه الكلمة في اللغات العربية القديمة، ومن ثم في العربية الفصحى؟

وَ ءْ wa في اللغة المصرية القديمة: طريق (3).

وَ أ: في اللغة المصرية القديمة "عقدة سحرية". العربية وأى = ربط (4)، ولا زال "فك المربوط" شغل سحرة هذه الأيام الشاغل.

أ و aw (مقلوب و أ) هي في المصرية "طول، امتداد". تقابلها العربية "وأي" التي تفيد معنى السعة والكبر والضخامة والامتداد (5).

إ و iw ، عالجها د. عبد المحسن بكير في كتابه "قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي" وقال إن صيغة (إوف) تستعمل في القَسَم. ومن هنا، فهي تحمل معنى اليقينية والاستمرار في المستقبل. وهذا ما يذكره غاردنر عند استعمال إو iw في القسم. وفي معجم بدج هناك معانٍ لـ: "إو (ي)" منها: (1) بالتأكيد، يقيناً. (2) أخذ العهد، أو تعهُّد، وعد، ميثاق، وهذا ما نجده في العربية مادة "وأى" (مقلوب أوى) بالضبط. ويوضح استعمال "إو iw" في القسم أو التوكيد (العربية "وأي") ورودها في جمل كثيرة بهذه الدلالة مع تطور عبر العصور. ويقول علي فهمي خشيم إنّ "الوأيَ" هو الوعد. وقد وأى وأياً = وَعَدَ. وفي حديث عمر رضي الله عنه: (من وأى لامرئ بوأي فليفِ به). وأصل الوأي الوعد الذي يوثقه الرجل على نفسه ويعزم على الوفاء به. وقال الليث: "يقالُ، وأيت ذلك به على نفسي وأياً. والأمر (أه)، والاثنين (أياه) والجمع (أو). تقول (أه) وتسكت و(تأه) وتسكت.. وإن مررت قلت (إ) بما وعدت، (إيا) بما وعدتما" (6).

واضحٌ إذن أنّ weih التي وردتنا على أنها إيرانية، وقلنا إنها قد تكون آرامية، هي من الأصل iw أو iwf في المصرية القديمة، وهي ذاتها (وأي) العربية. ولكن أيضاً "إوْفِ" العربية بالأمر تماماً كأمها المصرية iwf، وقد نختصرها في النطق، فنقول للآخر "فِ" بوعدك أو قسَمِك تماماً مثل فه VH في اسم (يهوه). وبالطبع، فإن المصدر هو "وفا"، أي وفا بوعده.

نعتقد أنّ وضوح المعنى على هذا النحو من شأنه أن يُحَيِّدَ ذلك التفسير المستمد من الآرامية أو حتى من العبرية نفسها والذي يعتبر المقطع VH في اسم (يهوه) هو الضمير من الآرامية أو حتى من العبرية نفسها والذي يعتبر المقطع VH في اسم (يهوه) هو الضمير (هو). وكم هو عظيم ونحن نصل إلى هذا الاستنتاج أن نتذكر قوله تعالى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم وإياي فارهبون) (البقرة40).

إن الوصول إلى هذا المعنى بالذات، هو الذي يُفسِّرُ على وجه التحديد، لماذا يتكرر تذكير الإسرائيليين بأن الرب اسمه يَهْوَه. فالمقصود، ليس التذكير باسمه هو، ولكن التذكير بالوعد أو (الوأي) الذي قطع معه، والميثاق الذي أُبرم، وتخويفهم من الجزاء الناجم عن نقضهم لهذا العهد. وقد حكم القرآن الكريم عليهم بأنهم نقضوا العهد أو الميثاق، وذلك في قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوةٍ

واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجلَ بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانُكم إنْ كنتم مؤمنين) (البقرة 93).

ويبدو أنَّ إدراكَ اليهود بينهم وبين أنفسهم لهذه الحقيقة، جعل اسم (يهوه) بما فيه من تذكير بالميثاق المُنتهك، يشكل بالنسبة لهم نوعاً من الوسواس المرضي المستمر. يقول د. فؤاد حسنين "إن الإسرائيلي يقدس "الاسم"، وكثيراً ما نجده في العهد القديم وبخاصة اسم "يهوه" يردُ مستقلاً عن الإله ذاته. كذلك نجده أحياناً يذكر كالمخاطب أو الشخص الثاني المخيف للإله، كما نجد اسم يهوه يرد كملاك يرسله يهوه، فهو روحه. واسم يهوه في العهد القديم له وظائف خاصة تتجلى فيها قوته، حيث نجدُهُ لا يشير إلى يَهْوَه فقط، بل هو موضوع النداء أو المنادى والمساعد والمدمِّر، وحيث ينطق باسم يهوه فهو حاضر. لذلك ليس المعبد لأجل يهوه بل لاسمه، أعني أن يَهْوَه يترك اسمه يقطن هذا البيت. لذلك حرص الإسرائيلي على معرفة اسم يهوه ليستخدمه للتغلب على عَدُوِّه لكن مُحرَّم عليه استخدامه للإضرار بالناس عامة، لذلك يتجنب الإسرائيلي المعاصر النطق حتى باسمه" (7).

لا نفهم هنا التناقض الواضح في قوله "لكن محرَّم عليه استخدامه للإضرار بالناس عامة"، بينما نعرف عن الإفساد اليهودي في الأرض ما نعرف. ولكن يبدو أنّ اليهودي باستبعاد اسم (يهوه) يعتقد أنه يكون حراً في فعل ما يفعل، طالما أنّ ما يفعل لا يكون باسمه. فبنوع من "التطنيش" عن تذكر اسم يهوه ومدلوله يجيز اليهودي لنفسه انتهاك ميثاقه، ولذلك، فإنّ تجنب النطق باسمه ليس دلالة على درجة عالية في الاحترام والتقديس، بل وسيلة للتفلت. فحيث يغيب اسم يهوه يغيب الميثاق (الوأي) المعقود مع الله.

ومن الغريب أن نجد بعض العلماء، يجعلونَ من عقدة اليهود النفسية تحت تأثير نقضهم للميثاق، عقدة للخالق نفسه أو في الخالق نفسه. وكمثال على هذا المنطق العجيب، وإضافة إلى ما أوردناه سابقاً عن توينبي، نورد ما يقوله يونغ، من أنه "في الوقت الذي كتب فيه سفر أيوب كان ثمة شواهد كثيرة على تناقض في صورة "يهوه"، وهي صورة لإله لا يعرف الاعتدال في انفعالاته، ويكابد من الآلام أشدها بسبب افتقاره لهذا الاعتدال، ويسلم هو نفسه بأنّ الغضب والغيرة يأكلانه أكلاً، ومعرفته لهذه الحقيقة تؤلمه أيما إيلام، فقد جمع في نفسه البصيرة إلى الغباء، والرحمة إلى الشدة، والقدرة الخلاقة إلى روح التخريب. فقد كان كل شيء ممكناً، وما كان لصفة من صفاته أن تقف عقبة في وجه الأخرى. ومن كانت هذه حاله، فإمّا ألاّ تكون لديه واعية مفكرة، أو تكون قدرته على التفكير ضعيفة جداً، أو ظاهرة شبه عرضية، وهذه حال لا يسعنا إلاّ أن نصفها بالحياد الأخلاقي" (8).

مثل هذا التجذيف على رمز يفترض أنه يمثل الذات الإلهية هو أمر ليس مقبولاً بالطبع، فتخبطات العباد لا يتحملها المعبود. ولكن علينا أن نعترف بأنّ لدى يونغ وفرويد وتوينبي وغيرهم، أن يتعاملوا مع (يَهْوَه) بغير صيغة رؤيتنا نحن للهِ عزّ وجلّ، والسبب يكمن في التوراة نفسها، فالتوراة مثلاً تقول "لأنه مَنْ في السماءِ يعادل الرب. من يشبه الرب بين أبناء الله. إله مهوب جداً في مؤامرة القديسين ومخوف عند جميع

الذين حوله" (مزمور 89). ومن مثل هذا النص نفهم أن الرب (يَهْوَه) هو واحد من أبناء الله، ولكن ما يُميِّزه أنه مخوف عند جميع الذين حوله هناك في السماء. وبالنسبة لكاتب مسيحي غربي مثلاً، لا يميِّز بين وصف المسيح بالرب بمعنى معلم في السريانية، وبين اعتباره ربَّاً بشكل مطلق، وابناً لله، أو واحداً من الأقانيم الثلاثة التي تشكل معاً إلهاً واحداً، فإنّ (يهوه) يبدو (ربّاً) أو (مسيحاً) من نوع مختلف!.

إنها مشكلة في المفاهيم صنعها اليهود وأدخلوا داءها حتى إلى المسيحية وهو ما نكشفه ببساطة من وقائع عديدة في التوراة منها قول إشعياء النبي "لأنه يُولدُ لنا ولد ونُعطى اِبناً وتكون الرياسة على كتفيهِ ويُدعى اسمُهُ عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام. لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسيّ داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد. وغيرةُ رب الجنود تصنعُ هذا" [أشعياء 6-9/7].

فهم إذن يريدون أن يولد من بينهم إله قدير وأب أبدي وخالد، يكون بديلاً ليهوه أو شريكاً له، مراهنين على غيرة يَهْوَه، مستذكرين فقط من ميثاقه (وأيه) وعده المزعوم لهم، وأما واجباتهم فيضعونها جانباً.

ننتقل الآن إلى الاستحقاق الثاني في اسم (يهوه) وهو المقطع الأول (ي هـ)، ونعود إلى التذكير بالصيغة الفارسية (Haih) (هيه).

من فسَّروا هذا الاسم على ضوء اللغة العبرية أو الآرامية، استنبطوه من فعل الكينونة ..... هيا.

ولكن إذا كان هذا الاسم قد أُعطي لموسى، فقد رأى فيه البعض قرينة تؤيد مصرية "يهوه" (9)، ووجب تفسير الصيغة "أهيا أشير أهيا" على أساس مصرية هذا الاسم، وليس آراميته التي قادتنا إلى فعل الكينونة. ثم أمامنا أيضاً الصيغة "ياه"، وقد سبق وأوضحنا أنها الأساس. ومع ذلك، فإن صيغة "أهيا أشير أهيا" هي ترجمة آرامية على الأقل بالنسبة لكلمة أشير لعبارة أصلية، كما أنه سبق أن أثبتنا أنّ هذا الاسم لم يُعْطَ لموسى، على الأقل في المرحلة الأولى، بدلالة تضمين (الوأي = الميثاق) في اسم (يهوه)، وهذا الميثاق جاء بعد الخروج.

من الممكن أن تكون الهاء في بداية الصيغة (Haih) هي أل التعريف العبرية المعروفة، وبالتالي تكون الكلمة التي نحن إزاءها هي ببساطة (ال - يه). ونحن نعرف أن يه ...... في العبرية هي اختصار لكلمة الرب. وهذا يؤكد بشكل جدي المصدر اليهودي للعبارة الفارسية، وتجعل تحليلنا السابق للمقطع WH يكتسب جدّية أكبر. ولكن إذا كان حرف الـ a في Haih ليس مقحماً بل أصلياً، أمكن التعامل مع المقطع (ها) على أنه يعني (يا) في اللغة المصرية القديمة، حيث (ها) للنداء في المصرية. وبالطبع، فإنّ (يا) في العربية هي حرف لنداء البعيد، حقيقة أو حكماً. وقد ينادى به القريب توكيداً. ويمكن إضمار هذا الحرف في النداء، فنقول "فلان" وقصدنا "يا فلان"، ويمكن أن يكون هذا قد حدث في صيغة Haih، أضمرت Ha وبقيت ih. وهذا الاستنتاج مهم لتقدير أن كلمة (يا/ هو) التي نعني بها (يا الله) هي كلمة أخرى مختلفة مبنىً ومعنىً عن كلمة (يَهْوَه) رغم التشابه الشديد بينهما (*).

إنّ (يه) أو (ياه) أو (يا) بإضمار الهاء، هي كلمة كان لها مدلولها الخاص عند العبريين، وربما أيضاً عند المصريين القدماء والكنعانيين. ولكنها عند الكنعانيين أظهر بدلالة وقوعها في أسماء عدد كبير من المواقع الجغرافية، مثل: يا/جور، ويا/زور، ويا/سور، ويا/صيد، ويا/فا، ويا/فة، ويا/قوق، ويا/لو، ويا/نوح، ويا/نون. وقد تأتي (يا) في أسماء بعض الملوك الكنعانيين مثل ياطون ملك الصيدونيين أواسط الألف الأول ق.م.

إننا في جميع هذه الأسماء الكنعانية لا نستطيع اعتبار المقطع (يا) هو أداة النداء المعتادة (يا). فإذا لم تكن إشارة إلى إله محدد (يا)، وقد يكون هو نفسه الإله السومري "إيا" أو الإله الكنعاني (ي و = يم) كما أوردنا سابقاً، فإنّ هذه اللفظة يمكن أن تكون مكافئة لكلمات تدلّ على مواضع الاستقرار مثل "بيت" و"كفر" و"قرية" و"خربة" و"مدينة" و"بلدة" و"وطيرة"..الخ، وفي هذه الحالة قد تكون تحويراً للكلمة السومرية "إي" بمعنى "بيت" والتي جاء منها اسم "أي جال" الذي تطور إلى "هيكل" في العبرية والعربية، فكأن الـ "هَيْ" مثل "أيْ"، أو العربية "أيَّا" بمعنى أقام، وبإسقاط الألف من "أيّا" وتخفيفها، فإنّ "يا" قد تعني "مقام". فإذا اقترنت بضمير الغائب وهو الهاء فإنّ "ياه" أو "يه" يمكن أن تعني مقامُه، أي "مسكن قدسه" بالمفهوم التوراتي. فتكون الـ "يه" دلالة ليس على اسم الله، ولكن على "مسكن قدسه"، تماماً مثلما أعطي فرعون اسم بيته (بر ـ عو)، فصار اسماً له.

حين راجعنا هذه الأسماء في قائمة المدن والبلدات الفلسطينية، خطر لنا أن ندقق في أسماء المستعمرات اليهودية، فتبيّن أنه رغم استعارة اليهود لكل الأسماء تقريباً من الكنعانيين أنهم لم يسمُّوا أياً من مستعمراتهم باسم يبدأ بالمقطع "يا"، ولا بُدَّ وأن يكون لهذا الامتناع دلالته الدينية عندهم. ولكن هذا الامتناع عندهم قد يكشف عن دلالة دينية عندنا، وهي أن (يا = ياه) كان معتمداً أصلاً عند الكنعانيين.

وقد يسهم في ترجيح معنى المقام أو مكان الإقامة أو المسكن المقدس أو السماوي أنّ العرب تقول "يأيأ. يأيأةً ويأياءً، قال للقوم يأيأ ليجتمعوا، وبالقوم دعاهم لضيافة أو غيرها". ومن طرائف اللغة العربية أنه بالنسبة لحرف الياء بالذات يقال "ييَّيت ياءً حسنة: كتبتها"، فلماذا هي هذه الخاصية الفريدة في الياء؟.

لقد اعتبر ديلتش أن "يا" ia التي نجدها في أسماء الأشخاص الذين اعتبرهم من أصل كنعاني في زمن حمورابي، هي صيغة الماضي القديمة للغائب. وأورد على سبيل المثال أسماء مثل "يا مليك ـ ايلو" و "يا ربي ـ ايلو" و "ياكباني ـ إيلو"، وكذلك "يا شوب ايلو" يقابلها "بعل ـ يا ـ شوبو" من اللغة الفينيقية (10). ولكننا لم نستطع أن نقدر كيف يمكن أن نقرأ هذه الأسماء على اعتبار ia صيغة الماضي للغائب، ولماذا تحقق في اسم مثل "يا في ايلو" التطابق مع اسم (يهوه)؟ وكيف يمكن أن نفسر أسماء البلدات الفلسطينية على أساس هذا التحديد لدلالة اللفظ (يا)؟.

لكنّ مقاربة ديلتش لمعنى هذا المقطع ووظيفته، تجعلنا نفكّر في علاقة ممكنة بين (يا/ ياه) وبين (إيَّاهُ). وفي هذه الحالة نستحضرُ قول الزجاج في تفسير (كل شيء هالك إلاّ وجهه) (القصص 88) ولا أراهُ إلاّ "إيَّاهُ"

أي إلاّ ذاته. فكلمة وجه هنا تقابل "الذات" الإلهيّة بكلِّ جلالها الأعظم وعزَّتها الكبرى" (11). فإذا كانت (ياهَ يهوه) هي (إيَّاه) أي (ذاته)، فعندئذ سينجلي غموض هذه الكلمة تماماً، وإن كان من الصعب علينا أن نتصوّر أن الناس في ذلك الزمن، سواءً العبريين أو الكنعانيين أو غيرهم كان يمكن أن يفكروا على هذا النحو. لكننا إذا افترضنا الدلالة المقدّسة لـ (يا) الكنعانية في بداية أسماء المواقع، فمن الممكن أن نفترض بأنّ أصحاب ديانة (يهوه) لجأوا إلى كلمة (ياهُ) أي ياهُهُ هُوَ مشيرين إلى السماء، لاجئين إلى ضمير الغائب للإشارة إلى إلهٍ غير مرئي في مقابل آلهة الكنعانيين المجسّمة في معابدهم. وبالتالي باتت (الهاء) جزءاً لا بُدَّ منه في الاسم فلا يكفي أن نقول (يا) لأنها تعني التعميم، إذ تخصّ آلهة متعددة، أما إذا قيل (ياهُ) فقد قُصِدَ بها إله مُحَدَّد هو هو (Hu). ولكن من الواضح والمؤكد أن المفهوم لن يكتمل إلاّ إذا قلنا إنه (الله). ذلك أنّ هو Hu يمكن الدلالة بها على أيِّ إله، كما رأينا في اسم الإله السلتي العناقي هو قادرن، والذي مثّل عنصر الشمس. أما (يَهْوَه) فلا يمكن أن يُعَدَّ رباً إلاّ لبني إسرائيل أو لليهود، لأنّ اسمه كما رأينا يتضمن ذكر الميثاق (الوأي) الذي أبرمه معهم ونقضوه وتمردوا عليه، وبالتالي فهم الملاحقون بخطيئتهم، ومثل هذا الميثاق المبرم مع المسيحيين والمسلمين، كانت صورته مختلفة، فالمسيح أخذ العهد من حواريِّيه، ومحمد أخذ البيعة تحت الشجرة، وكانت "يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم"، أي أنه صادق وآزر، ومثلما وَعَدَ عيسى بن مريم بجعل الذين آمنوا معه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وهذا ما حدث، فقد وعد المسلمين بفتح مبين، وهذا ما حدث أيضاً. وإذا كان نفوذ اليهود اليوم في العالم المسيحي وإفسادهم وغزوهم لفلسطين يمثل تهديداً للإسلام والمسيحية، إلاّ أن حصيلته لن تكون سوى الخذلان لهم.

إنّ هذه المعطيات هي التي قد تفسّر لنا لماذا هو (يهوه) إله اليهود وحدهم، ولماذا سكتت الديانتان المسيحية والإسلامية عن اعتماد ألوهيته أو نكران هذه الألوهية؟، ولماذا ميّز القرآن الكريم بين النبيين الذين أسلموا وأرسلوا إلى بني إسرائيل وبين الذين هادوا. فالذي هادَ لن يصير مسلماً إلاّ إذا آمن بأنّ اللهَ هو ربه ورب العالمين، والتزم بإطاعة أوامر اللهِ عزّ وجلّ ونواهيه، مثلما حدّدها لهم من خلال خاتم المرسلين.

يقول تعالى (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تَهْتَدوا قلْ بلْ ملّة إبراهيم حنيفاً وما كانَ من المشركين * قولوا آمنا باللهِ وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيل واسحقَ ويعقوبَ والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيُّون من ربِّهم لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمون * فإنْ آمنوا بمثلِ ما آمنتمْ به فقدْ اهتدوا وإنْ تَوَلَّوا فإنَّما همْ في شقاقٍ فسَيَكْفيكَهُم اللهُ وهوَ السميعُ العليم * صِبْغةُ اللهِ وَمَنْ أحسنُ منَ اللهِ صِبْغةً ونحنُ له عابدون * قلْ أتحاجونَنا في اللهِ وهوَ ربُّنا وربُّكمْ ولنا أعمالنا ولكمْ أعمالكم ونحنُ لهُ مخْلِصون) (البقرة 135-139).

ولنلاحظ أنه في الآية الأخيرة، فإنَّ اللهَ عزّ وجلّ قد حسم ما يمكن أن يثار من جَدَلٍ حول ثنائية التوراة بين الله "إيل" و "الربّ يهوه"، وهي للأسف ثنائية دخلت إلى المسيحية أيضاً بشكل أو بآخر لدى بعض

طوائفها، و "الله" وحده هو ربُّ الجميع. ويوم يلتقي الجميع على الإيمان به وحده يكونون جميعاً على دينٍ واحد.

هل حسمنا الأمر نهائياً في معنى اسم يَهْوَه؟

إنَّ المعنى الذي وصلنا إليه يعني أنَّ مدلول هذا الاسم هو "إيَّاه إوفِ" أو "إياهُ فِهْ"، وبالاختصار (إياه) يمكن أن تصير (يَهُ فِه) أو (يَهُ وِه). ويبدو أنّ التقليد في تسكين هاء (يَهُ) قُصِدَ به التفخيم أو الدلالة على التعظيم، لكنّ هذا المقطع حين يدخل في الأسماء الشخصية يتحول إلى (يهو)، كما في اسم "يهو شافاط" مثلاً أي "يهو قاض". ولكن لو أعدنا (يهو) في هذه الحالة إلى أصلها (إياهُ)، فهل يستقيمُ الاسم (إيَّاهُ قاضٍ)؟.

يبدو أن التفكير بالاسم في صيغته الأخيرة يمكن أن يعيدنا إلى المربَّع الأول، خاصة إذا وضعنا كلمة (قاضي) محل كلمة (قاض)، إذ سينقلب معنى الاسم عندئذ رأساً على عقب! ولكن لو سكنَّا الهاء في (إيَّاهُ) لتصير (إيَّاهْ) هي اسم الله، وليس ذاتَهُ أو مسكنَ قدسه أو وجهه. ولو فكرنا أن نضع إله الأنهار الكنعاني (ي و) = (يم) والذي كافأه البعض بيهوه أو حتى اعتبروه هو، لصار الاسم (يو/ قاضي). وفي هذه الحالة ستختفي المشكلة من جانبها اللغوي لكنها ستظل قائمة من الجانب اللاهوتي. ولنتذكر أن النقطة التي بدأنا منها، أي ما جاء في المزمور 68 هو أن (ياه) اعتبرت اسماً ليهوه، ولكن اختلّ هذا المفهوم حين جرى الحديث عن (ياه يهوه) مما قاد إلى تشكيل اسم ثانٍ مركب.

ثمة مقاربة لغوية أخرى يمكن أن نتوقف عندها في هذا السياق ونحن نتأمل كلمة "Haih"، فإذا كانت هذه الكلمة فارسية، فهي من اللغة الآرية (الهندو - أوروبية). ويمكن أن تقارن عندئذ بالكلمة الإنلكيزية Hie التي تعني أسرع أو استعجل أو عجِّل. وهي بهذا المعنى تتطابق ببساطة مع الكلمة العربية "هيّا". فإن أخذنا بهذا المعنى أمكن تفسير عبارة (Haih weih) بأنها تعني هيا أوفِ (بوعدك أو ميثاقك أو ؟؟؟) ويكون اسم "يَهْوَه" اختصاراً لهذا التعبير متضمناً لهذا المعنى.

* * *

هوامش (7) ياه والرأي في يهوه:

(1): أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، جـ4، ص142.

(2): مرسيا الياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج1، ص238.

(3): علي فهمي خشيم، م.س، ص542.

(4): نفس المصدر، ص735.

(5): نفس المصدر، ص670.

(6): نفس المصدر، ص636، ص637.

(7): فؤاد حسنين، م.س، ص85، ص86.

(8): ك. غ. يونغ، الإله اليهودي، ص11.

(9): د. فؤاد حسنين، م.س، ص17.

(*) : من الطريف هنا أن نشير إلى أنه في رسالة وجهها السلطان عبد الحميد إلى الشيخ أبي الشامات نجده يروِّسها بـ "يا هو" وتأتي بعدها البسملة. انظر كتاب: "حكومة العالم الخفية" تأليف شيريب سبيريدوفيتش، دار النفائس، بيروت، ص22.

(10): ديلتش، م.س، ص98، ص90.

(11): علي فهمي خشيم، م.س، ص491.

* * *

(8)

محاولة للفهم من منظور عربي

يقول د. فؤاد حسنين علي، إنه "إذا عرضنا لفظ "يَهْوَه" في صيغه المختلفة على مختلف اللغات الساميّة، وجدنا العربية أغناها وأصدقها تعبيراً عن جميع هذه المعاني وتلك الصفات التي يتصف بها هذا المعبود. ففي العربية نجد "هوى يهوي هوياناً" إذا سقط بعضهم في إثر بعض. و"هوت الطعنة" فتحت فاها بالدم. و"هوت العقاب تهوي هويًّا" إذا انقضت على صيدٍ أو غيره. و"الأهواء" التناول باليد والضرب، و"هوت الريح" هبَّت، و"الهوى" بفتح الهاء = إلى أسفل وبضمِّها = إلى فوق. "يهوى" = يسرع و "هاوى" سار سيراً شديداً. والهوى هوى النفس. و"تهوَى إليهم" ترتفع. و"هوى الرجل" مات، و"الهاوية" اسم من أسماء جهنم و"فأمّه هاوية" مسكنه جنهم ومستقره بالنار" (1).

لا نظنّ أنّنا من خلال جمع هذا الكوكتيل اللغوي بدءاً من الهويان وحتى الهاوية يمكن أن نصل إلى نتيجة مقبولة في فهم المدلول العربي للاسم (يَهْوَه) أو ما يمكن أن يكون مدلولاً عربياً لهذا الاسم. ودعونا هنا نعودُ إلى التذكير بالصيغة التي نسبها مرسيا إلياد إلى الفرس، وتبيّن لنا أصلها العبري، وهي (Haih weih) والتي كانت محور نقاشنا في الفصل السابق. فمن الأفضل أن نتخذ منها أساساً لمحاكمة لغوية على أساس اللغة العربية هذه المرة.

وتعالوا نستعرض الاحتمالات:

1 ـ "هَهْ: اسم صوتٍ للتذكرة والوعيد. و(هَاءْ) وعيد (2). ترد أيضاً بصيغة هوه وهَاه.

نعتقد أن الاقتران بين "الوعيد" وبين "الوأي" أو "الميثاق" الذي نقض هو أمرٌ وارد ومنطقي.

2 ـ هاءَ بنفسهِ إلى المعالي يَهُوءُ هَوْءاً رفعها. وهاءَهُ بخير أو شر وهاء به خيراً أو شرّاً أزنَّه به (3).

ونظن أن الصيغة (هائه) وهي بالضبط (Haih) ستعني هنا معنى العلو والسموّ والارتفاع. وأما في معنى (هاءَهُ بخير أو شر)، فلنعد إلى (الضار النافع) من أسماء الله الحسنى.

3 ـ هاءَ بفلانٍ فَرِحَ، وهاءَ يَهُوءُ هيئةً حَسَنة. أي صارَ إليها. وهوئَ إليهِ يَهْوَأُ هَوْءَاً هَمَّ (4).

ويمكن ربط هذه المعاني جميعاً باسم وصفات (يَهْوَه).

4 ـ هاءَ كلمةٌ تلبية مبنية على الفتح. قال الشاعر:

لا بلْ يُجيبُكَ حينَ تَدْعو باسْمِهِ فَيَقولُ هاءَ وَطالما لبَّى

ويقولون لا هاءَ اللهِ ذا بالمدِّ أي لا واللهِ أو الأفصح لا هاللهِ ذا بترك المدِّ أو المدُّ لحنٌ والأصل لا واللهِ أقسمُ به فأدخل اسم الله بين ها وذا (5). إن "هاءَ" هنا قد تعني (المجيب).

5 ـ الهَوْءُ مصدر والهمَّة والرأي الماضي ووقع في هوئي وهوئي أي ظنِّي فإذا أخذنا بمعنى الهمَّة والرأي الماضي، بدا الأمرُ مرتبطاً بالوأي أي الميثاق.

6 ـ هاءَ الرجلُ يهيءُ وَيَهاءُ وَهَيُؤَ هيأةً وهياءَة صار حسن الهيئة. وهاءَ إليهِ يهاءُ هِيْئةً اشتاق. وللأمرِ يَهاءُ وَيَهيءُ هيأةً في الأمرِ مهايأةً وافقه. وقد تبدل الهمزةُ ياءً للتخفيف. فيقال هايئتُهُ مهاياةً/ وتهَّياُ للأمرِ تهيَّؤاً استعدَّ وأخذ له أهبته وتفرغ له. وتهايأوا على الأمرِ تهايؤا توافقوا. الهيء والهيءُ الدعاءُ إلى الطعامِ والشراب. الهيءُ والهيِيءُ الحسنُ الهيئة. والمهيأةُ والمهاياةُ على الإبدال مصدراً هاياً وهايا. وشرعاً عبارة عن قسمة المنافع على التعاقب والتناوب (6).

وبوسع القارئ أن يختار هنا من المعاني ما يتفق مع ربوبية يَهْوَة ومع قصة الوأي (الميثاق).

7 ـ هوو ـ الهَوُّ الجانب والكوّة. والهواءَةُ الوهدةُ الغامضةُ من الأرض، والهُوَّة ما انهبط من الأرض أو الوهدة الغامضة منها، والجو بين السماء والأرض.

لنتذكر هنا احتمالات الصلة مع الإله المصري ش و (= ج و - هواء). وقد تقلب (جو) في العربية إلى (يو).

8 ـ هَوَتْ الطعنةُ تهوي هُوِّياً. والشيءُ سقط. والشيء هَوِيَّاً وهُوِيَّاً وَهَوياناً سقط من عُلُوٍ إلى أسفل. أو الهَوِيُّ (بالفتح) للإصعاد والهُوِيُّ (بالضم) للانحدار. ويقالُ هَوَى الرجُلُ هَوِيَّاً صعد، وهَوَى هُوِيَّاً انحدرَ. وَهَوَى الرجل الجَبَلَ هُوَّةً صعدهُ وارتفع.

9 ـ هَوِيَهُ يهواهُ أحبَّهُ واشتهاهُ، فهو هَوٍ. هاواهُ مهاواةً وَهِوَاءً داراهُ. ويقال هاوأهُ بالهمز وفلاناً لاحَّهُ. وفلان اشتدَّ سيره. وأهوى الشيءُ إهواءً سقط. ويدي له امتدت وارتفعت. ويقال أهوى إليه بيده ليأخذه أي مَدَّ يَدَهُ إليه. وانهوى الشيءُ انهواءً سقط. وكذا إذا سقط من علوٍ إلى سفلٍ كهوى.

ومن الملائم هنا التذكير برمزية اليد عند اليهود ونظرتهم الخاصة إليها. وأما المعاني المتعلقة بالسقوط، فهي تذكرنا بمغزى تذكير الأنبياء باسم يَهْوَه في معرض الترهيب.

10 ـ استهوى الشيءُ فلاناً أعجبه وشغل هواه، وفلاناً أثَّرَ فيه حتى جعله يتقبل رأيه دون أن يقوم لديه الدليل اليقيني على صحته. وفي التنزيل العزيز "كالَّذي استَهْوَتهُ الشياطين".

11 ـ الهَوَى الميلُ والعشقُ ويكون في الخير والشر. وميل النفس إلى الشهوة. والمَهْوِيّ محموداً كان أو مذموماً، ثم غلب على غير المحمود. وفي التنزيل العزيز "أفرأيت من اتَّخذَ إلهَهُ هواهُ"، وفي "ولا تتَّبِع الهوى" والمهوي (ج أهواء) وفي التنزيل (ولا تتَّبعوا أهواءَ قومٍ قد ضَلّوا". ومنه فلانٌ من أهل الأهواء لمن زاغ عن الطريقة المثلى. ويُسمَّى أهلُ الأهواء بأهلِ البدع. وقيل في التعريفات: الهَوَى ميلانُ النفس إلى ما تستلذهُ من الشهوات من غير داعية الشرع. وقيل سُمِّي الهوى هوىً لأنَّهُ يهوي بصاحبه إلى النار. ولا يستعمل في الغالب إلاّ فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه. وإذا أضفتهُ إلى ياء المتكلم قلت هوايَ. وهذيلُ تقول هَوَيَّ. والهويُّ صاحب الهوى والأنثى هَوِيَّة. والأهوى اسمُ تفضيلٍ من هَوِيَ. تقولُ هذا الشيءُ أهوى إليَّ من كذا أي أحبُّ إلي. والأُهْوِيَّةُ: الجوُّ والوهدة العميقة (7).

12 ـ الهاوي ذو الهواء. والهاويةُ الجوُّ والثاكلة. وهاوية من أسماء جهنم.

13 ـ الهواءُ الجوُّ وكل فارغٍ والجبان (ج) أهوية. وفي سورة إبراهيم "وأفئدتهم هواء"، يقالُ إنه لا عقول لهم.

14 ـ تهوَّه فلان تأوَّه وتفجَّع، والهاهةُ الآهة. والهواهي اللغو من القول والأباطيل، والهواهيةُ الجبان، والهوهُ (من الرجال) الهوهاء، والهوهاءُ الضعيفُ الفؤاد الجبان.

15 ـ هيا من حروف النداء، وأصلها أيا.

16 ـ هيَّ اسم فعل بمعنى أسرع.

17 ـ يَهَهْ يقول الراعي من بعيد لصاحبه ياه ياه أي (أقْبِلْ).

18 ـ هياه من أسماء الشياطين.

19 ـ يهيا كلمة الرعاة تزجر بها الإبل.

20 ـ يا هياه كلمة تُدعى بها الإنسان والحيوان ومعناها أقْبِلْ (يستوي فيها المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث).

واضح كم هي اللغة العربية غنية بالمفردات والمعاني، التي يمكن أن يتصل جزءٌ كبير منها باسم (يَهْوَه). وقد جاءت هذه الاشتقاقات على أساس أن الـ (V) في اسم YHVH هي الواو. فماذا لو كانت (فاءً)؟ وهو احتمال يجب ألاّ نستبعِده. في هذه الحالة، يمكن أن نتوقف عند معاني الألفاظ التالية:

1 ـ هَفَّ الشيء هفيفاً حَفَّ، والسائرُ أسْرَعَ في سيرِهِ، والريحُ هفّاً وهفيفاً هبَّت فسمع صوتُ هبوبها. والزرعُ انتشر حبُّهُ لتأخر حصاده.

2 ـ أهنفَ الصوتُ دوَّى والسرابُ بَرَقَ.

3 ـ الهفُوف من الأرض القفر.

4 ـ هَفَا في المشي هفوفاً، وهفواناً أسرعَ وخفَّ فيه. ويقالُ هفا الظبيُ خفَّ واشتدَّ عدوُهُ، والطائرُ خفق بجناحيهِ وطار. وفلانٌ سقط وزلَّ وأخطأ ـ وجاعَ. والريحُ هبَّت. والريحُ بالشيء حركته وذهبت به. يقال هفت الريحُ بالمطر طردتهُ. والنفس إلى الشيء حنَّت واشتاقت أو طربت. والقلبُ خفق. الشيءُ في الهواءِ هَفْواً وهُفُوّاً ذهب.

5 ـ هافاهُ: مايَلَهُ إلى هواهُ.

6 ـ الهافيةُ من الإبل الضالّة (ج) هواف.

7 ـ الهفا مطرٌ يسقط ثم يكف.

8 ـ الهفاءُ الغلط والزلل.

9 ـ الهفاةُ من الرجال الأحمق.

10 ـ وَهَفَ النصراني ـ يَهِفُ وَهْفَاً ووهافةً خدمَ الكنيسة. والشيءُ وهفاً ووهيفاً دنا. ويقال هذا ما وهف لك: ما دنا وأمكن، والنباتُ اخضرَّ وأورق واهتزَّ. والشيء للقوة عرض لهم وبدا. والشيءُ وهفاً طار.

11 ـ أَوْهَفَ الشيءُ أشرفَ وارتفع. ويقال ما يوهِفُ له شيء إلاّ أخذه.

12 ـ الواهف سادنُ الكنيسة وقيِّمها والوهافة عمل سادن الكنيسة وقيّمها (8).

وواضح أن هناك العديد من المعاني في هذه المفردات يمكن أن تكون لها صلة بعبادة (يَهْوَه). ولكن مشكلة المفردات اللغوية، وخاصة في لغة غنيّة كالعربية هي أنها تضعنا أمام بحرٍ عميق القرار. ثم إن مشكلة الاشتقاق يمكن أن تقودنا إلى لغات هندو ـ أوروبية. فاسم YHVH مثلاً يمكن أن نقارنه لفظاً بالكلمة الإنكليزية HOVE من Heave بمعنى اصعد، رفع، وheaven بمعنى الله وسماء والخلود والجنة. بل إن اسم يَهْوَه يمكن أن نطابقه مع اسم الإله "غاهوه" زعيم الريح عند شعب الأرغواز الذي يرسم على شكل مارد مهيمن على الريح (9)، أو اسم ihoiho الذي أطلق على الرب (ايو) في تاهيتي(10). ولنلاحظ أن (ايو) يعود بنا أيضاً إلى اسم الإله الكنعاني (يو). كما أن اسم رب الشمس عند شعب المايا "كينش أهوا" (11) يكاد يتطابق في لفظته الثانية مع اسم (يَهْوَه). وهناك Jove اسم آخر لجوبيتر يكاد يكون ترجمة لاسم يَهْوَه (JHVH). ومن الملائم أن نلاحظ هنا أن المعنى الذي يعطيه الباحثون لاسم (يَهْوَه) على أنه الكائن والذي كان والذي يكون، يماثل معنى أوهرمازد لغوياً (كائن، كان، وسيكون دائماً). كما أن معنى ذورفان (= زامان Zaman) أيضاً هو الذي (كان وسيكون كل الأشياء). فهل جرى توليد اسم "يَهْوَه" من اللغة الآرامية في ضوء المفاهيم الدينية الفارسية في زمن متأخر بقصد بناء علاقة بين اليهود وبين الملوك الفرس؟! إنه أيضاً سؤال جدير بالتعقب والتدقيق.

سبق أن ذكرنا أن الموروث المسيحي والإسلامي، قد حَيَّدَ بشكل أو بآخر اسم (يَهْوَه). وبينما جرى تناول هذا الاسم في كثير من الدراسات في العالم المسيحي في الغرب، إلاّ أننا نكاد لا نعثر على أيِّ رأي فيه لدى علماء المسلمين. والمحاولات المعاصرة للبحث في هذا الاسم إنما برزت في ظل الهجمة الصهيونية الراهنة على فلسطين.

لكنّ التراث الإسلامي يحتوي بعض التصوّرات، وإن كانت محدودة، من خلال ظاهرة التصوف، مما تعرّضت بشكل أو بآخر لما يمكن أن تعتبر له صلة باسم (يَهْوَه)، انطلاقاً من مفهوم (الهو).

و(الهو) في التعريفات الغيبُ لا يصحُّ شهوده للغير كغيب الهوّية المعبِّرة عنها كنهاً باللاتعيين، وهو أبطن البواطن. و(الهو هُو) لفظ مركّب من هُوَ هُوَ جُعل اسماً معرَّفاً باللام ومعناهُ الاتحاد بالذات (12).

هذا المعنى يعيدنا بالطبع إلى مدلول (إيّاه) الذي توصلنا إليه في الفصل السابق، باعتباره أصل (ياه أو يا).

ومن مفهوم (الهُوَ) جاءَ مفهوم (الهُوِيَّة) وهي "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق. والهوِّية السارية في جميع الموجودات ما إذا أخذ حقيقة الوجود لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء وذلك منسوب إلى هُوَ (Hu)" (13).

ومن بين المتصوِّفة المسلمين، يستوقفنا الحلاج عند بعض المفاهيم التي قد تساعدنا في فهم المقاربة الإسلامية المحدودة فلسفياً من هذا الموضوع. ولنمعن في هذه المقتطفات:

1 ـ يقول الحلاج "وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه" (14).

2 ـ "يا هو أنا وأنا هو، لا فرق بين أنيَّتي وهويتك إلاّ الحدث والقدم" (15). وما يستوقفنا هنا هي الـ (يا) في البداية، فهل هي (ياء النداء) أم هي (يا) التي استعرضنا موقعها في الجغرافيا الكنعانية، وقلنا عن صلتها المحتملة مع (ياه/ يَهْوَه)؟! يبدو لنا أن (يا) في قول الحلاج هي (ياه) في المزمور 68.

3 ـ قال الحلاج "سين ياسين وموسى هما لوح أنوار الحقيقة وإلى الحق أقرب من يا و مو" (16).

هل قصد بـ "سين" هنا القمر؟ أم قصد السناء (النور)؟ وبالطبع فإن النور هو من أسماء الله الحسنى. ولكن لم هي أقرب إلى لوح أنوار الحقيقة من (يا) و(مو)؟.

وإذا كنّا قد اقتربنا من مفهوم (يا) في النص السابق، فماذا عن (مو)؟ وهل أخذها على أنها تعني الماء، من التفسير القديم القائل إن اسم موسى هو حاصل جمع (مو = ماء) و(سا = شجر)؟.

يبدو من الصعب علينا أن نجيب على هذه الأسئلة.

4 ـ وكان مما أشكل على الناس معناه قول الحلاج "اعلموا أنّ الهياكل قائمة بياهوه" والأجسام متحركة بياسينه. والهو والسين طريقان إلى معرفة النقطة الأصلية" (17).

هل يقصد بـ "ياسينه" الأرواح التي تجعل بعض الأجسام حيّة "متحركة"؟

ولكن ما هي "يا هوهُ" في هذه الحالة؟

لقد كنّا سابقاً نتساءَل عن معنى (ياه/ يَهْوَه) والآن نتساءل عن معنى (يا هوهُ/ هو). ولكن إذا كان بحثنا في السابق قد دار حول مفهوم الـ (يه)، فإن البحث هنا يدور حول مفهوم (الهو)، وهذا المفهوم أقرب إلى مدركاتنا. وأما السين فهي إما الروح أو النور أو الروح النورانية.

5 ـ يقول الحلاج "من طلب التوحيد في غير لام ألف فقد تعرَّض للخوضانِ في الكفر. ومن تعرف هو الهويَّة في غير خط الاستواء فقد جاس خلال الحيرة المذمومة التي لا استراحة بعدها" (18).

إنّ لام ألف هنا قد تعني قطعاً (إل)، أي المصدر الأصلي لاسم الله عزّ وجلّ (الله). والتوحيد يقتضي التسليم بهذا الاسم. ولكن هل قصد بـ (هو الهوية) مفهوماً ليَهْوَه في غير خط الاستواء، جاعلاً هذا المفهوم جوساً خلال الحيرة المذمومة؟ أو بالأدقّ مُنَبِّهاً إلى الثنائية التي تبرز من خلال المفهوم اليهودي؟.

6 ـ وقال ابن فاتك: "سمعتُ الحلاج يقول: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور. وعلم الأحرف في لام ألف، وعلم لام ألف في الألف، وعلم الألف في النقطة. وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة. وعلم المشيئة في غيب الهُوَ، وعلم غيب (الهو) (ليس كمثله شيء) ولا يعلمه إلاّ هو" (19).

وقد سبق أن أوردنا المقاربة اليهودية لاسم الخالق بصيغة هو Hu، كما أوردنا أصلها لدى السلت (العناقيين)، والذي يحتمل أن يكون اليهود قد تأثروا به.

ولكن، إذا كنّا بالكاد نفهم ما قاله الحلاج، وبالكاد أيضاً نكاد نفهم المعطيات التي يتضمنها اسم (يَهْوَه) إذا عُدَّ اسماً مركباً، فكيف يمكن أن نتوقع من بني إسرائيل فهم هذا الاسم بمثل هذه التصورات؟

إن اليهود لا يفهمون هذا الاسم حتى الآن بمثل هذه التصوُّرات. والدارج لديهم ولدى الباحثين عموماً أنَّ اسمه يعني "الكائن". وبالطبع، فإن هذا الاسم، كيفما قلَّبنا الرأي بصدده لا يستقيم، لأن الكائن مخلوق، والله هو الخالق. فإذا قلنا إن المقصود بالكائن ليس الهَيْئَةُ (*)، بل الهُوِيَّة، أي الذات الإلهيَّة كان هذا أقرب إلى القبول.

لكنَّ هذه الهُوِيِّة (أو ياه/ يَهْوَه) كان يجب أن تعبِّر عن نفسها بشكلٍ حسِّي ملموس. وهذا الشكل الحسِّي الملموس، افترض فرويد أنه النَفَس الذي يسري في الهواء، أي (الروح Ruache = دخان). ولكن ألا يمكننا أن نفترض أنها كانت أرقى أو أسمى من ذلك؟.

أخيراً هناك كلمتان تردان في نصوص المسند السبأية القديمة ويمكن لهما أن يسهما في توضيح معنى الاسم يَهْوَه أو مصدره إذا قُرئ بالفاء "يهفي" وليس بالواو "يَهْوَه". وهاتان الكلمتان هما "هوفي" التي ترجمت بمعنى "سلَّم" و"هوفين" التي ترجمت بمعنى "إيفاء".

* * *

هوامش (8) محاولة للفهم من منظور عربي:

(1): د. فؤاد حسنين، م.س، ص16.

(2): بطرس البستاني، محيط المحيط، ص947.

(3): نفس المصدر، ص947.

(4): نفس المصدر، ص947.

(5): نفس المصدر، ص947.

(6): نفس المصدر، ص949.

(7): نفس المصدر، ص949.

(8): المعجم الوسيط، ص1060.

(9): ماكس شابيرو، م.س، ص104.

(10): نفس المصدر، ص128.

(11): نفس المصدر، ص143

(12): بطرس البستاني، م.س. ص947.

(13): نفس المصدر، ص947.

(14): ل. ماسينون وب. كراوس، أخبار الحلاج، لا روز، باريس1936، ص31.

(15): نفس المصدر، ص21.

(16): نفس المصدر، ص49.

(17): نفس المصدر، ص26.

(18): نفس المصدر، ص51.

(19): نفس المصدر، ص95، وص96.

(*): الهَيْئَةُ والهيئة حالُ الشيء وكيفيته وشكله وصورته (ج) هيئات. وقال في الكليات الهيئة والعَرَض متقاربا المفهوم إلاّ أنّ العرضَ يقال باعتبار عروضه والهيئة باعتبار حصوله. وأكثر استعمال الهيئة في الخارج ولفظ الوصف في الأمور الذهنية.

وبالطبع فإن كلمة "الكائن" تفترض حدوث الهيئة، ويمكن أن يكون الكائن عرضاً. والرب عزّ وجلّ لا بداية له ولا نهاية. فكيف يستقيم أن يُسَمَّى بالكائن أو "هو يكون"؟

*   *   *

(9)

يَهْوَه هل كان إلهاً أم ملاكاً؟

يقول البعض إنّه "في دراسة تطور الفكر اللاهوتي من البوليثية (تعدد الآلهة) إلى الهينوثية (زعامة أحد الآلهة عليها) إلى المونوثية (التوحيد) نجد المرحلتين الأولى والثانية في أساطير بابل، كما نجد أن إبراهيم وموسى وداود وسليمان لم يكونوا موحدين بل هينوثيِّين، وأنّ النبي عاموس (نحو 750ق.م) كان أوّل مُوَحِّد" (1).

وهكذا، يكون البعضُ قد جعلوا للتوحيد أباً بديلاً لأبوَّة أخناتون التي ادَّعاها البعض الآخر، وجاء بعد أخناتون بحوالي سبعة قرون. ولكنهم يكونون في الوقت نفسه قد أسقطوا عن الأنبياء المعتمدين في الإسلام صفة النبوة، إذ كيف يمكن الجمع بين النبوّة وبين الهيفوثية.

بالطبع ليس الذنب ذنب الأنبياء، ولا هو ذنب الباحثين في الفكر اللاهوتي بل ذنب "الكتاب المقدَّس" الذي يعتمدون عليه في تعقب هذا الفكر.

يقول "أول الموحدين" عاموس "هكذا أراني وإذا الربّ واقفٌ على حائط قائم وفي يده زيج" [عاموس 7/7]، كما يقول "رأيت السيد قائماً على المذبح" [عاموس 9/1]. ولكن عاموس لم يكن الوحيد الذي نقلوا عنه أنه رأى الله مراراً وتكراراً، فكل أنبياء اليهود رأوا ما تعذر على موسى رؤيته. وكل أنبياء اليهود كلمهم الرب وكلّموه فلم تعد صفة "الكليم" امتيازاً لموسى عليه السلام بين الأنبياء.

ينقل أحمد بن فاتك عن الحلاج قوله "من ظنّ أن الإلهية تمتزج بالبشرية أو البشرية تمتزج بالألهية فقد كفر. فإنّ الله تعالى تفرَّد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، فلا يشبههم بوجه من الوجوه، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء. وكيف يتصوَّر الشبه بين القديم والمحدث. ومن زعم أن البارئ في مكان أو على مكان أو متصل بمكان أو يتصوَّر على الضمير أو يتخايل في الأوهام أو يدخل تحت الصفة والنعت فقد أشرك" (2).

وعلى هذا النحو يكون مدوِّنو التوراة قد بدأوا رحلة الشرك منذ تدوين أول أسفاره "التكوين" حين قالوا "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" [تك 1/26] "فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم" [تك 1/27].

إن هذا التصوُّر الذي اعتمد منذ البداية هو الذي سمح بالوصول بعد ذلك إلى النزعة العنصرية التي طبعت اليهودية، حين اختار اللهُ من بين مَنْ صنعهم على صورتِهِ مَنْ يكونوا له أولاداً من دون بقية البشر. ومن ذلك الزعم على لسان موسى قوله "أنتم أولاد للرب إلهكم. لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت، لأنك شعب مقدس للربّ إلهك وقد اختارك الربّ لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض" [تث 1-14/2].

وهذه الفكرة هي التي قادت إلى اعتبار الربّ (يَهْوَه) إلهاً للآلهة "لأنَّ الرب إلهكم هو إله الآلهة وربّ الأرباب الإله العظيم الجبّار المهيب الذي لا يأخذ بالوجوه ولا يقبل رشوة" [تث 10/17]. فطالما أنَّ الربّ إله خاص ببني إسرائيل فلا بُدَّ من وجود آلهة للآخرين، ولكنَّ كل قوم يعتقدون أنّ إلههم هو الأعلى (إله الآلهة)، وهكذا يستوي الجميع في شكل العقيدة.

على أية حال، ليست هذه القضية اللاهوتية هي ما تشغلنا في هذا البحث وإنما ما يشغلنا تدقيق حقيقة يَهْوَه في نظر اليهود، أو عملياً كما يجب أن ينظر إليها المؤرخ.

يستوقفنا أول ما يستوقفنا هذا النص من سفر الخروج، حيث يقول الربّ لموسى "ها أنا مُرسلٌ ملاكاً أمام وجهكَ ليحفظك في الطريق وليجيء بك إلى المكان الذي أعددته. احترز منه واسمع لصوتِه ولا تتمرَّد عليه. لأنّه لا يصفح عن ذنوبكم لأنّ اسمي فيه. ولكن إن سمعت لصوتِه وفعلت كلّ ما أتكلم به أعادي أعداءَكَ وأضايق مضايقيك. فإنَّ ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم" [خروج 20-23/23].

هذا نص مهم، وفي غاية الخطورة، فنحن نسلِّم بفكرة أن يكلّف الربُّ عزّ وجلّ ملاكاً بأن يساعد نبياً أو قوماً، بل ونسلِّمُ بفكرة أن يتجسَّد هذا الملاك بشراً، والقرينة لدينا على ذلك هي قصة الملكين ببابل هاروت وماروت. وفي قصّة بني إسرائيل لم يتجسّد الملاك لموسى بشراً، ولم يسر معهم كرجل، وإنما هم رأوا في الغمام الذي ظللهم أو النار مظاهر تفسَّر بالحضور الإلهي. ولسنا أيضاً بصدد مناقشة مثل هذه الأفكار، ولكن السؤال الذي نطرحه: ماذا كان اسم الملاك الذي كلف بمرافقة بني إسرائيل زمن موسى؟.

قد يقول البعض إن الموروث اليهودي سكت عن ذكر اسم هذا الملاك فلم يعتمد اسم جبرائيل أو اسم ميكائيل أو اسم رافائيل في هذه القصة. وقد سبق أن رأينا أنّ اليهود عادوا الملاكين جبرائيل وميكائيل، وهو ما أكده القرآن الكريم، وأمَّا رافائيل فقد ظهر اسمه فقط في سفر طوبيا، وكانت مهمته أن يساعد إنساناً يهودياً على نيل غايته "فخرج طوبيا يبحث عن رجل يرافقه إلى ميديا ويعرف الطريق. وعند خروجه وجدَ الملاكَ رافائيل واقفاً أمامه، ولم يعلم بأنه ملاك من ملائكة الله" [طوبيا5/4]. ومن المؤكد أنّ الملاك الذي رافق بني إسرائيل لم يكن ملاكَ الموتِ عزرائيل ولا الشيطان الذي يسمُّونه بـ "عزازيل"، كما أنه لا مكان للملاك "إسرافيل" في هذه القصّة برمَّتها حيث لم يرد اسمُه بتاتاً في العهد القديم.

في تعقيب طبعة مسيحيّة معاصرة للكتاب المقدَّس يرد القول إنه إذا استثنينا "ملاك الرب" أو "ملاك الله" الذي يدلُّ في النصوص القديمة على هيئة الله المرئية [تك 7/16] فالملائكة هم خلائق مختلفة عن الله ودونه شأناً، وأعضاء بلاطه السماوي يدعون "أبناء الله" [أي 6/1 ومز 1/29] و"قدِّيسين" [أي 1/5] و"قوات السماء" [مل 19/22 ونا 6/9 ومز21/103 و2/148]. وفاتحة سفر أيوب تشير إلى مجلسهم [أي 6/1 و1/2] من حيث ينطق الرسل (هذا معنى "ملاك" الذين يرسلهم الله. وهم تارة ملائكة هلاك [خر 23/12 ومل 3589 وخر 1/9 ومز 49/78]، وتارة ملائكة حراس الشعوب والأفراد [خر 20/23 وتث

13/10]. ورفائيل مرسل ليكون دليلاً لطوبيا [17/3 وتك 7/24]. في شأن دور الملائكة ليكونوا وسطاء في النبوة، راجع [خز 3/40] وستتطور هذه العقيدة في اليهودية وفي العهد الجديد (3).

إنَّ عدد الملائكة كما حدد في زمن متأخر هو سبعة، إذ يرد القول "أنا رافائيل أحد الملائكة السبعة الواقفين والداخلين في حضرة مجد الرب" [طوبيا 12/15] وبالنسبة للمؤرخين، فإنّ التقليد الذي يعتمد الرقم 7 يرجح أنه كنعاني. لكن الكتب المقدسة (يهودية ومسيحية) لا تعرف سوى ثلاثة أسماء ملائكة، هم جبرائيل [تث 16/8 و21/9 ولو 19/1] وميخائيل [تث 3/10 و21 و1/12 ويهو 9] ورفائيل [طوبيا]. والكتب المنحولة في نظر المسيحيين تكمل لائحة الملائكة السبعة الوارد ذكرها في الرؤيا [2/8].

في ضوء المعطيات السابقة، نستطيع الاستنتاج أن الملاك موضع بحثنا ليس واحداً من الثلاثة: جبرائيل وميكائيل ورافائيل. فمن هو إذن؟.

لو كان الملاك واحداً من هؤلاء، لقلنا إنّ تعبير "لأن اسمي فيه" إنما يشير إلى المقطع (إيل) في الأسماء الثلاثة، رغم معرفتنا بأنّ الأسماء الإيلية للناس العاديين كانت أيضاً كثيرة للغاية. ولكن النصّ الذي أمامنا يجعل (يَهْوَه) هو المتكلم، وأعطى للملاك صلاحيات الرب "لا يصفح عن ذنوبكم" فهل كان اسم الملاك هو (يَهْوَه)؟ أو بصيغة أخرى: هل كان يَهْوَه ملاكاً؟ وهل طابق اليهود بين اسم الربّ (يَهْوَه) واسم ملاك الربّ (يَهْوَه).

إنّ هذه المطابقة بين (يَهْوَه) وملاكه، أو بين (يَهْوَه) كربّ وملاك يمكن أن نلمسها بشكل واضح أيضاً في سفر متأخر حين يجيء في سفر ملاخي "هاءنذا أرسل ملاكي فيُهيِّء الطريقَ أمامي ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرُّون به هو ذا يأتي قال ربُّ الجنود" [ملاخي3/1].

إنَّ كل ظهورات ملاك الربّ لموسى قد عولجت في التوراة على أنها ظهورات للربّ نفسه، رغم اعترافهم أنَّ أحداً لا يستطيع أن يراه، وأنّه امتنع عن تلبية طلب موسى بأن يراه.

لنتوقف عند هذا النص "وقال موسى للربّ انظر. أنت قائل لي أَصْعِد هذا الشعب. وأنت لم تعرِّفني من ترسل معي. وأنت قد قلت عرفتك باسمك، ووجدت أيضاً نعمةً في عينيّ. فالآن إن كنت قد وجدتُ نعمةً في عينيك فعلّمني طريقك حتى أعرفك لكي أجد نعمةً في عينيك. وانظر أنَّ هذه الأمة شعبك. فقال وجهي يسير فأريحك. فقال له إن لم يَسِرْ وجهكَ فلا تصعدنا من ههنا. فإنّه بماذا يُعلم إنّي وجدت نعمةً في عينيك أنا وشعبك. أليس بمسيركَ معنا؟ فنمتاز أنا وشعبك عن جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. فقال الربّ لموسى هذا الأمر أيضاً الذي تكلمت عنه أفعله، لأنّك وجدتَ نعمةً في عينيَّ وعرفتك باسمك. فقال أرني مجدك. فقال أجيز كل جودتي قدَّامك. وأنادي باسم الربّ قدَّامك. وأتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم. وقال لا تقدر أن ترى وجهي، لأنّ الإنسان لا يراني ويعيش" [خروج 33/20/12].

إذاً كان لهذه القصّة من محصِّلة، فهي أن جميع أنبياء اليهود الذين زعموا أنهم رأوا الربّ كانوا كاذبين. لكن في هذه القصّة معطيات عديدة تستوجب التفكر. موسى عليه السلام يقول "أنت لم تعرِّفني من تُرسِل

معي". ومن المنطقي في هذه الحالة أن يكون الجواب المتوقع هو تحديد اسم الملاك الذي يرافقه ويرعى شؤونه ويكون وسيطاً بين الله عزّ وجلّ وبينه، بل من المنطقي أصلاً أن نفترض بأنَّ الحوارَ كان بين موسى وملاك الربّ، وليس مع الربّ مباشرة. ولكن لو سلّمنا بالرواية التوراتية، فإنَّ الربَّ بدلاً من تكليف ملاك، أو كأنه "عاجز" عن تكليف ملاك يقول له "وجهي يسير فأريحك". ويتمسّك موسى بهذا العرض السخيّ "إن لم يَسِرْ وجهكَ فلا تصعدنا من ههنا". إلاّ أنَّ المشكلة في النهاية هي أن موسى لن يستطيع أن يرى وجه الربّ "لا تقدر أن ترى وجهي، لأنّ الإنسان لا يراني ويعيش".

فهل كان يَهْوَه أو ياه يَهْوَه هو وجه الله الذي لا يمكن أن يُرى؟.

لنتذكر ما سبق أن أوردناه حول تفسير الزجاج لقوله تعالى "كلُّ شيءٍ هالك إلاّ وَجْهه" (القصص 88). من أنه لا يراهُ إلاّ "إيَّاهُ" أي إلاّ ذاتُه.

لقد امتنعنا في تلك المرحلة من البحث عن أن نتابع مع علي فهمي خشيم المقارنة اللغوية بين (وجه) و(جاه) والتي تابع بها ذلك التفسير. ونحن نعرف أنّ بعض العرب وحتى الآن ـ كما في الخليج مثلاً ـ يقلبون الجيم إلى ياء. وبالتالي، فإنّ وجه تنطق (ويه) وجاء تنطق (ياه) تماماً مثل اسم معبود اليهود، عدا عن أن لهذه المقاربة اللغوية صلة باسم الثور، وكان الكنعانيون يصفون إلههم الأعلى بأنه ثور إيل.

إنّ الأساس اللغوي الذي انطلق منه خشيم هو مفهوم الـ (كا) عند المصريين القدماء، وهي تعني (الروح القرينة التي تبقى بعد موت الإنسان)، ولنقل الروح الخالدة وهو يرى أن الاسم مأخوذ أصلاً من اسم البقرة المقدَّسة عندهم. لكننا نجدها أيضاً Ga بمعنى ثور وقا Qa لتفيد معاني الرفعة والارتفاع والشرف والسمو وما إليها من جبل، تل، هضبة، مرتفع.. الخ. وهو يمضي هنا أولاً إلى العربية في مادة "قوا" ومنها القوة (السلطان) و"القُوى" (العقل). وقد نستأنس بالجذر الثنائي "قع" الذي يؤدي إلى "قعل" (القاعلة: الجبل الطويل، والقواعل: رؤوس الجبال) (*). بيد أنّ الكلمة التي يرى أنّها مقابلة تماماً لمفهوم الـ (كا) المصرية هي كلمة "جاه" في العربية، ويلاحظ أن الجيم هنا تلفظ معطشة كالجيم القاهرية Gah وهذا هو النطق الأصلي للجيم قبل أن تُجهر حسبما أثبتت الدراسات الحديثة لتطور نطق هذا الصوت، وهي تناظر بالضبط Qa في المصرية وقد تنطق كافاً Ka كنطق بدو بعض البلاد العربية اليوم للقاف المعقودة (ق = K = G = G = جيم قاهرية) (ولكن لنلاحظ هنا أيضاً أنّ القاف قد تنطق همزة والهمزة ياءً والجيم ياء).

في لسان العرب نعثر على كلمة "جاه" في مادة "جوه" وهي تعني: المنزلة والقدر ورغم أنّ ابن منظور يقول إنّها مقلوب "وجه"، غير أنّه لا يوردها تحت هذه المادة، ويذكر قول اللحياني إنَّ "الجاه" ليس من (وجه) وإنّما هو من (جهت) ولم يفسِّر ما (جهت). وحكى اللحياني أيضاً: (جاهٌ) و(جاهةٌ) و(جاهْ جاهْ) و(جاهِ جاهِ) و(جاهٍ جاهٍ) (**). الجوهري: "فلان ذو جاه، وقد أوجهته أنا ووجَّهته أنا أي جعلته وجيهاً". وله تحليل في كون "جاه" مقلوب "وجه" يرجع إليه في مادة "جوه". كلمة "جاه" إذن من "وجه" جذرها الثنائي "وج" wg. ونلاحظ أن هذا الجذر يؤدي إلى جذور ثلاثية تفيد "الارتفاع" (4). وخلص خشيم إلى

أنّ تعبيراً من مثل "وجه الله" (والذي ورد في النص التوراتي موضع بحثنا) يبقى مشكلة تحتاج إلى نظر، إذ ليس من المقبول في التصوُّر الإسلامي للذات الإلهية المنزَّهة عن التشبيه والتمثيل والتجسيم أن يكون لله "وجه"، جزءاً من جسد. ولذا كان لا بُدَّ من البحث عن معنى آخر يطابق هذا التصوُّر التنزيهي المطلق (5).

ولكن "وجه الله" يرد في القرآن الكريم في آيات عديدة، ومن ذلك: "فذلكَ خيرٌ للذينَ يريدونَ وجهَ الله" (الروم 38)، و"وما آتَيْتم من زكاةٍ تُريدون وجهَ الله" (الروم 39)، و"إنَّما نُطعِمكم لوجهِ اللهِ لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً" (الإنسان 9)، و"ما لأحدٍ عندَهُ من نِعمةٍ تجزى إلاّ ابتغاءَ وجهِ ربِّهِ الأعلى" (الليل20)، و"يبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجلالِ والإكْرام" (الرحمن 27)، و"كلُّ شيءٍ هالك إلاّ وجهُه" (القصص 88). وهنا رأى الزجاج في تفسيره أنّ ما يقابل كلمة (وجهه) هو (إيَّاه) أي ذاته. ويعقّب خشيم قائلاً: أجرؤ على القول هنا بأن (Qa Ka) في المصرية تحمل المعاني ذاتها، وإن حار العلماء في العثور على المقابل الدقيق، تماماً كما قد نحتار في مقابلة "جاه" إلاّ بجملة ألفاظ لا تؤدي الغرض المقصود من جاه بالضبط (6). وفي ختام بحثه يقول "تبقى الإشارة إلى وجود الهاء في كلمة "جاه" Gah والعربية التي قابلنا بـ (Ka = Qa). وقد استعملنا حرف A اللاتيني مقابلاً للهمزة في الأصل المصري. ومن هنا نرى أن الهاء في العربية تقابلها الهمزة في المصرية" (7). ونحن لا نتفق مع خشيم في هذه الملاحظة الأخيرة، فالهمزة إما أنها قلبت إلى ألف ممدودة أو حركة فتح للحرف الأول، وأما الهاء فهي للإضافة، وبقلب حرف القاف في العبرية إلى ياء تكون معنا لفظ (ياه) الذي يلفظ أيضاً (يه)، والأرجح كما رأينا أنه يعبِّر عن "وجه الله". وبمنطق الفكر الإسلامي، فإنّ ما قاله الربّ لموسى عليه السلام "وجهي يسير فأريحك"، لا يعني أكثر من القول "سِرْ برعاية الله"، أو "سِرْ وأنا أتابع خطواتك" أو "سِرْ وأنا أرعاك". فرعاية الله هي أهم بكل تأكيد من الوجود المادي لملاك يرافق موسى في رحلته. لكن اليهود رأوا في مظاهر الرعاية، ومنها تظليلهم بالغمام، على أنه وجود مادي للربّ في وسطهم.

إن موسى يتابع في مواقع متعددة المطالبة بأن يسير الربّ مع بني إسرائيل في تنقلاتهم، وكأنّ الربّ ليس موجوداً في كل مكان. ومن ذلك قول التوراة حول عودة موسى إلى الجبل بعد أن كان اليهود قد اتخذوا عجل الذهب إلهاً "فأسرع موسى وخرَّ إلى الأرض وسجد. وقال إن وجدتُ نعمةً في عينيك أيُّها السيد فليسر السيد في وسطنا. فإنّه شعب صلب الرقبة. واغفر إثمنا وخطيتنا واتخذنا مُلْكاً" [خروج 8-34/9] وإذا كان لهذا المنطق من مدلول، فهو أنَّ موسى كان يشعر بالعجز عن قيادتهم ويريد من الربّ عزّ وجلّ أن يتولى ذلك بنفسه، وكأنّه ليس الأخير بعباده، والقادر على كل شيء. لقد حدث ذلك رغم أنّ الربّ كان قد قال لموسى بأنّه أرسل ملاكه أمامه. وهذا ما ورد في الإصحاح 32 حيث يقول "فقال الربّ لموسى من أخطأ إليَّ أمحوه من كتابي. والآن اذهبْ اهْدِ الشعب إلى حيث كلّمتُك. هو ذا ملاكي يسير أمامك، ولكن في

يوم افتقادي أفتقد خطيَّتهم. فضرب الربّ الشعب لأنّهم صنعوا العجل الذي صنعه هارون" [خروج 23-32/25].

ونفهم من هذا اعترافاً بأنّ ملاك الربّ، وليس الربّ ـ كما زعموا ـ هو الذي كان يسير أمامهم. وكان من الممكن طبعاً أن يتجسّد الملاكُ في غيمٍ أو نار. ولكنهم أصرُّوا على تصوُّر أنّ هذه الظواهر هي الربّ نفسه، أو أنَّ وضع لوحي الشريعة في تابوت العهد (صندوق) يعني أن الربَّ يسكنُ فيه.

ويتكرر هذا الاعتراف في أكثر من موقع. ومنه القول "وقال الربُّ لموسى اذْهب اصْعَد من هنا أنت والشعب الذي أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها. وأنا أرسلُ أمامكَ ملاكاً وأطردُ الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين" [خروج 1-33/2]. وقد استثنى الربُّ نفسه من الصعودِ، وكأنَّه ليس المُهيمن على كلِّ شعبٍ بقوله "فإنّي لا أصعدُ في وسطك لأنّكَ شعبٌ صلبُ الرقبة، لئلا أفنيكَ في الطريق" [خروج 33/3].

ولكن رغم هذا الاعتراف، فإنَّ التوراة تصرُّ على أنَّ الربَّ بنفسه ومجسّداً كان موجوداً بينهم. تقول "وأخذ موسى الخيمة ونصبها له خارج المِحلة بعيداً عن المحلة ودعاها خيمة الاجتماع. فكانَ كلُّ من يطلب الربَّ يخرجُ إلى خيمة الاجتماع التي خارج المحلة. وكان جميع الشعب إذا خرجَ موسى إلى الخيمةِ يقومون ويقفون كل واحد في باب خيمتِهِ وينظرون وراءَ موسى حتى يدخل الخيمة. وكان عمودُ السحابِ إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة. ويتكلّم الربُّ مع موسى. فيرى جميعُ الشعبِ عمودَ السحاب واقفاً عند باب الخيمة. ويقوم كل الشعب ويسجدون كل واحد في باب خيمته. ويكلّمُ الربُّ موسى وجهاً لوجه كما يكلّمُ الرجلُ صاحبَهُ" [خروج 7-33/11].

وهذا يعني أنَّهم رأوا في سحابة الربِّ، أو في ملاكِ الربِّ، أنَّه الربَّ، وأنَّ موسى كان يكلّمُ الربَّ وجهاً لوجه كما يكلّمُ الرجلُ صاحبَهُ، بل إنّ هذه النعمة اتسعت لتشمل كل شيوخ إسرائيل، وذلك حين تقول التوراة "ثمَّ صعدَ موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إلهَ إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعةٍ من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنَّه لم يَمُدَّ يَدَهُ إلى أشرافِ بني إسرائيل. فرأوا اللهَ وأكلوا وشربوا" [خروج 9-24/11].

ولكنَّها تعود لتقول "فانتقلَ ملاكُ اللهِ السائرُ أمام عسكرِ إسرائيل وسار وراءهم. وانتقل عمودُ السحاب من أمامهم ووقف وراءهم" [خروج 14/24].

وهذا يعني أنّها تعاملت مع "الربِّ" ومع "ملاكِ الربِّ" على أنّهما يعبران عن حقيقة واحدة.

ووفق هذا المنطق فإنَّ الربَّ قد يأتي بنفسه أو بمرافقه المُهلك الذي لا يحدِّدون له اسماً، ليقتل أعداءهم، ولكنَّه يحتاج إلى علامة حتى لا يُخطئُ في اختيار الهدف. يرد في التوراة "فإنَّ الربَّ يجتازُ ليضربَ المصريين. فحين يرى الدمَ على العتبةِ العليا والقائمتين يعبر الربُّ عن الباب ولا يدع المُهلك يدخل بيوتكم ليضرب" [خروج 12/23].

وإذا كان هذا هو تصوّرهم للربّ، فلا غرابة أن يقولوا على لسانه "انظروا الآن. أنا أنا هوَ وليس إلهٌ معي. أنا أميتُ وأحيي. سحقتُ وإنّي أشفي وليس من يدي مخلّص. إنّي أرفعُ إلى السماء يديَ وأقولُ حيٌّ أنا إلى الأبد" [تث 39-32/40].

وقد يقال إنَّ المفهوم للإله هو (HU) والذي هو أيضاً (أنا) حين يعبّر عن ذاته، باعتباره الذي يميتُ ويحيي، ويسحقُ ويشفي، وصاحب قدرةٍ مطلقةٍ، ولا إلهَ معه، هو مفهوم متطور. ولكن ما معنى أن يرفع إلى السماء يَدَهُ ويقول "حيٌّ أنا إلى الأبد"؟ أليست السماء والأرض من تحته؟ أم أنَّ هناك آلهة أخرى في السماءِ يتحداها.

ثمَّ إنَّ مفهوم كلمة (إله) نفسها، كما تردُ في التوراة، هي موضع إشكالية فهذا هو الربُّ يقول لموسى "أنا جعلتُكَ إلهاً لفرعون". وهارون أخوك يكون نبيُّكَ. أنتَ تتكلّم بكل ما آمرك. وهارون أخوك يكلّم فرعونَ ليطلقَ بني إسرائيل من أرضه" [خر 1-7/2]. وفي نص آخر "وهو (هارون) يكون لك فماً وأنت تكونُ لهُ إلهاً" [خر 4/16]. فمعنى ذلك أنّ صفة إله هي مرتبة يمكن أن يصل إليها الإنسان، وقد ارتقى موسى في نظرهم إلى إله. ولا شيء في هذه الحالة يجعلنا نمتنع عن تصوّر أنّ اللهَ (الوهيم) في موروثهم هو دون مستوى الربّ يَهْوَه، طالما أنّ موسى إله أو أنَّ يَهْوَه كان دون مستوى الله.

ومسألة الانتماء إلى الله تبدو بالنسبة لليهود مسألة سهلة. فعصا الرعاة التي كان يحملها موسى ويهشُّ بها على غنمهِ وله فيها مآرب أخرى مثل قتل الهوام مثلاً تحوَّلت إلى عصا الله "وأخذ موسى عصا اللهِ في يَدِه" [خر 4/20]، كما لو أنَّ هذه العصا أنزلت من السماء. وبنفس هذا المستوى يمكن أن نفهم قولهم "فتقول لفرعون هكذا يقول الربُّ. إسرائيل ابني البكر. فقلت لك أطلقْ ابني ليعبدَني فأبيتَ أن تطلقهُ. هاءنذا أقتل ابنك البكر" [خر 22-4/23]. فإذا كانت عصا الراعي تحوَّلت إلى عصا الله، فلماذا لا يتحوّل إسرائيل إلى ابن بكر لله؟ ولماذا لا يدَّعي بهذا سُمُوّاً على كل البشر الآخرين، لمجرَّد أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ شاءت إرادته أن ينقذه من ذلِّ العبودية والاضطهاد وأن ينتقم من غلوِّ الفرعون؟.

إنّ هذه المغالاة في إعطاء قدسيّة إضافية إلى كل شيء بنسبته بشكل مادي إلى الربّ، حدثت أيضاً في مسألة الشريعة التي تلقاها موسى. والأمرُ هنا أشبه بحكاية أولئك الذين طلبوا من سيدنا محمد (صلعم) أن يأتيهم بكتاب ينزل جاهزاً من السماء بدلاً للصيغة التي أنزل بها القرآن، ولعلّ من طلبوا ذلك كانوا من اليهود.

يستوقفنا في الإصحاح 24 من سفر الخروج القول "فجاء موسى وحدَّثَ الشعبَ بجميع أقوال الربِّ وجميع الأحكام. فكتبَ موسى جميع أقوال الربّ" [خر 3-24/4]. فهل انتهت القصّة هناك خاصة وقد أعقبها إبرام عهد مشفوع بالدّم معهم؟ ويبدو أيضاً أنَّ هذه المناسبة الجليلة كان يجب أن تختتم بصعود الشيوخ السبعين مع موسى وأركان زعامته إلى جبل الربِّ ليروا اللهَ ويأكلوا ويشربوا، وينتهي الأمر.

لكنَّ المناسبة لم تنتهِ، فقد كان على موسى أن يصعد مرةً أخرى إلى الجبل ليعطيه الربُّ لوحي الحجارة والشريعة والوصيَّة التي كتبها الربُّ بنفسه لتعليمهم. وهكذا كان "ثمَّ أعطى (الربُّ) موسى عند فراغِه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله" [خر 31/18]. فإما أنَّ موسى لم يكتب جميع أقوال الربّ في البداية أو أنَّ قصّة اللوحينِ المكتوبين بإصبع الله، ليكون لله إصبع إلى جانب الوجه واليدين والقدمين وكل صور التشبيه والتجسيم التي نلتقي بها في التوراة. ويبقى هناك سؤال تقني لا بُدَّ وأن يُطرح: كيف تمت الكتابة بالإصبع؟ ونطرح هذا السؤال ليس فقط لأننا نعلم أن اللهَ سبحانه وتعالى هو الذي "علَّمَ بالقلم، علَّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ"، ولكن أيضاً لأنَّ تصور الكتابة بالإصبع هو تصوُّر بدائي أقلَّ ما فيه أنَّه يفترض بأنَّ الإنسانَ - ولا نقول الخالق عزّ وجلّ - لم يكن قد اهتدى بعد إلى صنع القلم، فكان يغمس إصبعه في الحبر المفترض ثم يكتب.

إنَّ هذا الإصرار على منح درجة أعلى من القدسِّية لكل شيء، والادِّعاء بأنَّ الربَّ تواجد مجسَّماً بهذا الشكل أو ذاك ليقود كل شيء بنفسه، دون أن يكتفي بدور لملاكه أو ملائكته أو لنبيِّه، كان لا بُدَّ وأن يقود إلى إسكان الرب أو اسمه داخل تابوت. ومن أمثلة ذلك "ارتحلوا من جبل الربِّ مسيرةَ ثلاثةِ أيامٍ وتابوتُ عهد الربِّ راحل أمامهم مسيرةَ ثلاثةِ أيامٍ يلتمسُ لهم منزلاً. وكانت سحابةُ الربِّ عليهم نهاراً في ارتحالهم من المحلة. وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول قم يا رب فلتتبدَّد أعداؤكَ ويهربُ مبغضُوكَ من أمامك. وعند حلوله كان يقول ارجعْ يا ربّ إلى ربوات ألوف إسرائيل" [عدد 33-10/36].

وهكذا كما نلحظ بات التابوتُ هو الذي يتولّى القيادة. وعبارة "قم يا ربّ" في هذا السياق توحي بأنّه كان عليه أن يخرج من التابوت أو ينهض به! لكن عبارة "ارجع يا ربّ" قد تعني أنّه كان عليه أن يعود للإقامة داخل التابوت! ولا غرابة في أن يُعطى التابوت كلَّ هذه الأهميَّة الرمزية، ففيه أو من المحفوظات فيه "عصا الله" التي طالما هشَّ فيها موسى عليه السلام على غنمه، وفيها لوحان من حجر مكتوبان بـ"إصبع الله"، وفيه عيّنة من المنِّ الذي شكّل خبزاً لهم في البريّة. وكان يجب على اليهود أن يحافظوا على هذا الموروث، ولكنهم لم يفعلوا، ولم يولوهُ من الاهتمام قدرَ الاهتمام الذي أولوه لآنية الذهب والفضة في هيكل أورشليم الذي بات في نظرهم مسكناً يقيم فيه الربُّ.

أما الغمام الذي ظلّلهم، فليس له منطقياً إلاّ مدلول واحد، وهو أنَّ خروجَهم كان صيفاً، وأنَّه كان عليهم أن ينتقلوا في قفار حرارتها ملتهبة، فكان تظليلهم بالغمام يخفِّف عنهم حرارةَ الجو. وبالطبع، فإنَّ هذه القفار الملتهبة الحرارة ليست في سيناء ولا في النقب حيث تبقى الحرارة صيفاً معتدلة نسبياً، وإنّما في عمق جزيرة العرب. أما هم، فزعموا أنَّ الغمامَ هو الربّ، ثم تطورت الفكرة لديهم فرأوا فيه وفي ظواهر الطبيعة الأخرى ملائكة.

لننظر نصَّ هذا المزمور المتقدم في التصوّر الديني نسبياً "باركي يا نفسي الربّ. يا ربُّ إلهي قد عَظُمتَ جداً مجداً وجلالاً لبستَ. اللابسُ النورَ كثوبٍ الباسطُ السمواتٍ كشقة. المُسَقِّفُ علاليه بالمياهِ والجاعلُ السحاب مركبَتَهُ الماشي على أجنحةِ الريح. الصانعُ ملائكتَهُ رياحاً وخُدَّامهُ ناراً ملتهبة" [1-4 مز 104].

هنا بات الإلهُ متجلياً من علٍ، وإن كان عليه أن يركب السحابَ ويمشي على أجنحةِ الريح. لكنَّ ملائكته كانوا رياحاً وخدّامه ناراً ملتهبة. أي أنَّ مظاهر الطبيعة عند الكنعانيين، والتي كانت تُشخّص كآلهة، أعيد تشخيصُها في الموروث اليهودي باعتبارها ملائكة. وهذا بلا شك تطور مهم في التفكير، لكنه لا ينبئ عن موروث مستند إلى أنبياء حقيقيين.

لننظر هذا المزمور الذي يجسّد التداخل بين الملائكة وعناصر الطبيعة: "ليكونوا مثل العصافةِ قدَّام الريح وملاك الربّ داحرهم. ليكن طريقهم ظلاماً وزلقاً وملاكُ الربِّ طاردهم" [6/5مز 35].

ومن الممكن أن يكون الملائكة أشراراً! بل وأن يكون منهم جيشٌ شرِّيرٌ بالجملة. يرد في أحد المزامير: "أرسلَ عليهم حُمُوَّ غضبه سخطاً ورجزاً وضيقاً جيش ملائكة أشرار. مهَّدَ سبيلاً لغضبهِ. لم يمنع من الموت أنفسهم بل دفع حياتهم للوباء وضرب كل بكر في مصر، أوائل القدرة في خيام حام" [49-51 مز 78]. ولنلاحظ أنَّ هذا المزمور يعبِّر عن تجربة قديمة مرتبطة بقصّتهم مع فرعون مصر، ومع ذلك، فهو يعني أنّه حتى الملائكة الذين انتصروا لبني إسرائيل هم "جيش ملائكة أشرار"، وهكذا يمكن أن يكون الملاك شريراً.

وما دام الأمرُ على هذا النحو، فإنَّ السؤال لا يكونُ مَنْ هو ملاك ولكن مَنْ مع بني إسرائيل أو اليهود ومن ضدَّهم من الملائكة. وهذا يفسِّر ما ورد في القرآن الكريم عن عدائهم لجبرائيل وميكائيل.

تعالوا نقف أمام هذا المشهد المصنوع من قبل مدوِّني التوراة لغرض في نفوسهم، يرد القول "وحدث لمّا كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه ونظر وإذا برجلٍ واقفٍ قبالته وسيفه مسلول بيده. فسار يشوع إليه وقال له هل لنا أنت أو لأعدائنا. فقال كلا بل أنا رئيس جند الرب. الآن أتيتُ فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض وسجد وقال له بماذا يكلّم سيِّدي عبده؟ فقال رئيس جند الربّ ليشوع اخلع نعلك من رجلك لأنَّ المكان الذي أنتَ واقفٌ عليه هو مقدس. ففعل يشوع كذلك" [يشوع 13-5/15].

بطبيعة الحال، تذكرنا هذه القصة مباشرة بما حدث مع موسى عليه السلام في الوادي المقدس طُوى. والغرض منها بالطبع هو القول أنَّ "الأرض المقدسة" التي قادهم إليها موسى هي "أرض كنعان" في فلسطين حسب الترجمات الدارجة لنصوص التوراة. وفي هذا محاولة تطويب لـ "الأرض المباركة" على حساب "الأرض المقدسة" في الحجاز. وكان على يشوع أن يخلع نعله من رجله ليتم هذا التطويب. لكنَّ خلعه لنعله يتم بحضور ملاك وليس بحضور الربّ عزّ وجلّ وفي هذا ما هو ليس مقبولاً. وليس مقبولاً أيضاً أن يقول يشوع للملاك "بماذا يكلّم سيِّدي عبده؟" بعد أن سقط على وجهه إلى الأرض وسجد. ولكن قد يقول البعض إنّ هذه هي الطريقة التي كان يبدي بها اليهود الاحترام وقد يشيرون بهذا الصدد إلى اللوحة

التي تصوّر ملك إسرائيل ياهو ساجداً أمام ملك آشور، ومع ذلك، تبقى المشكلة هي التالية: ألا يحتمل أنّ اليهود تعاملوا مع ملاك الربِّ على أنّه الربّ؟ وإذا كانوا قد امتنعوا في كلِّ المواضع عن ذكر اسم ملاك الربِّ إلاَّ في الأسفار الأخيرة العائدة إلى وجودهم في بابل. وفي قصصٍ تعتبر ثانوية بالنسبة إلى أصل الديانة، حيث جعلوا من الملائكة مساعدين لهم عند ملوك بابل وماري، ألا يمكننا الافتراض أنَّ مَنْ تعاملوا معه طوال الوقت على أنه "الربّ" مباشرة كان "ملاك الرب"، وهذا هو الأقرب إلى القبول والتصديق. وبالتالي، فإنّه في جميع الحالات التي قال فيها الأنبياء "وقال لي الربُّ" يجب أن نتدخل لنعدلها فتكون في صيغة "وقال لي ملاكُ الربِّ"؟ وإذا كان من يحدثهم هو (يَهْوَه) فلماذا لا يكون هو ملاكُ الربِّ الذي اختصَّ بمتابعتهم؟.

إنّه سؤال كبير وخطير بالطبع، ويجب أن تكون على الإجابة عليه بالإيجاب قرائن. وأول هذه القرائن هي مفاهيمهم هم للألوهية والربوبية، حيث يمكن أن يكون هناك آلهة عدة وأرباب عديدة.

لننظر إلى هذه المقتطفات من كتابهم المقدس.

1 ـ "قال الربُّ لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءَك موطئاً لقدميك" [مز 110]. هما ربَّان إذن وليس رباً واحداً. مَنْ الأول؟ ومن الثاني بالاسم؟ تلك مشكلة اليهود عليهم أن يفسِّروها، وليست مشكلتنا.

2 ـ "اللهُ قائم في مجمع الله. في وسط الآلهة يقضي" [مز 82]. هناك إذن آلهة كثيرون، ولهم مجمع، والله قائمٌ فيهم قاضياً، فهل يكون (يَهْوَه) واحداً من آلهة الصفِّ الثاني؟! سؤالٌ يفرضُ نفسه.

3 ـ "أنا قلتُ إنكم آلهة وبنو العليِّ كلكم. لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون" [مز 82]. وهنا ادِّعاء بأنّ كل بني إسرائيل آلهة. فما المشكلة في أن يكون هناك آلهة رؤساء، بل إن النصَّ يتضمن وجودهم، فمن هم؟.

4 ـ "لأنَّ الربَّ إلهٌ عظيمٌ ملكٌ كبيرٌ على كلِّ الآلهة" [مز 95]. ولسنا بحاجة إلى التعقيب.

5 ـ "قدِّموا للربِّ يا أبناءَ الله قدِّموا للربِّ مجداً وعزّاً. قدِّموا للربِّ مجدَ اسمِه. اسجدوا للربِّ في زينة مقدَّسة" [مز 29]. فمن هم أبناء اللهِ بالجملة. وهل الربُّ هو الله؟ أم أنَّ لكل اسمٍ مدلوله المستقل؟

6 ـ "إلهُ الآلهةِ الرب تكلم ودعا الأرضَ من مشرق الشمس إلى مغاربها. من صهيون كمال الجمال الله أشرق" [مز 50]. ومن الواضح أن اليهودي يردِّدُ حتى اليوم مثل هذا المزمور في صلواته، حيث الله عنده لا يزال "إله الآلهة"، وقد يكون المقصود بـ "الآلهة" اليهود أنفسهم.

7 ـ "لأنَّ جميع الشعوب يسلكون كلّ واحد باسم إلهه ونحن نسلك باسم الربّ إلهنا إلى الدهر والأبد" [فيحا 4/5]. وفي هذا تسليم بأنّ لكلِّ شعبٍ إلهاً مثلما لكلِّ شعبٍ ملك أو قائد. ومثل هذا المفهوم قائم على الشرك.

8 ـ "واتفق يوماً أن دخل بنو الله ليمثلوا أمام الربِّ، ودخل الشيطان أيضاً بينهم" [أيوب 1/6]. وهذا المفهوم من المرجح أنّه عائد لقوم آخرين كانوا يسمُّون أنفسهم أيضاً بـ "أبناء الإيليم". ومن الممكن أن يكون اليهود قد اقتبسوا هذا المفهوم، مثلما اقتبسوا قصّة أيوب منهم، وزاودوا عليهم في الادِّعاء أنّهم "أبناء

الله"، مع ملاحظة أنَّ الناسَ في بلادنا وحتى هذه الأيام تصف البشر بأنّهم "عيال الله" ولا تقصد أنّهم أولاده بالولادة.

9 ـ "هو ذا على الجبالِ قدما مبشِّرٍ مُنادٍ بالسلام. عيِّدي يا يهوذا أعيادكِ أوفي نذوركِ، فإنّه لا يعود يعثر فيك أيضاً المهلكُ. قد انقرضَ كلّه" [ناحوم 1/15]. إنَّ الحديثَ عن المهلك يذكرنا بالحديث عن "جيش الملائكة الأشرار"، لكن المُهلك هنا يبدو نداً للربِّ، بينما كان منفذاً لإرادة الربِّ حين ضرب المصريين. إلاَّ أنّنا نجد إشعياء يذكر المُهلك في سياق آخر، فيقول "هاءنذا قد خلقتُ الحداد الذي ينفخُ الفحمَ في النار ويخرجُ آلةً لعمله وأنا خلقتُ المُهلكَ ليخرّب. كلُّ آلةٍ صُوِّرت ضدَّك (أورشليم) لا تنجح وكل لسانٍ يقوم عليكِ في القضاء تحكمين عليه. هذا هو ميراث عبيد الرب وبرُّهم من عندي يقول الربّ" [أشعياء 16-54/17].

هذه الأمثلة، تعطي بطبيعة الحال، دليلاً على أنّ اليهود ظلوا لزمن طويل يحملون مفاهيم تقول بتعدُّد الآلهة. وإذا كان التقليد المسيحي قد وجد في مضمون المزمور الثاني سنداً لبعثة السيد المسيح، فإنّ مضمون هذا المزمور يُمَثِّلُ إشكاليةً كبرى بالنسبة لليهودية والمسيحية معاً.

يقول المزمور الثاني، وغير مذكور إن كان لداود أو سواه، ونرجح أو حتى نقطع بأنّه ليس لداود:

"لماذا ارتجّت الأممُ وتفكّرُ الشعوب في الباطل. قام ملوكُ الأرضِ وتآمرَ الرؤساءُ معاً على الربِّ وعلى مسيحه (يفترض أنّه هنا الملك الممسوح) قائلين لنقطع قيودهما ولنطرح عنّا ربطهما. الساكن في السموات يضحك. الربُّ يستهزئ بهم. حينئذٍ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه. أما أنا فقد مسحتُ ملكي على صهيون جبل قدسي. إنّي أخبرُ من جهة قضاءِ الرب. قال لي أنتَ ابني. أنا اليوم ولدتك. اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض مُلكاً لك. تحطِّمهم بقضيب من حديد. مثل إناءِ خزَّاف تكسرهم. فالآن يا أيها الملوك تعقلوا. تأدبوا يا قضاة الأرض. اعبدوا الربّ بخوف واهتفوا برعدة. قبلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق لأنه عن قليل يتقد غضبه. طوبى لجميع المتكلين عليه" [مز 2].

مَنْ هو الابن الذي وُلِدَ للربَّ؟ هل هو داود؟ أم هو عيسى بن مريم؟ أم أنه يَهْوَه حين ملك على صهيونَ جبل قدسه؟ لسنا نحن المعنيين بتحديد الإجابة على هذا السؤال العويص. ولكن من يقولون إنه عيسى عليهم أن يذكروا أنه رسول المحبّة، ولم يحطِّم أحداً بقضيب من حديد.

إن الخلط السافر بين الرب وبين ملاك الربّ، يتضح بشكل جلي تماماً، في مرحلة القضاة، ذلك أنّ المفاهيم اليهودية تطوَّرت مع الزمن ومع الأنبياء باتجاه التوحيد، وباتجاه فهم أفضل للألوهية وإن تفاقم فيها التجسيم والتجسيد. لنقف عند هذا النص من سفر القضاة: "وصعدملاك الربّ من الجلجال إلى بوكيم وقال: قد أصعدتكم من مصر وأتيت بكم إلى الأرض التي أقسمت لآبائكم (هنا لا مجال للشك بأن المتحدث وصاحب القسم وفق الرواية هو الربّ أو يهوه) وقلت لا أنكث عهدي معكم إلى الأبد (تعهد من طرف واحد حسب النص) وأنتم فلا تقطعوا عهداً مع سكان هذه الأرض (المقابل على حساب شعب آخر). هدموا مذابحهم. ولم

تسمعوا لصوتي. فماذا عملتم؟ فقلت أيضاً لا أطردهم من أمامكم بل يكونون لكم مضايقين وتكون آلهتهم لكم شركاء. وكان لما تكلّم ملاك الربّ بهذا الكلام إلى جميع بني إسرائيل أن الشعب رفعوا صوتهم وبكوا فدعوا اسم ذلك المكان بوكيم " [قضاة 1-2/5].

واضح هنا بصراح وجلاء أن ملاك الرب يتحدث على أنه هو نفسه الرب يَهْوَه بشكل صريح وسافر.

قصة ثانية: "وأتى ملاك الرب وجلس تحت البطمة التي في عفرة التي ليوآش الأبيعزري. وابنه جدعون كان يخبط حنطة في المعصرة لكي يهربها من المديانيين (هذا يفترض أن المديانيين كانوا في فلسطين وليس في الجزيرة العربية). فظهر له ملاك الربّ وقال له: "الربّ معك يا جبار البأس ". "فقال له جدعون أسألك يا سيدي إذا كان الربّ معنا فلماذا أصابتنا كل هذه وأين كلُّ عجائبه التي أخبرنا بها آباؤنا قائلين ألم يصعدنا الربّ من مصر؟ والآن قد رفضنا الربّ وجعلنا في كفِّ مديان (إلى هنا والحوار منطقي وكل شيء عادي ولكن لننظر التالي). فالتفت إليه الربّ (أي أنَّ ملاك الربّ هو الربّ) وقال اذهب بقوتك هذه وخلّص اسرائيل من كف مديان. أما أرسلتك؟" [قضاة 11-16/14]. ونتابع بقية القصّة مع جدعون لنلاحظ كيف يتكرر الخلط بين الرب وملاك الربّ "فقال له ملاكُ الله خذ اللحم والفطير وضعهما على تلك الصخرة واسكب المرق. ففعل كذلك. فمدّ ملاك الرب طرف العكاز الذي بيده ومسّ اللحم والفطير فصعدت نار من الصخرة وأكلت اللحم والفطير. وذهب ملاكُ الربِّ عن عينيه. فرأى جدعون أنّه ملاكُ الربِّ فقال جدعون آه يا سيدي الربّ لأنّي قد رأيت ملاكَ الربِّ وجهاً لوجه. فقال له الربّ السلام لك. لا تخف. لا تموت. فبنى جدعون هناك مذبحاً للربّ ودعاهُ يَهْوَه شَلُوم" [قضاة 20-6/24].

ملاكُ الربِّ إذن، وكما هو واضح كل الوضوح من هذه القصة ليس رسولاً من قبل الربّ (العرف بشكل عام يعتبر جبرائيل هو هذا الرسول واسمه بالسرياني جبرا = رسول وإيل = الله)، وإنّما هو الشكل الذي يظهر به الربّ يَهْوَه، سواء اختار شكل رجل أو سحابة أو ناراً في الوقائع الأسبق.

قصة ثالثة في المنحنى نفسه: "فتراءى ملاك الرب للمرأة (زوجة منوح) وقال لها: ها أنت عاقر لم تلدي، ولكنك تحبلين وتلدين ابناً. والآن فاحذري ولا تشربي خمراً ولا مسكراً ولا تأكلي شيئاً نَجِساً. فها إنك تحبلين وتلدين ابناً ولا يعلُ موسى رأسَه لأنّ الصبيّ يكون نذيراً لله من البطن وهو يبدأ يخلّص إسرائيل من يد الفلسطينيين " [قضاة 3-13/5]. "فدخلت المرأة وكلّمت رجلها قائلة. جاءَ إليّ رجل الله ومنظره كمنظر ملاك الله مرهب جداً ولم أسألهُ من أين هو ولا هو أخبرني عن اسمه ". [قضاة 3/6]. وفي مشهد لاحق من القصّة "فقال منوح لملاك الرب (ولم يكن قد عرف بعد أنه ملاك) دعنا نُعوِّقك ونعملُ لك جدي معزى. فقال ملاك الرب لمنوح: ولو عوقتني لا آكل من خبزك وإن عملت محرقة فللربّ أصعدها. لأنّ منوح لم يعلم أنه ملاك الرب. فقال منوح لملاك الرب ما اسمك؟ حتى إذا جاء كلامك (أي تحقَّق) نكرمك. فقال له ملاك الرب لماذا تسأل عن اسمي وهو عجيب. فأخذ منوح جدي المعزى والتقدمة وأصعدهما على الصخرة للربّ. فكان عند صعود اللهيب عن المذبح نحو السماء أنّ ملاك الربّ صعد في لهيب المذبح

ومنوح وامرأته ينظران. فسقطا على وجهيهما إلى الأرض. ولم يعد ملاك الربّ يتراءى لمنوح وامرأته. حينئذ عرف منوح أنّه ملاك الربّ. فقال منوح لامرأته: نموت موتاً لأننا قد رأينا الله. فقالت له امرأته لو أراد الربُّ أن يميتنا لما أخذ من يدنا محرقة وتقدمة ولما أرانا كل هذه ولما كان في مثل هذا الوقت أسمعنا مثل هذه. فولدت المرأة ابناً ودعت اسمه شمشون " [قضاة 15-13/24].

هنا نحن مرَّة أخرى نلتقي مع المفهوم القائل إنَّ ملاك الربّ هو الربّ ذاته أو هو الله.

ومن هنا نفهم أن يَهْوَه ـ في نظرهم ـ كان هو الربّ وهو ملاكُ الربّ أيضاً. وهذا المفهوم لم يأتِ من فراغ. إذ يجب أن نعود إلى قول الربّ لموسى في سفر الخروج عن الملاك الذي يرسله معهم "لأنّ اسمي فيه ". ومادامو يسمُّون الربّ باسم (يَهْوَه)، فلا بُدَّ وأن يكون ملاكه هو (يَهْوَه) أيضاً. وهكذا تكون ظهورات الملاك مراراً وتكراراً، هي ظهورات لـ (يَهْوَه) نفسه، أي ظهورات للربّ. وهذا ما يُفسِّرُ مزاعم أنبيائهم المتكررة أنّهم رأوا الربّ، مع أن الربّ لم يُرِ نفسه لموسى بداية، وقال له "إنّ الإنسان لا يراني ويعيش "، فكيف رآه الأنبياء اللاحقون وعاشوا؟

إنّ هذا المفهوم يتكرر أيضاً في قصّة صموئيل النبي، الذي كانت أمه قد نذرته للكهانة إذا سمع الله دعاءها وحملت به، فأودعته عند الكاهن عالي. فحين يأتي ملاكُ الربّ مراراً لدعوة الصبي صموئيل "فهم عالي أنّ الربّ يدعو الصبي. فقال عالي لصموئيل اذهب اضطجع ويكون إذا دعاك تقول تكلم يا رب لأن عبدك سامع [صموئيل الأول 8-3/9] ويمتثل الصبي لتعليمات الكاهن عالي "فجاء الرب (هنا لم يشأ مدوِّن النص أن يقول ملاك الرب كالمعتاد) ودعا كالمرات الأول صموئيل صموئيل. فقال صموئيل تكلم لأنّ عبدك سامع. فقال الربّ لصموئيل هو ذا أنا فاعل أمراً في إسرائيل كلُّ مَنْ سمع به تطنُّ أذناه" [صموئيل الأول 3/11-10].

ويبدو أنّه لكثرة عدد من ادعوا النبَّوة من بني إسرائيل ظهرت نغمة لدى بعض الأنبياء تنكر الوحي، ومنها قول ارميا النبي "وإذا سألك هذا الشعب أو نبي أو كاهن قائلاً ما وحي الربّ؟ فقل لهم أيّ وحي؟ هكذا تقولون الرجل لصاحبه والرجل لأخيه بماذا أجاب الربّ وماذا تكلّم به الربّ؟ أما وحي الربّ فلا تذكروه بعد لأنّ كلمة كل إنسانٍ تكون وحيه إذ قد حرفتم كلام الإله الحيّ ربّ الجنود إلهنا" [ارميا 23-23/26].

كذلك كان هناك أنبياء يعتمدون على الحلم. وعن هؤلاء نقل أرميا عن الربّ القول "قد سمعتُ ما قالته الأنبياء الذين تنبأوا باسمي بالكذب قائلين حلمتُ حلمتُ. حتى متى يوجد في قلب الأنبياء المتنبئين بالكذب بل هم أنبياء خداع قلبهم. الذين يفكّرون أن ينسُّوا شعبي اسمي بأحلامهم التي تقصُّونها الرجل على صاحبه كما نسي آباؤهم اسمي لأجل البعل" [ارميا 25-23/27]. وواضح أنَّ المشار إليهم هنا بأنهم نسوا اسمه لأجل البعل هم أهل مملكة الشمال إسرائيل (السامرة)، وهؤلاء كانوا أصحاب التقليد الإيلي وليس اليهوي. لكن ارميا يحذر يهوذا وهيكلها من مصير مماثل لمملكة الشمال قائلاً "إن لم تسمعوا لي لتسلكوا في شريعتي التي جعلتها أمامكم لتسمعوا لكلام عبيدي الأنبياء الذين أرسلتهم أنا إليكم مبكراً ومرسلاً إياهم فلم

تسمعوا. اجعل هذا البيت (هيكل أورشليم) كشيلوه وهذه المدينة (أورشليم) اجعلها لعنة لكل شعوب الأرض" [ارميا 4-26/6].

لكنَّ إرميا الذي وقف بقوّة ضد اليهود المتجهين للهجرة إلى مصر بعد السبي البابلي، وهاجر بعد ذلك معهم نجده يقول "لذلك اسمعوا كلمة الربّ يا جميع يهوذا الساكنين في أرض مصر. هاءنذا قد حلفت باسمي العظيم قال الربّ إنَّ اسمي لن يُسَمَّى بعد بفم إنسان ما من يهوذا في كل أرض مصر قائلاً حي السيِّد الرب" [ارميا 44/26].

ترى هل كان قول إرميا هذا الذي كذبته الوقائع كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة وكل ثانية، يتكلم باسم الرب مباشرة أم عن وحي أم عن حلم، حين ادّعى أن الربّ حلف باسمه العظيم. ألاّ ينطق بعد بفم إنسان ما من يهوذا في مصر، إلاّ في حالة واحدة، وهي أن يكون يَهْوَه ليس اسمه. ولكن حتى في هذه الحالة، فهم يقرُّون أيضاً باسم الجلالة بصيغة إلهيم ويلفظونه. ولم ينقطع لليهود وجود في مصر منذ ذلك الزمن وحتى الآن.

فهل كان أرميا يقول غير الحق، أم كان عزرا وشركاؤه ممن دوَّنوا أسفار الأنبياء قد قوَّلوهم ما أرادوا؟!.

إنّ قصّة العلاقة المباشرة مع الربّ من خلال ملاكه، تستمر وفق ادِّعاء التوراة في زمن داود النبي الذي فضلوا له صفة الملك على صفة النبوَّة. وهم يوردون بهذا الصدد قصّة لا يقبلها العقل، تجعل الربّ ينتقم من إثم داود بإحصائهم على نحوٍ مرعب. تقول القصّة "فجعل الربّ وبأ في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر السبع سبعون ألف رجل. وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الربّ عن الشر وقال للملاك المهلك الشعب كفى. الآن رُدَّ يدك. وكان ملاكُ الربّ عند بيدر أرونة اليبوسي (في موضع المسجد الأقصى حيث الأرض صخرية لا تزرع!). فكلّم داود الربّ عندما رأى الملاك الضارب الشعب وقال ها أنا أخطأت وأنا أذنبتُ وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا " [صموئيل الثاني 15-24/16]. وواضح أنّ الربّ كان موجوداً في صورة ملاك الربّ الذي كان عند بيدر أرونة اليبوسي، بينما كان الملاك المهلك يقوم بعمله. وهكذا كان بوسع داود أن يخاطبه مباشرة.

أما في زمن سليمان، وبعد أن بنى الهيكل، فقد كان على الرب أن يغير مكان سكناه. يقولون "وكان لمّا خرج الكهنة من القدس (أحد أقسام الهيكل الداخلية) أن السحاب ملأ بيت الربّ. ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأنّ مجد الربّ ملأ بيت الرب. حينئذ تكلم سليمان. قال الربّ إنه يسكن في الضباب. إنّي قد بنيت لك بيت سكنى مكاناً لسكناك إلى الأبد " [الملوك الأول 10-8/13].

هذا النص التوراتي منقول حتماً بحرفيته عن ملحمة "دورة بعل" الأوغاريتية حيث حظي بعل ببيت (هيكل) في جبل صفون.

ولكن السؤال أهي إرادة الربّ أم إرادة سليمان عليه السلام هي التي لم تتحقق في أن يكون الهيكل بيتاً لسكنى الربّ إلى الأبد، أم أنّ هذه الإرادة قد تحققت ببناء المسجد الأقصى في القدس لا كبيت سكن للربّ، بل كبيت عبادة لله يتوجه منه المؤمنون بعيونهم وقلوبهم باتجاه السماء؟.

لقد كـان علـى الـدين اليهـودي، أو ديـن مـا قبـل اليهـود إنْ صـحّ التعبيـر، أن يمـرّ بمراحـل عديـدة، وتجـارب مروِّعة، قبل أن يبدأ بطرح أفكار تقترب بـه مـن التوحيـد. ومـن ذلـك قـول إشـعياء النبـي "يـا رب الجنـود إلـه إسرائيل الجالس فوق الكروبيم أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض. أنـت صـنعت السـموات والأرض" [إشعياء 37/16]. فلا شك أن هذه الصرخة تمثل صوتاً مختلفاً باتجـاه الإقـرار بـأنّ الله هـو "رب العـالمين"، لكنه أجلسه فوق الكروبيم داخل الهيكل. ومثل هذا المنطق الجديد الذي يتعامل مع إلهٍ متعالٍ يمكـن أن نلمسـه بشفافية في المزمور 103، حين يقول المصلّي:

"الربّ في السموات ثبَّت كرسيَّه ومملكته على الكل تسود. باركوا الربّ يـا ملائكتـه المقتـدرين قـوّة الفـاعلين أمرهُ عند سماع صوت كلامه. باركوا الربّ يا جميع جنوده خدَّامه العاملين مرضاته. باركوا الرب يا جميـع أعماله في كل مواضع سلطانه. باركي يا نفسي الرب" [مز 103].

ولكن حتى في مثل هذا النص، يبقى من الضروري أن نفهم المقصـود بـالقول "ومملكتـه علـى الكـل تسـود"، هل هو فهم يماثل الفهم المسيحي والإسلامي أم أنّ المقصـود هـي "مملكـة إسـرائيل"، ممـا يفسّـر كـل أدوار الفساد في الأرض التي يمارسونها حتى الآن في سبيل هذه المملكة.

لكن هذا التطور كان على الورق أكثر مما كان في الواقع، وهذا إشعياء نفسه يقول عنهم "وامـتلأت أرضـهم فـضة وذهبـاً ولا نهايـة لكنـوزهم، وامـتلأت أرضـهم خـيلاً ولا نهايـة لمركبـاتهم. وامـتلأت أرضـهم أوثانـاً يسجدون لعمل أيديهم لما صنعته أصابعهم" [إشعياء 7-2/8].

وفي مثل هذا الحال، يبدو مفهوماً أن نراه يصرخ "أين الذي أصعدهم من البحر مع راعي غنمـه؟ أيـن الـذي جعل في وسطهم روح قدسـه؟ الـذي سيّر ليمـين موسـى ذراع مجـده. الـذي شـقَّ الميـاه قـدامهم ليـصنع لنفسه اسماً أبدياً" [إشعياء 11-63/12].

إنّ مفهوم الروح المقدس هنا هو مفهوم جديد سنجده يحتـل مكانـاً بـارزاً فيمـا بعـد فـي المسـيحية. ولكـن مـاذا كان يقصد بتعبير "روح قدسه"؟ أكان هو المـلاك الـذي جعـل فيـه اسـمه؟ وهـل كـان ذلـك المـلاك هـو يَهْوَه؟ وعلى هذا النحو يكون يَهْوَه بمثابة الروح القدس للربّ.

يقول إشعياء "في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرتُه خلَّصهم. بمحبته ورأفته هو فكهم ورفعهم وحملهم كـل الأيـام القديمـة" [إشـعياء 63/9] "ولكـنّهم تمـرَّدوا وأحزنـوا روحَ قدسـه فتحـول لهـم عـدواً وهـو حـاربهم" [إشعياء 63/10].

فهل ملاك حضرته هو عينه روح قدسه هو عينه هو (أي يَهْوَه)؟

وإذا كان بوسعنا أن نفهم منطق من يرون "ملاك الله" أو "رجل الله" فيقولون إنّه الله، فإنّ إشـعياء ادّعـى أنّـه رأى مشهد الحضور الإلهي على نحو أشبه بالمشهد الـذي كـان يصـور بـه الإلـه آشـور. يقـول إنّـه "فـي سـنة وفاة عُزيَّا الملك رأيتُ السيد جالساً على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوقه لكـل واحد ستة أجنحة. بـاثنين يغطـي وجهـه وبـاثنين يغطـي رجليـه وبـاثنين يطيـر. وهـذا نـادى ذاك وقـال قـدوس

قدوس قدوس ربُّ الجنود مجده ملءَ كل الأرض. فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً. فقلت ويل لي إني هلكت لأنّي إنسان بخس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأنّ عينيَّ قد رأتا الملك ربَّ الجنود. فطار إليَّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومسَّ بها فمي وقال إنّ هذه قد مسَّت شفتيك فانتزع إثمك وكفِّر عن خطيتك. ثم سمعت صوت السيد قائلاً من أرسل ومن يذهب من أجلنا؟ فقلت: هاءنذا أرسلني " [إشعياء 1-6/8].

إنَّ إشعياء على هذا النحو رأى السيِّد، ليس على هيئة "رجل الله" أو "ملاك الله" وإنما فوق عرشه أو كرسيِّه تحفّ به السرافيم. وهو أيضاً كالعادة تطيّر من هذه الرؤية وقال "ويل لي إني هلكت"، لكنّ الجمرة حلّت المشكلة وجعلته طاهراً. ولنلاحظ هنا أنّ ما بدأ اليهودي يخاف منه هي خطيئته بالذات، أي أنه بدأ يشعر بهذه الخطيئة وذلك بسبب الهزائم التي مني بها.

سيقدم لنا حزقيال بعد ذلك بحوالي قرن من الزمن مشهداً يطور فيه ما رآه إشعياء، لما يمكن أن يفسّر بأنه حضور إلهي كامل. يقول وكان عندها بين المسبيين على نهر خابور "فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال. سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعانٌ ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار. ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها. لها شبه إنسان. ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة. وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول. وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة. ووجوهها وأجنحتها لجوانبها الأربعة. وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه. لم تَدُرْ عند سيرها. كل واحد يسير إلى جهة وجهه. أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها ووجه ثور من الشمال لأربعتها ووجه نسر لأربعتها. فهذه أوجهها " [حزقيال 4-1/10].

ودون أن نتابع التفاصيل الطويلة للمشهد الذي رآه حزقيال بما فيه وصفه لكيفية السير والحركة..الخ، ننتقل إلى الرؤية الأهم وهي ادعاؤه رؤية الرب. يقول "وفوق المقبَّب الذي على رؤوسها شبه عرش كمنظر العقيق الأزرق وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق. ورأيت مثل منظر النحاس اللامع كمنظر نارٍ داخله من حوله من منظر حقويهِ إلى فوق ومن منظر حقويه إلى تحت رأيت مثل منظر نار ولها لمعان من حولها كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطرٍ هكذا منظر اللمعان من حوله. هذا منظر شبه مجد الربّ" [حزقيال 26-1/28].

إنَّ حزقيال الذي رأى كلّ هذا ووصفه بأدقِّ التفاصيل، وقد قفزنا عن جزء كبير منها. يقول بعد ذلك مباشرة "ولمّا رأيتُهُ خررتُ على وجهي وسمعت صوت متكلم" [حزقيال 1/28]. فهل خرَّ على وجهه مباشرة أم كان عليه أن ينتظر حتى يرصد كل التفاصيل؟.

بعد هذا، فإنّ الربّ سيكلم حزقيال، مباشرة طبعاً، وسيقول له "وقال لي يا ابن آدم أنا مرسلك إلى بني إسرائيل إلى أمة متمردة قد تمرّدت عليّ. هم وآباؤهم عصوا عليّ إلى ذات هذا اليوم. والبنون القساة الوجوه والصلاب القلوب أنا مرسلك إليهم " [حزقيال 3-2/4].

إنَّ حزقيال سيتلقى في هذه المناسبة سفراً مكتوباً، ولكن ليس على لوحين من حجر مكتوبين بإصبع الله كما حدث مع موسى عليه السلام، ولكن بطريقة أخرى، وهي أن يأخذ الدرج المكتوب فيأكله، فصار في فمه كالعسل حلاوة، وكان بوسعه بعد ذلك أن ينقل إلى بني إسرائيل كلَّ ما في السفر.

ونحن لن ننكر على حزقيال إمكانية أن يكون قد حدث معه هذا، لكن مسألة رؤيته للموكب الإلهي، وإن أسماهُ بعد كل التفاصيل "منظر شبه مجد الرب"، ومسألة كلام الربّ معه مباشرة، هما أمران يثيران التساؤل. فهل كان يتحدث عن الربّ عزّ وجلّ أم عن "منظر شبه مجد الربّ" أم عن "ملاك الربّ"؟ أم أن حزقيال كان يعاني من مرض عصبي يقود إلى هلوسات سمعية وبصرية؟.

إنَّ هذا الخلط بين الرب وبين ملاك الربّ على نحو مثير للحيرة، سيتأكد بعد ذلك أيضاً بحوالي القرن (حوالي 500 ق.م) في سفر زكريا. وللتأكد من ذلك يكفي أن نتمعَّنَ في هذا النص: "يا يا اهربوا من أرض الشمال يقول الربّ. فإنِّي قد فرقتكم كرياح السماء الأربعة يقول الربُّ. تنجِّي يا صهيون الساكنة في بابل. لأنّه هكذا قال رب الجنود. بعد المجد أرسلني إلى الأمم الذين سلبوكم لأنّه من يمسُّكم يمسُّ حدقة عينيه. لأنّي هاءنذا أحرك يدي عليهم فيكونون سلباً لعبيدهم. فتعلمون أنّ ربَّ الجنود قد أرسلني " [زكريا 6-2/9]. فمن هو المتكلم في هذا النص؟ إنّه يبدو رباً، ولكنّه دون مستوى رب الجنود ولمن يشك في هذا الاستنتاج نتابع مع زكريا "ترنحي وافرحي يا بنت صهيون لأنّي هاءنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الربّ. فيتصل أمم كثيرة بالربِّ في ذلك اليوم ويكونون لي شعباً. فأسكن في وسطك فتعلمين أنّ ربّ الجنود قد أرسلني إليك. والربّ يرث نصيبهُ في الأرض المقدسة ويختار أورشليم بعد. اسكتوا يا كل البشر قدام الرب لأنّه قد استيقظ من مسكن قدسه" [زكريا 10-2/13].

واضح هنا تماماً، وبشكل لا لبس فيه أن "الرب" هو دون "رب الجنود".

وإذا كنّا قد ابتدأنا البحث بذكر وصفهم لموسى على أنّه إله، فإنّهم يدَّعون أخيراً أن بيت داود سيصيرون مثل الله. يقول زكريا "في ذلك اليوم يستر الربُّ سكان أورشليم فيكون العاثر منهم في ذلك اليوم مثل داود وبيتُ داود مثل الله مثل ملاك الرب أمامهم" [زكريا 12/8].

إنّ زكريا لا يدعُ في مسألة المطابقة بين الرب وبين ملاك الرب مجالاً لأي التباس حين يقول "وأراني يهوشع الكاهن العظيم قائماً قدام ملاك الرب والشيطان (دخلت فكرة الشيطان متأخرة في الموروث اليهودي) قائم عن يمينه ليقاومه فقال الربُّ للشيطان لينتهرك الربّ يا شيطان لينتهرك الربّ الذي اختار أورشليم وكان يهوشع لابساً ثياباً قذرة وواقفاً قدام الملاك. فأجاب وكلّم الواقفين قدَّامه قائلاً انزعوا عنه الثياب القذرة. وقال له انظر قد أذهبتُ عنك إثمك وألبسك ثياباً مزخرفة. فقلت ليضعوا على رأسه عمامة طاهرة. فوضعوا على رأسه العمامة الطاهرة وألبسوه ثياباً وملاك الربّ واقف. فأشهد ملاك الربّ على يهوشع قائلاً هكذا قال ربُّ الجنود إن سلكت في طرقي وإن حفظت شعائري فأنت أيضاً تدينُ بيتي وتحافظ أيضاً على دياري وأعطيك مسالك بين هؤلاء الواقفين" [زكريا 1-3/7].

من شاءَ أن يشغل نفسه في حلِّ ألغاز هذا النص، وتحديد معاني "ربّ الجنود" و"الربّ" و"ملاك الربّ" والوعد إلى يهوشع الكاهن في أن يدين بيت الربّ ويحافظ على دياره، ويعطيه أيضاً مسالك بين الواقفين في الحضرة الإلهية من شاء ذلك فليفعل!.

ولا غرابة على قاعدة مثل هذه المفاهيم أن نرى الربّ وملائكته معاً يتواجدون في أورشليم وبيد أحد الملائكة حبل قياس، ليقيس أورشليم فيرى كم عرضها وكم طولها! وأنْ نجد الربّ يقول لملاك "إجر وكلّم هذا الغلام قائلاً. كالأعراء تُسكن أورشليم من كثرة الناس والبهائم فيها. وأنا يقول الربّ أكون لها سور نار من حولها وأكون مجداً في وسطها" [زكريا 1-2/5]. فالمفهوم اليهودي يصرُّ على التمسُّك في أن يبقى الربّ موجوداً وجوداً مادياً، بصورة أو بأخرى، وسط شعبه!.

إن هذا المنطق لن يفاجئنا أبداً، حين يجري الحديث عن يوم آتٍ يتطلع إليه اليهودي "ويكون في ذلك اليوم أن الربّ يطالب جند العُلاءِ في العلاء وملوكَ الأرضِ على الأرض. ويجمعون جميعاً كأسارى في سجن ويغلقُ عليهم في حبس. ثم بعد أيام كثيرة يتعهَّدون. ويخجل القمرُ وتخزى الشمسُ لأنَّ ربَّ الجنود قد ملكَ في جبل صهيون وفي أورشليم وقدَّام شيوخِهِ مُجِّد" [إشعياء 21-24/23]. فإذا كان حبس ملوك الأرض مفهوماً، فكيف نفهم حبس جند العلاء؟ وما هي هذه الغاية العظمى لربّ الجنود الذي يفترض أن يكون ربّ كل شيء في أن يصير ملكاً على جبل صهيون وأورشليم، وهو الذي يملك الكون بكامله؟.

ولا بُدَّ أن مفهوم اليهود للربوبية ظلَّ ضيقاً، وهم لم يستطيعوا أبداً أن يرتقوا إلى الاعتراف بربِّ العالمين، وأن ينظروا إلى أنفسهم على أنّهم جزء من عباد اللهِ، وما عليهم إلاّ بالتقوى ليتقربوا منه وينالوا محبته وغفرانه. وهذا ما جعل إرسال السيد المسيح عيسى بن مريم إليهم أمراً منطقياً في سياق تطور الفكر الديني لعلّه ينجح في أن يُبَدِّلَ من منطق رؤيتهم للأمور، بما في ذلك اعتقادهم أن الله هو يَهْوَه.

* * *

هوامش (9) يَهْوَه هل كان إلهاً أم ملاكاً؟:

(1): د. وديع بشور، الميثولوجيا السورية أساطير أرام، ص16.

(2): ماسينيون، أخبار الحلاج، م.س، ص47.

(3): الكتاب المقدَّس ـ كتب التاريخ، ص886.

(*): سبق أن ورد معنا لفظ (قعل) في ملحمة دورة بعل حيث كان على الرسول أن يبدأ منها رحلته للوصول إلى كثار وخاسِس لإبلاغهما بقرار بناء بيت للإله يم (ي و) وقد أوردنا في حينه اسم المدينة الكنعانية (قعيلة) كاحتمال، ولكن من الواضح أنّ الأساس هو الجبل.

(**): لنلاحظ هنا أنّه في حالة قلب الجيم إلى ياء في النطق، تحققت معنا كلمة (ياه) وهي الأصل في اسم يَهْوَه.

(4): علي فهمي خشيم، م.س، ص490، وص491.

(5): نفس المصدر، ص491.

(6): نفس المصدر، ص491.

(7): نفس المصدر، ص492.

* * *

(10)

وقفة عند الرؤية المسيحية

منذ مرحلة الإعداد لهذه الدراسة، وسؤال مُحيِّر يطرح نفسه: إذا كان اسم يسوع يعني "يَهْوَه يخلص"، فلماذا لم يكن (يَهْوَه) إلهاً للمسيحيين؟ ولماذا قال التقليد الإسلامي بأنّ اسم "عيسى" وليس "يسوع" و "ابن مريم" ولم يقل "ابن الله"؟.

لنؤجل الآن التفكير في هذا السؤال، ولنبدأ مع هذا النص من انجيل متى. "فإنَّ من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه. ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه. ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه" [متى20-23/22].

نخلص هنا إلى أن "الساكن" في الهيكل هو غير اللهِ الجالس على عرشهِ. ولا داعي الآن لأن نتعجّل، فنقرر إن كان الساكن في الهيكل هو (يَهْوَه) أو بكل بساطة الكهنة. ولكن بالتأكيد إنّ اللهَ لا يُحَدُّ في مكان ضاقَ أو اتسع ليتخذه سكناً، وقدسية أماكن العبادة تنبع من تطهيرها واجتماع الناس فيها لأداء العبادة لله.

وقد نقترب من فهم التصور حين يقول متى على لسان السيّد المسيح "أيضاً سمعتم أنّه قيل للقدماء لا تحنث بل أوفِ للربّ أقسامك، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماءِ لأنّها كرسيّ الله ولا بالأرض لأنّها موطئ قدميه ولا بأورشليم لأنّها مدينة الملك العظيم" [متى 33-5/35]. وبالطبع، يظل مفهوم "الملك العظيم" موضعاً للتساؤل. ولكنّنا قد نصل إلى هذا المفهوم من قوله "ومتى جاء ابن الإنسان (المسيح) في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسيّ مجده. ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميِّز بعضهم من بعض كما يميِّزُ الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه، والجداء عن اليسار. ثم يقول المَلِكُ للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المُعَدّ لكم منذ تأسيس العالم" [متى 31-25/34]. "ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدّة لإبليس وملائكته" [متى 25/41]. فالملك العظيم إذن هو السيد المسيح، وملكه على أورشليم (القدس) يكون يوم القيامة. ولكن لوقا له رواية أخرى، فهو يقول إن الملاك جبرائيل قالَ للعذراء مريم "وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيماً وابن العليّ يُدعى ويعطيه الرب الإله كرسيّ داود أبيه. ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية" [لوقا 31-1/33]. ونفهم من ذلك أنّ ملكه هو ملك معنوي. بين المؤمنين بدعوته، ولكنّ ملكه في هذه الحالة ليس على كرسيّ داود الذي وصف بابنه مع أنه جاء من الروح القدس وليس من أب بشري، ولا على بيت يعقوب فقط. فملكه اليوم يشملُ الكثير من شعوب العالم، وأتباعه موجودون بين كل شعوب العالم. وحتى مسألة البنوَّة لداود هذه، فقد جاء حولها في انجيل متى "وفيما كان الفريسيّون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً: ماذا تظنون في المسيح؟ ابن مَنْ هو؟ قالوا له: ابنَ داود. قال هلم فكيف يدعوهُ داود بالروح رباً قائلاً قال الربّ لربّي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءكَ موطئاً لقدميك. فإن كان داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه؟ فلم يستطع أحد أن يجيبهُ بكلمة" [متى 41-22/46].

بالطبع، فإنّ السؤال الحائر الذي قد يشغل الكثير من القراء ليس معرفة نسب (الربّ)، وإنّما كيف يستقيم القول "قال الرب لربّي"، فهل هناك ربَّانِ أم ربٌّ واحد؟.

واقع الأمر أنَّ كلمة (ربّ) في اللغة الآرامية، وفي التقليد المسيحي أيضاً تعني "معلم"، ولكن كلمة "رب" حيثما وردت في العهد القديم تعني "يهوه". فهل كان لليهود رباً بمعنى الإله الأعظم (الله) أم كان معلماً؟ إلاّ أنَّ عبارة "قال الربُّ لربّي" هي من العهد القديم، وبالتالي فهي تعني أنَّ اليهود كانوا يميِّزون بين ربّ وربّ. ولكن هذا التمييز أيضاً لا يزال موجوداً عندنا في اللغة العربية، فنحن نقول "ربُّ العائلة" أو "ربُّ العمل"، ولكنّ كلمة (الربّ) بالمطلق فتعني عندنا الله عزَّ وجلّ.

لسنا هنا بصدد مناقشة اللاهوت المسيحي، ولكن العبارة التي أوردناها سابقاً في صيغة "ومتى جاء ابن الإنسان في مجده"، سنجدها في موقع آخر في صيغة أخرى وضمن الإنجيل نفسه: "فكما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء هذا العالم. يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوتِهِ جميع

المعاثر وفاعلي الإثم ويطرحونهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. حينئذ يضيءُ الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم" [متى 40-13/43].

وعلى هذا النحو نجد "ابن الإنسان"، أي السيد المسيح ولا بُدّ أنّه صمّم على هذه التسمية حتى لا يحدث الخلط، ينظر إليه باعتباره إلهاً يرسل ملائكته لمحاسبة الناس. فإذا كان مثل هذا المفهوم قد تسلّل إلى المسيحية مع "ابن الإنسان" فكيف أن نستبعد أن يكون قد تسلل إلى اليهودية مع "يَهْوَه"، الذي لم يكن على كل حال إنساناً، وإنّما الأرجح أنّه ملاك! وكما يرى فرويد شيطان؟. وكما سيرد مع رائيل "رجل قادم من كوكب في الفضاء" كما سنرى لاحقاً.

للعلم، فإنّ إنجيل متى يورد صيغة ثالثة للواقعة المنتظرة ذاتها من شأنها أن تصحح شيئاً ما الصيغتين السابقتين، حين يقول "فإنّ ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله" [متى16/27] فإذا فهمنا عبارة "في مجد أبيه" هنا على أنّها "في معيّته" كان التصوُّر مقبولاً، وأما إذا فهمنا في نيابته عنه أو تقمّصه لمجده اختلف المدلول. لقد حدث هذا الخلط رغم أنّ متى نفسه يورد واقعة تقول "وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أيّ صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية. فقال له لماذا تدعوني صالحاً، ليس أحدٌ صالح إلاّ واحد وهو الله" [متى 16-19/17]. وأما لوقا فينقل واقعة أخرى لها الدلالة ذاتها على حرص السيد المسيح على عدم إساءة فهمه إذ يقول "وأقول لكم كل من اعترف بي قدام الناس يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله. ومن أنكرني قدام الناس ينكر قدام ملائكة الله. وكل من قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من جدف على الروح القدس فلا يغفر له" [لوقا 8-12/10].

يقول التقليد المسيحي في مخاطبة اليهود "يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان أنتم دائماً تقاومون الروح القدس. كما كان آباؤكم كذلك أنتم. أيُّ الأنبياء لم يضطهدهُ أنبياؤكم وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذي أنتم الآن صرتم مسلّميه وقاتليه، الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه" [أعمال الرسل 51-7/53].

إنّ ما يهمنا هنا هو القول "بترتيب ملائكة"، فنحن حين نراجع التقليد اليهودي وكما أوضحناه في الفصل السابق لن نلتقي مع ذكر اسم ملاك واحد ينسب إليه موافاتهم بالناموس، وإنّما وجدنا دائماً أنَّ ملاك الربّ هو شكل يتجلّى فيه الربّ. ولذلك تطابق بالنسبة ليَهْوَه أنّه الربّ وأنّه هو أيضاً ملاك الربّ.

وفي رسالة بولس الرسول إلى أهالي كولوس، نجده يقول "فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هي ظل الأمور العتيدة وأما الجسد فللمسيح. لا يخسركم أحد الجعالة راغباً في التواضع وعبادة الملائكة متداخلاً فيما لم ينظره منتفخاً باطلاً من قبل ذهنه الجسدي وغير متمسِّك بالرأس الذي منه كل الجسد بمفاصل وربط متوازراً ومقترناً ينمو نمواً من الله" [16-19 اصحاح2].

فهل كان اليهود يعبدون ملاكاً وليس إلهاً؟

لعلّنا نجد الجواب في أعمال الرسل، حين يرد القول "هذا موسى الذي أنكروه قائلين من أقامك رئيساً وقاضياً هذا أرسله الله رئيساً وفادياً بيد الملاك الذي ظهر له في العليقة" [أعمال الرسل 7/35]. ونحن نعرف أنّهم قالوا إنّ من ظهر هو (يَهْوَه). كما يرد النص "هذا هو (موسى) الذي كان في الكنيسة في البريّة مع الملاك الذي كان يكلّمه في جبل سيناء ومع آبائنا. الذي قبل أقوالاً حيَّة ليعطينا إياها" [أعمال الرسل 7/38]. ونحن نعرف أنّ اليهود قالوا إنّ من كلمة كان (يَهْوَه). ألا يرجح هذا كله أنّ يَهْوَه كان ملاكاً؟

لعلَّ هذه المسألة هي التي تفسِّر قول السيد المسيح للمرأة اليهودية "أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجد لما نعلم. لأنّ الخلاص هو من اليهود. ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأنَّ الأب طالب مثل هؤلاء الساجدين له. الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" [يوحنا 21-4/24].

هنا يتوجب أن نعود إلى التذكير بما ورد في الفصل الرابع عن حديث بولس الرسول عن "رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن في جميع أبناء المعصية". وتبقى المشكلة أكان رئيس سلطان الهواء هذا ملاكاً أم من النوع الذي اختاره فرويد للتوصيف؟.

إذا ملنا إلى الاعتقاد بأنّه كان ملاكاً، فربما كان ملاكاً على نمط الملكين ببابل هاروت وماروت اللذين نجهل قصتهما التفصيلية. ونحن نرفض بالطبع تصنيف الملائكة بين أبرار وأشرار مثلما يفعل اليهود. ولنتذكر قول السيد المسيح "فإنّ هذا (يوحنا المعمدان = يحيى النبيّ) هو الذي كتب عنهُ ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك. الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان. ولكن الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه" [متى 10-11/11].

وليس في الاستنتاج الذي وصلنا إليه ما هو مثير أو مدهش، خاصة في ضوء العقلية التي كانت سائدة في تلك الأيام. ولننظر في هذه الفقرة من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس "لأنّه وإنْ وجد ما يُسَمَّى آلهة سواءٌ كان في السماء أو على الأرض كما يوجد آلهة كثيرون. لكن لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له. وربّ واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" [5-8/6]، فإذا نحن لم نفهم كلمة "ربّ" هنا على أنّها "معلم" وليس رباً، وأحللنا اسم يَهْوَه محل اسم يسوع فهل سيختلف منطق النص عن المنطق اليهودي في الجمع بين إلهيم إلهاً وبين يَهْوَه ربّاً؟

إنّ الفارق بالطبع، هو في مفهوم الاسم كما ترسخ في الأذهان. ولن نستخلص هذا المفهوم، وكيف قلبه السيد المسيح رأساً على عقب مرسلاً من الله ليفعل ذلك بالطبع إلاّ من خلال قراءة هذه الواقعة من الإنجيل "وحين تمت الأيام لارتفاعه ثبّت وجهه لينطلق إلى أورشليم. وأرسل أمام وجهه رسلاً. فذهبوا ودخلوا قرية للسامريين حتى يعدُّوا له. فلم يقبلوهُ لأنّ وجهه كان متجهاً نحو أورشليم. فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا: يا ربّ أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً؟ فالتفت وانتهرهما

وقال لستما تعلمان من أي روح أنتما. لأنّ ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس بل ليخلص" [لوقا 51-9/56].

لقد كان (يَهْوَه) على هذا النحو رمزاً لمرحلة انتهت ببعثة السيد المسيح. ولهذا، فإنّ الاسم الذي يدعون أن معناه "يَهْوَه يخلص" لم يقل بعبادة (يَهْوَه) إذ أنّ الحقّ هو في عبادة الله وحده لا شريكَ له.

* * *

(11)

يَهْوَه رجل من كوكب في الفضاء

كلود فريلون، رجل فرنسي مجهول الأب، وإنْ كان يعتقد أنّ أباه لاجئ يهودي. يروي في كتابه "الرسالة" أنّه توجّه صباح يوم 13 كانون الأول عام 1973، إلى موقع البراكين القديمة التي تشرف على كليرمون - فيران في فرنسا، وهناك تجلّى له "يَهْوَه" شخصياً، ولكن، ليس على شكل نار تشتعل في العليقة، والعليقة لم تكن تحترق كما حدث مع موسى عليه السلام.

ولندع كلود فريلون، الذي بات معروفاً الآن باسم "رائيل" كرسول جديد للسيِّد يَهْوَه، يحدّثنا عمّا حصل معه (1).

يقول: "فجأة وسط الضباب، لمحتُ ضوءاً أحمرَ غامزاً، ثم شيئاً يشبه الطائرة المروحيّة تهبط في اتجاهي. لكنّ الطائرة المروحيّة مُضجَّة، أما هنا، فلا أسمعُ أيَّ شيء، ولو أدنى صفير. منطاد؟ أصبح الشيءُ الآنَ على عُلُوٍّ 20 متراً، وتبيَّن لي أنّه كان على شكل مسطّح. صحنٌ طائر! شخصياً كنت أؤمن بوجودها بشكل قاطع منذ أمدٍ طويل. لكن لم أكن أتوقع أن أشاهد أحدها يوماً ما بنفسي. كان قطره حوالي سبعة أمتار، مسطّح من الأسفل ومخروط الشكل من الأعلى. وعلوُّه تقريباً 2 متر و50 سنتمتراً. بقاعدته ضوء أحمر شديد يغمز وفي قمتيه نورٌ يذكر بآلة التصوير. وكان النور الأبيض شديداً جداً إلى درجة أنني لم أستطع النظر إليه دون إغماض عينيّ. استمرّ الصحنُ في الهبوط بهدوء، وتوقف على بعد مترين من سطح الأرض. أذهلتُ وتجمَّدتُ في مكاني. لم أكن خائفاً، بل كان فرحي شديداً لأعيش تلك اللحظة. وندمتُ كثيراً لعدم اصطحابي لآلة التصوير. عندئذ حدث أمرٌ عجيب: بويبة تفتح من تحت الصحن، وانبسط شيء ما يشبه السلّم نحو الأرض، وهنا أدركتُ أنّ كائناً ما سينزلُ من الصحن. وبدأت أتساءلُ عن شكله".

"ظهرت قدمان، ثم ساقان، وهو ما طمأنني. فعلى ما يبدو سألتقي إنساناً. وما ظننته في البدء طفلاً ظهر كليّاً. نزلَ من السُلّم واتَّجه مباشرةً نحوي. تبيَّن لي الآن أنه ليس طفلاً رغم قامته التي تقارب المتر و20 سنتمتراً. كانت عيناهُ مشدودتي الأطراف نوعاً ما. وشعره أسود طويلاً، ولحيتُهُ سوداء صغيرة. توقف على بعد عشرة أمتار منّي، دون أن أتزحزح عن مكاني. كان يرتدي لباساً أخضر يغطيّ جسمه كاملاً مثل روّاد الفضاء. وإذ كان رأسُهُ يبدو وكأنّه في الهواء الطلق. كانت هالةٌ غريبة تحيط به. لا لم تكن بهالة، لكن كما لو أنّ الهواءَ المحيط بوجهه كان لامعاً شيئاً ما ومهتزّاً، يشبه خوذة مخفيّة، على شكل فقاعةٍ جدّ دقيقة تكاد تظهر للأعين. كان جلده أبيض يميلُ شيئاً ما إلى الاخضرار مثل شخص مريض بالكبد. تبسَّمَ لي ففكّرتُ أنّهُ من الأفضل أن أَرُدَّ على هذه الابتسامة. لم أكن هادئاً. تبسمتُ كذلك وطأطأتُ رأسي لتحيّته، فردّ عليّ بمثلها".

ويدور الحوار بين فريلون وضيفه القادم من الفضاء. ويتبيّن أنّ هذا الضيف هو السيِّد يَهْوَه بالذات، الربّ الذي يعبُدُهُ اليهود، وأنَّ غايته هي تجنيد فريلون رسولاً له تحت اسم "رائيل". وغاية هذا الرسول ـ وكما جاء في رسالة من يَهْوَه إلى رائيل بعد 24 عاماً من ذلك اللقاء ـ هي تدمير "أعجوبة الله"!

يقول السيِّد يَهْوَه لفريلون: "عندي كثير من الأشياء أودّ قولها لك، ولقد اخترتكَ لمهمّة صعبة. تعالَ إلى مركبتي، سنكون هناك أحسن لإتمام حديثنا.

"تبعتهُ وصعدت في السلّم الصغير الموجود تحت الصحن، فهو يشبه جرساً مسطحاً باطنه مملوءٌ ومنتفخ. كانت في الداخل أريكتان متقابلتان، والحرارة معتدلة من دون أن تكون البويبة مغلقة. لم يكن هناك مصباح، ولكن كان ضوء طبيعي يأتي من كلّ مكان. ولم يكن هناك أثر لأيّة أداةٍ تذكّرُ بحجرة القيادة. أما السقيفة فكانت عبارةً عن أشابة ساطعة تميل إلى الزرقة. جلستُ على الأريكة الكبرى لكن الأكثر انخفاضاً. كانت الأريكة مكوَّنة من مادة واحدة شفَّافة بعض الشيء، لا لون لها، وَجَدَّ مريحة. وجلس الرجل الصغير أمامي على أريكةٍ تشبه الأولى، لكنّها أصغر وأعلى لكي يكون وجهه في نفس المستوى. فلمس جزءاً من الحائط، فأصبح الصحن شفافاً، باستثناء قمته وقاعدته، كائناً في الهواء الطلق. لكن في حرارةٍ جَدّ معتدلة. فاقترح عليَّ أن أخلع معطفي، فاستجبت له، ثم قال:

" ـ كنت تودُّ لو كانت معكَ آلة تصوير لتحكي هذا اللقاء لكل الناس بالدليل القاطع؟

" ـ طبعاً.

" ـ اسمع ما أقولهُ لك. ستحكي لهم، لكن ستقول لهم الحقيقة من يكونون ومن نحن. وحسب ردّ فعلهم سنرى إذا كنا سنظهر لهم بصراحة وبطريقة رسميّة. انتظر أنْ تعرف كلّ شيء قبل أن تقول لهم، حتى يمكنك أن تدافع وأن تقنع بالدليل القاطع، كلّ من سوف لن يؤمن بك. ستكتب كلّ ما أقولهُ لك ثم أنشرهُ في كتاب".

ونعرفُ من الحوار أن السيد يَهْوَه القادم من كوكب في الفضاء، هو من أناس هم "إنسٌ" مثلنا، وأنّ الكوكب البعيد الذي يعيشون فيه شبيهٌ بالأرض إلى حدٍ ما.

ويتلقى رائيل على مدى ستة أيام شروحاً من "يَهْوَه" لبعض ما جاء في "الكتاب المقدس"، ومن ذلك أنّ كلمة "الإلوهيم" التي ترجمت بالآلهة أو الإله تعني بالعبرية "هؤلاء الذين أتوا من السماء في صيغة الجمع".

وبعد عرضٍ غير قابل للتصديق عن دور هؤلاء الرجال الخضر في ترتيب أوضاع كوكب الأرض، بعد أن كانت المياه تغمره كاملاً، يقول يَهْوَه "بدأ النبهاءُ من بيننا بصنع إنسان اصطناعي مثلنا. وبدأ كل فريق في العمل وفي مقارنة أعمالنا. لكن سكان كوكبنا صعقوا من كوننا صنعنا أطفالاً من الأنابيب "خوفاً من أن يزعجوا راحتهم إذا ما كانت قدراتهم وذكاؤهم تفوق قدرات وذكاء خالقيهم. فأخذنا على أنفسنا أن نتركهم يعيشون عيشة بدائية دون أن نكشف لهم عن العلوم، وأن نوحي إليهم أن أعمالنا روحانية. من السهل معرفة عدد فرق الخالقين. فكل جنس بشري يماثل فريقاً من الخالقين". وهو في موضع لاحق يبيّن أن عدد هذه

الفرق كان سبعة، مما يفترض وجود سبعة أعراق بشرية، إلاّ أنَّ علماء الأنثروبولوجيا يتحدثون عن ثلاثة أعراق رئيسية هي الأبيض والأسود والأصفر.

ولا تقف المسألة عند هذا الحدّ، إذ أنّ "شعب إسرائيل" أو "اليهود" يحتلُّ موقعاً خاصاً جداً في هذه القصّة. يقول السيِّد يَهْوَه "أنَّ الفريق الذي كان موجوداً في المنطقة التي تسمّونها الآن بإسرائيل والتي لم تكن بعيدة جداً من اليونان وتركيا في القارة الواحدة، كان من ألمع الفرق. وحيواناتهم كانت أجمل، وحشائشهم كانت روائحها أزكى. كانت بالفعل ما تسمّونه بالجنة على الأرض، والإنسان الذي خلق فيها كان أذكاهم.

يفترض وفق رواية يَهْوَه لرائيل أنّ هذه الوقائع جرت قبل حوالي 25 ألف سنة فقط، لكنّ المؤرخين يردّون وجود القارة الواحدة، والتي أسموها "بانجايا" إلى 175 مليون سنة مضت، وأن "بانجايا" أخذت تتكسر وتنفصل أجزاؤها وتبتعد عن بعضها، وهي عملية بدأت منذ نحو 160 مليون سنة (2). ولو حاولنا البحث عن موقع تركيا واليونان من فلسطين على خريطة القارة الواحدة لوجدنا بينهما بحراً واسعاً عازلاً. وحتى قبل 50 مليون سنة كانت تركيا واليونان لا تزالان بعيدتين عن فلسطين (أو شمال غرب الجزيرة العربية) (3). ولم يتبلور الوضع الراهن إلاّ منذ حوالي خمسة ملايين سنة حين حدث إلاّ منذ حوالي خمسة ملايين سنة حين حدث الانهدام الأفريقي فأزاح شبه الجزيرة العربية عن كتلة القارة الأفريقية، وأدى إلى ظهور خليج عدن والبحر الأحمر وانتهى ببرزخ السويس (4).

فأين هذه الأحداث عن القصّة التي ينقلها "رائيل" عن "يَهْوَه"؟ وأين مكان عملية "تصنيع" الإنسان من قبل فرق الخالقين من ذلك الزمن؟.

يقول "يَهْوَه" لرائيل إنّه "إذا ما تمكّن الإنسانُ من العيش عشر مرات أكثر من المدة التي يعيشها الآن لكان بإمكانه أن يقفز قفزة كبيرة في أبحاثه العلمية. لو تمكّن لهم منذ البداية العيش مُدّة أطول لأصبحوا وفي مدةٍ وجيزة نظراءنا، لأنّ قدراتهم العقلية تفوق شيئاً ما قدراتنا. إنّهم يجهلون قدراتهم، وخاصة شعب إسرائيل الذي انتخب في إحدى المسابقات (...) كالعنصر البشري الأكمل والأنجح في الذكاء والعبقرية. ولهذا يعتبر دائماً هذا الشعب كشعب الله المختار. نعم كان هو الشعب الذي اختير من طرف الفرق الخالقة المجتمعة لإبداء رأيها في أعمالهم، وقد لاحظتم دون شك عدد العباقرة الذي خلفتهم ذريَّتهم".

لنلاحظ أنّ التوراة تقول إنّ أجيال البشر الأولى من آدم إلى نوح، وهي عشرة أجيال كانت تتمتع بالأعمار الطويلة. وهذا أيضاً مع مبالغة أكثر في عدد السنين التي كان يعيشها الإنسان ورد في الكتابات السومرية. فهل تفوق الإنسان بقدراته العقلية الفائقة على خالقيه الإيلوهيم؟ وأين هي الدلالات المادية الآثارية على هذا التفوق غير متابعة العلماء لتعامل الإنسان مع أدواته الحجرية؟.

ولو أخذنا برواية رائيل هذه نقلاً عن "يَهْوَه" فمعنى ذلك أن "شعب إسرائيل" يشكل عرقاً خاصاً منفصلاً من بين سبعة أعراق في الأرض، فهل هناك إمكانية للتعريف بهذا العرق كعرق مستقل عن العرق

الأبيض؟ وأين يقع يهود الفلاشا واليهود الخزر من هذه القصّة؟ هل كل من اعتنق اليهودية بات من عرق الشعب المختار؟!.

تقول لنا المكتشفات الأثارية، إنّه في فلسطين، وقبل حوالي 25 ألف سنة، أي في ذات الزمن الذي تذكره رواية رائيل، وجدت هياكل عظمية لبشر يمثلون مختلف الأعراق بما في ذلك عرق البوشمن الأفريقي. فهل اجتمع هؤلاء الناس في فلسطين من أصقاع الأرض للاشتراك في مسابقة، أم أنَّ نزول نوح ومن معه في فلسطين بعد أن انطلق من منطقة الجبل الأخضر في ليبيا كان سبب اجتماع هذه الأعراق واختلاطها؟ وإذا كان قد ثبت من نموذج إنسان كرومانيون الذي اكتشف في مغاور جبل الكرمل التزاوج بين إنسان نياندرتال والإنسان العاقل، فمن كان ممثل "بني إسرائيل" من بينهما؟ وكيف أمكن الحفاظ على نقاء "شعب إسرائيل" كل هذا الزمن؟.

وفي ضوء قصّة سفر التكوين عن آدم وحواء (الطفلين الأولين المنتجين من قبل فريق الخالقين الآتي من كوكب في الفضاء)، تكون الجنة التي خلقا فيها هي "فلسطين"، وحين طردا شرقاً بعيداً عن مقر الخالقين في فلسطين، فهذا يعني انتقالهما إلى الجزيرة العربية، ويكون نسلهما على هذا الأساس، سواء كان من ذرية قاين أو شيث منتمياً إلى "شعب إسرائيل"، فكيف جرى تقليص هذا الشعب؟ وكيف بات يعقوب الذي جاء في زمن متأخر كثيراً عن هذه الأحداث أباً له؟.

ولو أنَّ رواية يَهْوَه لرائيل عن "شعب إسرائيل المختار" وقفت عند هذا الحد، لبدا أنَّ فيها وجهة نظر. ولكنَّه لا يلبث ـ وكما هو الشأن في التوراة ـ أن يعطينا تعريفاً آخر لشعب إسرائيل. فهذا الشعب هو نتاج التزاوج بين أبناء الإيلوهيم وبنات الناس. وذلك توضيحاً لقول التوراة "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهنَّ حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا" [تك 6/1]. وكان نتاج هذه العملية ولادة الطغاة "كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم" [تك 6/4].

وحتى هذه المرحلة، يمكننا افتراض الصورة كما يلي: إنّ "الخالقين" القادمين من كوكب آخر، اتخذ فريق منهم القدس وما حولها مقرّ إقامة لهم، وأوجدوا إلى الشرق منها، ربما في أريحا "الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" [تك 3/24]، بعد أن أبعدوا خلقهما المتميز (من بني إسرائيل) إلى الشرق. وظهور أبناء الإيلوهيم في القصّة، يعني أنّ "الخالقين" تناسلوا في فلسطين، بينما تناسل "خلقهم" إلى الشرق منها (في الجزيرة العربية). وما لبث أبناء الايلوهيم أن تزوّجوا من بنات من يفترض أنّه "شعب إسرائيل" والذي كان قد فاز في المسابقات فأنجبوا شعباً من الجبابرة والطغاة.

إنّ هذه الذريّة الجديدة الناتجة عن التزاوج بين أبناء الايلوهيم وبنات الناس، سيعطيها "يَهْوَه" من جديد اسم "الشعب الإسرائيلي". ففي رسالته إلى رائيل عام 1999، يقول "نتمنى أن تكون سفارتنا بين ذريتنا بما أن

الشعب الإسرائيلي يتكون من ذرية أولاد الذي ولدوا بعدما التقى أبناء الايلوهيم ببنات الناس". وهو يقول لرائيل أيضاً: "هناك إعلان جدّ مهم يمكنك أن تعلن عنه ابتداءً من الآن: إن اليهود ينحدرون منّا مباشرة. لهذا فهناك مصير معين مُدَّخر لهم. هم ينحدرون من أبناء الايلوهيم وبنات الإنس كما ذكر في سفر التكوين".

وواضح هنا أن ثمّة تمييز في الجنس بين "أبناء الايلوهيم" و"بنات الإنس". وهو تمييز مهمٌّ في السياق إذا ما تبيّن لنا أن "الايلوهيم" هم أصلاً من الجن وليس من الإنس. وبالتالي، فإنّ "شعب إسرائيل" وفق هذه الرواية هم نتاج الزواج بين الجن والإنس.

في تعقيب الشارح للكتاب المقدس حول هذه القصّة، من وجهة النظر المسيحية يقول "يعود المؤلف ـ أي مؤلف سفر التكوين ـ إلى أسطورة شعبية عن جبابرة (في العبرية "نفيليم") يقال إنهم ولدوا من زواج بين كائنات بشرية وكائنات سماوية. وهو لا يبدي رأيه في قيمة هذا الاعتقاد ويُخفي وجهه الأسطوري، فيكتفي بالتذكير بهذا الجنس الوقح من الجبابرة، كمثل للفساد المتزايد الذي سوف يسبِّب الطوفان. اليهودية اللاحقة وجميع المؤلفين المسيحيين الأوَّلين تقريباً رأوا في "بني الله" هؤلاء ملائكة مذنبين. لكنَّ آباء الكنيسة، منذ القرن الرابع، فسَّروا جميعهم "بني الله" ببني شيث و"بنات الناس" بذريّة قاين" (5).

يبدو أن رائيل يعيدنا إلى التفسير القديم، حول الملائكة المذنبين أو الرجال الذين جاءوا من كوكب في الفضاء أما بنات الناس، فيمكن أن يكنَّ من ذرية قاين بدلالة ربط القرآن الكريم بين واقعة قتل قاين لأخيه الصالح هابيل والتشريع الذي كتب على بني إسرائيل بالذات في هذه المناسبة القديمة مما يؤكد صلتهم بها.

ولكن حتى لو أخذنا بهذا التفسير، وجب ألاّ ننسى أن شيثاً كان أخاً لقايين وهابيل. والمؤرخون القدامى، واستناداً إلى رواية التوراة يرون أنّه "لم يحفظ الناس من نسل آدم على الحقيقة المجمع عليها إلاّ ما كان من صلب شيث، وهو أبو البشر دون سائر إخوته" (6). لكنّ هذا الاعتقاد لا يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم من أنَّ بني إسرائيل كانوا من ذرية من حملوا مع نوح. ثم إنّ المسألة حين تتعلق بموضوع خلق الإنسان الأول تصبح أكثر تعقيداً . فرواية رائيل المنسوبة إلى يَهْوَه عن فرق الخلق المزعوم المتعددة لا تتفق مع قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلاَّ كنفسٍ واحدة إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ) (لقمان28)، وقوله تعالى (وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدةٍ فمستقر ومستودع قد فصَّلنا الآيات لقومٍ يفقهون) (الأنعام98). وهذه النفس الأولى إنما تنتمي إلى الإنسان، أو بالأصح تجسِّد وجود الإنسان، وهي عندئذ فوق كل هويّة عرقية. ومن العبث محاولة ردّ بني إسرائيل إلى نقطة البداية تلك، وإلاّ رُدَّ العالم بأسره إليها، أما إن صَحَّ أنهم كانوا نتاج تزاوج الجنّ والإنس فتلك مسألة أخرى. والواقع أن رائيل يضعنا وجهاً لوجه أمام هذه المسألة.

وفيما يتصل بالطوفان، وأصل البشر الذين نجوا من الطوفان، فإنّ رائيل يقدم نقلاً عن "يَهْوَه" رواية تلغي الاعتقاد القائل بأنّ من بقي من البشر بعد الطوفان هم من ذرية شيث حصراً. فيقول إنّ نوحاً ركب

صاروخاً من ثلاث طبقات، وليس سفينة، وأنّه حمل من كل جنس بشري زوجين، وفوق ذلك أنزل كل جنس بشري في مكان خلقه الأصلي، وكل حيوان أعيد خلقه من الخلايا التي كانت محفوظة في السفينة!.

وهكذا، فإنّ بني إسرائيل وقد عدُّوا جنساً قائماً بذاته نجا منهم أب وأم. ولكن، هل كان الناجيان من نسل المخلوقين المتفوقين الأولين أم من نسل الناتجين عن التزاوج بين أبناء الايلوهيم وبنات الناس؟!.

وطالما أنّه جرى إنزال كل جنسٍ في مكان خلقه الأصلي، فإنّه يفترض أن يكون قد تم إنزال أبوي بني إسرائيل في فلسطين، إلاّ أنّ الهياكل العظمية المكتشفة في فلسطين بعد طوفان نوح الذي نعتقد أنّه وقع قبل حوالي 30 ألف سنة (7). وهو ما يخالف رواية رائيل، تدلّل على تواجد كل أو معظم أعراق الإنسان فيها مما يخالف بالنتيجة رواية رائيل. فمن قدموا مع نوح، انضموا في "المنزل المبارك = فلسطين" إلى أهلها الأوّلين الذين يفترض وفق رواية رائيل أنّهم الجبابرة الذين نتجوا عن تزاوج أبناء الايلوهيم مع بنات الناس!.

إن نبوغ بني إسرائيل وفق رواية رائيل لن يظهر في فلسطين، ولكن في بابل، فالشعب الإسرائيلي سعى حسب روايته للصعود إلى كوكب الخالقين، فصنع صاروخاً ضخماً هو "برج بابل"! وعندئذ تدخل سكان الكوكب الأم، وقرروا بلبلة لغتهم وتشتيتهم. "فجاءوا وأخذوا اليهود الذين لهم معرفة أكثر بالعلوم فنشروهم في باقي أطراف القارة، وسط شعوب بدائية، وفي بلدان حيث لا يمكنهم التواصل فيما بينهم لأنّ اللغة مختلفة، ودمَّروا الأجهزة العلمية".

وهكذا يكون الشتات اليهودي الأول في الأرض قد حدث يوم بلبلت الألسنة في بابل. وللدكتور كمال الصليبي رأي في هذه القصّة مؤداة أنّ موقع هذه القصّة مسرحه الجزيرة العربية وليس بابل العراق، حيث أن اسم "بابل" لا يفيد البلبلة، بل هو بوضوح "باب إيل" أي باب الله (8).

ووفق رواية رائيل، كان الخالقون المنفيون من قبل حكومة كوكبهم لا يزالون في الأرض. ولكن سمح لهم بعد تشتيت يهود (بابل أو البلبلة) بالعودة إلى كوكبهم. إلاّ أنّ أناساً من اليهود المشتتين أرادوا الانتقام ممّن شتتهم، واتخذوا من سدوم وعمورة مركزاً لهم، فتدخل يَهْوَه ومن معه ودمَّروهم بانفجار نووي. "وبعدما تعرض الشعب المختار، أي الشعب الأكثر ذكاءً، إلى تنحية نبغائة ورجاله الأكثر ذكاءً، وأصبحوا عبيداً للشعوب البدائية المجاورة الذين كانوا أكثر منهم عدداً، لأنهم لم يخضعوا لدمار كبير، كان من الواجب أن تُرَدَّ له كرامته، وذلك بإرجاع أرضه إليه".

ولكن أيُّ أرض هي؟

أهي مقر "الخالقين" فلسطين حيث لا شواهد على براكين أو تفجيرات نوويّة؟ أم إلى الشرق منها في الجزيرة العربية حيث جرى نفيهم بداية وحيث توجد الحرّات والمواقع البركانية الكثيرة على ساحلها الغربي؟.

يقول "يَهْوَه" وهو يتحدث عن الخروج من مصر، إنّهم "لما خرجوا أرشدناهم إلى الأرض التي خصصناها لهم". وهذا التعبير يوحي بأن لا علاقة لهم أصلاً بتلك الأرض أو أنهم كانوا قد ابتعدوا عنها زمناً طويلاً ويجهلونها.

الطريف أنَّ فريق الخالقين برئاسة "يَهْوَه" كان قد قرر الإقامة في الأرض وقتاً طويلاً "وكانوا ـ أي الخالقين ـ يرغبون في أكل طري. ولهذا طلبوا من شعب إسرائيل أن يزودهم به وبطريقة منتظمة. وكذلك طلبوا منهم أن يحضروا لهم بعض الكنوز والحليّ ليأخذوها معهم إلى كوكبهم. كان هذا نوعاً من الاستعمار لو شئتم"! "كما قرروا أن يستقروا وبطريقة مريحة. فطلبوا من الإنسان أن يهيِّئ لهم إقامة حسب تصميمهم". "إنها خيمة الاجتماع، فيها يقدم الإنسان طعاماً وهدايا عربوناً لطاعتهم وولائهم". "وأخيراً، جاءت نهاية الرحلة التي أوصلت "الشعب المختار" إلى الأرض الموعودة، فأتلفوا كلّ الأصنام للشعوب البدائية بعدما طلب منهم الخالقون ذلك، ثم استولوا على أراضيهم". وتمضي القصّة وصولاً إلى القول إنَّ سليمان أقام إقامة فاخرة (الهيكل) لاستقبال الخالقين عند زيارتهم للأرض.

الغريب أن يَهْوَه الذي استمرَّ في شرح وتفسير ظهوراته لأنبياء بني إسرائيل، لم يتوقف مليَّاً عند قصّة سليمان بالذات، حيث نعرف عن قصته وتسخير الجنّ والعفاريت له مما ورد في القرآن الكريم، وما لم يرد عنه ذكر في الكتاب المقدس، وكأنّ رائيل كان أسير رواية الكتاب المقدس ومحاولة إعطاء تفسير علمي حديث لما ورد فيه. ولكن طالما أن "يَهْوَه" هو الذي يتحدث ويفسِّر فمن المفترض أن يضيف ما تجاهله مدوِّنو التوراة مما ورد في القرآن الكريم وهذا لم يحدث!.

وفي تفسير الشتات اليهودي في السبي الآشوري والسبي البابلي، يقول يَهْوَه لرائيل "إذا تمت السيطرة على الشعب اليهودي من قبل الفرس والإغريق، فذلك لأنّ الخالقين أرادوا معاقبتهم لعدم إيمانهم، بجعل رجال منهم "ملائكة" بين تلك الشعوب، لتمكينهم من تحقيق تقدم تقني، الشيء الذي يوضح المراحل العظمى لحضارتهم. وكان الملاك ميخائيل رئيس البعثة المكلفة بمساعدة الفرس". ولا ندري كيف يستقيم هذا التناقض بين أناس يعاقبون "لعدم إيمانهم" وبين جعل رجال منهم ـ ولا ندري هل الإشارة هنا إلى الايلوهيم أو اليهود ـ ملائكة عند الشعوب، ولا ندري ما هو شكل الإيمان المطلوب من مخلوقين إزاء مخلوقين مثلهم إلاّ إذا كانت هي التقدمات التي يتم حملها إلى الهيكل، وكيف كان "الايلوهيم" يأكلون من هذه التقدمات دون أن يراهم أحد!.

تربط الرواية بين ما تسمِّيه باستعادة "الشعب الإسرائيلي أرضه بعد تشتت طويل" ـ أي قيام الكيان الصهيوني في فلسطين عام 1948 ـ وبين الانفجار العلمي في الأرض: صنع القنبلة النووية واكتشاف خريطة الجينات الوراثية وتقنية الاستنساخ.. وغير ذلك!.

وهنا يبدو أنّ السيِّد "يَهْوَه" وفريقه من الايلوهيم يرغبون في استئناف العلاقة مع الإنسان!.

لماذا؟

يقول يَهْوَه "نحن الخالقون. نودُّ أن نظهر لكم بطريقة رسمية، إذا ما كان الإنسان في غاية الامتنان لنا لخلقه. نخاف من حقد الإنسان. الشيء الذي لن نتقبله. نود أن نتصل بكم ونجعلكم تستفيدون من تقدمنا العلمي الضخم، لو كنا متأكدين فقط أنكم لن تنقلبوا علينا، وأن تحبونا كآبائكم".

هي إذن "معاهدة عدم اعتداء" يسعى وراءها يَهْوَه وفريقه!

ولكن من هم المرشحون للاعتداء على "الخالقين" ما لم يكونوا مالكي أسلحة الدمار الشامل وفي مقدمتهم الولايات المتحدة الأقدر على غزو الفضاء وإسرائيل ويهودها المهيمنين على السياسة الأمريكية أيضاً؟!.

يبدو أنَّ "يَهْوَه" وفريقه يرون أنَّ المشكلة هي مع هؤلاء اليهود بالذات.

يقول يَهْوَه "إنَّ الرمز الذي تراهُ مرسوماً على هذا الصحن وكذلك على بزَّتي يمثل الحقيقة، إنّه كذلك رمز الشعب اليهودي: نجمة داود التي تعني "إنه في الأعلى كما إنّه في الأسفل" ويتوسطها السواستيكا، والتي تعني أنَّ الكلّ دائري. الأعلى يصبح الأسفل والأسفل يصبح الأعلى. أصلُ ومصير الخالقين والإنسان مماثل ومقيَّد" (*).

أين يقف السيِّد المسيح عيسى بن مريم من هذه الرواية؟

"قرر الخالقون أن يجعلوا امرأة تلد طفلاً، وأن يكون أبوه أحد الخالقين لكي يرث الطفلُ بعض القدرات التخاطرية التي تنقص الإنسان". "عندما بلغ سنّ الرشد أخذ الخالقون المسيح من أجل الكشف له عن هويته، وليقدموا له أباه، ومن أجل الكشف له عن مهمته، ولتدريبه على عدة تقنيات علمية". وهو ـ أي المسيح ـ "لم يأتِ إلى شعب إسرائيل الذي يعلم بوجود الخالقين، لكن من أجل نشر هذه الحقيقة عبر العالم".

وبهذا المنطق يبدو رائيل أو من يلقّنه أنه يعفي اليهود من الإيمان بدعوة المسيح. ولنتذكر أن القرآن الكريم يورد القول عنه (ورسولاً إلى بني إسرائيل) وهو ما ينافي قول يَهْوَه لرائيل.

وهو ـ أي رائيل أو معلّمه يَهْوَه ـ يستشهد بما جاء على لسان السيد المسيح في أعمال الرسل [15-16] سأرجع بعد هذا فأبني خيمة داود المتهدمة" فيجعل الدليل على حلول الوقت "هو حصول شعب إسرائيل على أرضه". فلن نستغرب بعد هذا أبداً أن يقدم لنا رائيل نفسه على أنه المسيح. وعلى كل حال، فإنّ هذه الصفة تليق به أكثر مما تليق بدافيد بن غوريون أو مناحيم بيغن أو ارئيل شارون أو بنيامين نتنياهو أو الحاخام عوفاديا يوسف. فهو ـ أي رائيل ـ لم يلوِّث يده بعد بدم الفلسطينيين كما فعل أولئك الذين يزعمون أنّهم يعيدون بناء خيمة داود المتهدِّمة، بل إن الرجل لم يخفِ تعاطفه مع قضية الفلسطينيين.

لكنَّ هذا الإنجاز اليهودي، يجب أن يقابله تهديم خيمة أخرى. تلك هي الكنيسة المسيحية.

يقول يَهْوَه "لقد حل وقت نهاية العالم، ليس بتدمير الأرض في كارثة ما، ولكن نهاية عالم الكنيسة التي قامت بمهمتها، ليس على أحسن ما يرام، ولكنها قامت بها: مهمة التبسيط والتعريف بالخالقين حين يأتون إلى الأرض". "وستنهار لأنها أصبحت دون جدوى. الآن تخيِّم كآبة على الشعوب المتقدمة علمياً، والتي لا تؤمن بأي شيء. لا يمكن أن تؤمن اليوم "بإله" ذي لحية بيضاء، جاثم على سحاب وحاضر في كل مكان،

ولا بالملاك الحارس اللطيف أو بالعفريت ذي القرنين وذيل. فأصبحت لا تدري ما تؤمن به، سوى بعض الشباب الذين أدركوا أن الحب أصبح ضرورياً. لقد وصلتم إلى العصر الذهبي. أنتم إنس الأرض تطيرون في السماء. أصواتكم أصبحت تصل إلى كل بقاع العالم، وذلك بفضل الموجات الراديوفونية. لقد حان الوقت من أجل أن تكشف لكم الحقيقة، كما هو مكتوب. لقد وصلت الأرض إلى عهد الدلو. بعضهم قد كتب ذلك، لكن لم يصدِّقهم أحد. منذ 22 ألف سنة حين قرر الخالقون أن يصنعوا خليفتهم على الأرض، كان كل شيء متوقعاً لأنّ حركات المجرات تفترض هذه المعرفة. عهد السمك كان عهد يسوع ورسله، والدلو هو الذي يليه مباشرة، والذي حل منذ سنة 1946، حين حصل شعب إسرائيل على أرضه".

واضح أن لدى السيد يَهْوَه الرائيلي رغبة في أن يقترن قيام إسرائيل بانهيار الكنيسة، ويبدو أن اجتياح العالم الإسلامي يعتبر تحصيل حاصل.

يقول يَهْوَه "الكنيسة التي تكلمت على يَهْوَه بافتراء، وأبقت قلوب المتعطشين للحقيقة فارغة، هي التي برمجت لهلاك الفقراء، ولجعل الذين لم يتمكنوا من الفهم، والذين لا يحاولون أن يفهموا تحت سيطرتها، خوفاً من "الخطيئة" أو من فصلهم من الكنيسة، أو من أي سذاجة أخرى".

ويقول لرائيل "سوف لن تتمكن من الإطاحة تماماً بالكنيسة وأكاذيبها، لكنها ستسقط لوحدها. الشيء الذي بدأ فعلاً منذ فترة، "شعلة خامدة" أدت مهمتها حان الوقت لزوالها. قامت بأخطاء وأصبحت جد غنية على حساب الحقيقة، بدون أن تحاول الشرح بوضوح لإنسان هذه الفترة. لكن لا توبِّخها كثيراً لأنَّ بفضلها انتشر الكتاب المقدس كشاهد إثبات في جميع أطراف الأرض. رغم ذلك أخطاؤها عظيمة، وخاصة إعطاؤها صبغة روحانية للحقيقة. وكذلك عدم ترجمتها بطريقة صحيحة للكتابات السماوية، وذلك بتحويل كلمة "ايلوهيم" والتي تعني الخالقين بـ "كلمة مفردة، بينما ايلوهيم بالعبرية هي جمع "ايلوها" محوِّلين هكذا الخالقين إلى إله واحد غير واضح. والأخطاء الأخرى هي جعل الناس يقدسون طرفاً من الخشب على شكل صليب ليذكرهم بالمسيح. لكن المسيح ليس بالصليب. صليب من خشب لا يعني أيّ شيء".

ويلاحظ هنا أن "يَهْوَه" لم يتحدث عن صلب المسيح، وعن دور ذريته المختارة في صلبه، مما يجعل للصليب رمز الشاهد على الواقعة. ولعل هذا ما يريد طمسه، بعد أن عمد البابا إلى تبرئة اليهود من دم السيد المسيح.

يقول يَهْوَه لرائيل "رجوع الشعب اليهودي إلى إسرائيل دلالة على العهد الذهبي الذي هو مكتوب"، "من المشرق آتي بنسلك ومن المغرب أجمع أشتاتك. أقول للشمال هات، وللجنوب لا تمنع. جئني ببنيَّ من بعيد، وبناتي من أقاصي الأرض. بكلِّ من يُدعى باسمي ومجدي خلقته وصنعته" [أشعيا 5-43/7].

ولكن إذا كانت ذريعة الأمس أنَّ ضحايا اليهود من أهل بلاد كنعان اتهموا بعبادة الأصنام، فما جريرة عباد الله المسلمين والمسيحيين ليكونوا ضحايا الغزو الجديد؟ هل هم ليسوا من ذرية آدم ومن نسل إبراهيم؟ أم هم ليسوا من ذرية أبناء الايلوهيم وبنات الناس؟ أم لأنهم مثل الكنيسة يقولون بوجود "الله" الواحد الأحد،

ولا يقولون بـ "الايلوهيم". فهم شهود لله وليسوا شهوداً للايلوهيم القادمين من كوكب آخر والمخلوقين مثلهم مثل البشر؟

ما الذي يريده "يَهْوَه" المعاصر وهو يتجلّى لرائيل؟

يقول "إذا أراد إنسان الأرض أن نجعله يستفيد من تقدمنا العلمي، وأن نجعله يربح 25000 سنة، يجب عليه أن يظهر لنا أنه يود أن يرانا، وخصوصاً أنّه أهل لذلك. وأن يحدث هذا دون أن نشعر بالخطر. يجب أن نكون على يقين بأنّه سيحسن استعمالها إذا ما نحن وهبناه معرفتنا. لقد أظهرت لنا ملاحظتنا للسنوات الأخيرة أن إنسان الأرض لا يزال يفتقد إلى شيء من الحكمة. طبعاً هناك تقدم، لكن ما يزال الإنسان يموت جوعاً، والنزعة الحربية لا تزال منتشرة في الأرض. نحن مقتنعون أن مجيئنا سيعينكم كثيراً، وسيساعد على اتحاد الأمم، لكن يجب أن ندرك أن الإنسان يود ذلك. وأنّه يسعى إلى ذلك بجدية. ومن جهة أخرى يجب أن ندرك أن الإنسان يود لقاءنا وهو واعٍ كلَّ الوعي بذلك. في أكثر من مرة طوردت صحوننا من طرف طائرات حربية كالأعداء. يجب أن تخبر الجميع وأن توضح لهم من نحن لكي يكون ممكناً لنا أن نظهر للعيان دون أن نخشى على حياتنا وسلامتنا، الشيء الذي يقع حالياً، وكذلك دون خلق نوع خطير من البلبلة والرعب القاتل في صفوف الناس".

تبدو هذه الذرائع بطبيعة الحال غير منطقية لدى "آلهة" فعلوا كل ما فعلوا في الماضي من المعجزات. كما أن محاولتهم لنفي وجود الإله الأعظم الخالق تبدو مهزوزة حين يقول يَهْوَه: "لا يزال التقدم مستمراً، وأبحاثنا تتجه نحو الفهم والاتصال بالكائن الضخم الذي ننتمي كلنا إليه، والذي نحن متطفلون على ذراته. هذه الذرات التي هي عبارة عن كواكب ونجوم. ولقد اكتشفنا أنّ في أصغر ما لا نهاية هناك كائنات حية ذكية تعيش على جزيئات هي بالنسبة لها كواكب ونجوم، وتتساءل نفس الأسئلة التي نتساءَلها نحن الإنس. فالإنسان عبارة عن "مرض" للكائن الضخم، حيث ذراته هي الكواكب والنجوم. ودون شك هذا الكائن هو أيضاً متطفل على إحدى الذرات في الاتجاهين. إنّها اللانهاية. ولكن الأهم هو جعل "مرضنا" (الإنسانية) مستمرة إلى الأبد. عندما خلقناكم كنا لا ندري أننا نقوم بمهمة ثانوية "مكتوبة" فينا مكررين بذلك ما فعل لنا. لقد اكتشفنا عند خلقكم وتطور ذلك أصلنا نحن. لأننا نحن أيضاً خلقنا من طرف أناس آخرين، والذين انقرضوا. أكيد أنَّ حضارتهم قد دُمِّرت، ولكن بفضلهم تمكنَّا من أخذ المشعل ومن خلقكم، ومن الممكن أن نُدَمَّر نحن يوماً ما، وتكونوا قد أخذتم المشعل. أنتم حلقة لاستمرار إنسانية ثمينة. هناك عوالم أخرى، ومن المؤكد أنّ الإنسانية تتطور في أماكن أخرى من الكون. لكن في هذا الجزء من الكون، وهذا جد مهم، عالمنا هو الوحيد الذي تمكن من الخلق".

وإذا كان هذا هو تصوّر يَهْوَه عن الكون، فما الذي يمنع الاستنتاج بأنّ الله الكليّ القدرة هو المتحكم بهذا العالم الضخم؟

إنَّ يَهْوَه ينكر نظرية التطور التي جاء بها داروين، ولكن لصالح التأكيد بأن "الايلوهيم" هم الذين خلقوا أشكال الحياة على الأرض من الخلية الأحادية وحتى الإنسان. وهو يقول "إنّه لمن الطبيعي أن يكون في كل خلق إنسان لإنسان آخر تحسُّن طفيف، تطور حقيقي للجنس البشري، لكن بلطف لكي لا يشعر الخالق بالخطر أمام المخلوق (!) من أجل تقدم وازدهار سريع، إذا كنا لا نفكر بأن نعطيكم حالياً معارفنا العلمية، يمكننا إعطاؤكم وبدون أي خطر معارفنا السياسية والإنسانية. إذا كانت هذه الأخيرة لا تهدد كوكبكم، ستمكنكم من أن تكونوا أكثر سعادة على الأرض. وبفضل السعادة ستتقدمون بسرعة. وهذا سيساعدكم على أن تبرهنوا لنا وبسرعة أنكم تستحقون مساعدتنا، وميراثنا، للوصول إلى مستوى مرضٍ من الحضارة. وإلاّ، إذا لم يهدأ عنف الإنسان، وإذا لم يصبح هدفه الوحيد هو السلم، ويمكّن من يشجِّع الحروب وذلك بتشجيع صناعة الأسلحة، والتجارب النووية الحربية، وبالإبقاء على القوات المسلحة للبقاء في السلطة أو مساعدته على أخذها، سنمنعكم من أن تصبحوا خطراً علينا، وستكون مرة أخرى "سدوم وعمورة". كيف لنا نحن الذين من كوكب آخر، ومختلفين عن إنسان الأرض شيئاً ما، ألاّ نخشى إنسان الأرض حين يقاتل أخاه الإنسان؟".

الغريب في كتاب رائيل أن يَهْوَه لا يوجِّه هذا الإنذار إلى من يستحقونه بالذات، أي إلى إسرائيل التي يحتفي بإعادة قيامها على حساب شعب فلسطين، وبمن يقفون وراءها ممّن يملكون القوة القادرة على تدمير البشرية في واشنطن. فهاتان هما "سدوم وعمورة" العصر، وإليهما كان ينبغي أن يوجِّه التهديد. ولكن يبدو أن ليَهْوَه وجهة نظر أخرى، طالما أنّه ربط العبقرية منذ البدء ببني إسرائيل واليهود.

يقول يَهْوَه لرائيل: "من هم نوع الناس الذين سيجعلون الإنسانية تتطور؟ العباقرة. يجب على عالمكم أن يكافئ العباقرة وأن يمكنهم من إدارة شؤون الأرض. لقد تعاقب على الحكم وبالتوالي "الفظُّ الخشن" الذي كان متفوقاً على الآخرين بقوَّته العضلية، والأثرياء الذين تمكنوا من الحصول على خدمات هذا الأخير، ثم السياسيون الذين استغلوا تطلعات الشعوب للديمقراطية، ناهيك عن العسكريين الذين بنوا نجاحهم على تقنين وعقلنة العنف. النوع الوحيد من البشر الذي لم يتقلد بعد الحكم، والذي بفضله تتقدم الإنسانية، باكتشافه للعجلة، والبارود، والمحرك الانفجاري، أو للذرة. لقد جعل العبقري الحكام الأقل ذكاءً يستفيدون من هذه الاختراعات بتحويلها من اختراعات سلمية إلى أداة مدمِّرة. يجب أن يتغير كل هذا لهذا يجب إلغاء الانتخابات والتصويت، لأنّها غير ملائمة كلياً في صيغتها الحالية مع تطور الإنسانية. الناس عبارة عن خلايا نافعة لجسم ضخم يدعى الإنسانية. ليس لخلية الرجل أي رأي إذا ما أخذت اليد شيئاً ما. العقلُ الوحيد الذي يقرِّر. وإذا كان هذا الشيء نافعاً، فإن خليّة الرجل ستستفيد منه. ليس لها أن تدلي برأيها لأنّ وظيفتها هي تحريكُ الجسم حيث الدماغ، وليست لها الكفاءة للحكم ما إذا كان الشيء الذي تود اليد أخذه نافعاً أم لا. لن يكون التصويت ايجابياً إلاّ إذا كان هناك تكافؤ في المعرفة أو في المستوى الذهني".

إن هذا المنطق، قاد إلى القول بإجراء "اختبارات لتقييم القدرات العبقرية والتكيفية للأشخاص"، وأن يتم تسجيل ذلك في بطاقاتهم، وأن يصير شرطاً لترشيحهم إلى المناصب العامة أو العالية، أو مشاركتهم في التصويت. فحق التصويت يجب أن يكون مخصصاً لنخبة مثقفة، ذات أدمغة، قادرة على إيجاد حلول مناسبة للمشاكل، وليس لمن درس سنوات طوال. فالهدف "هو جعل الأذكياء والعباقرة في القيادة". ويمكن تسمية هذا النمط بالجينوقراطية.

المبدأ الثاني الذي يبشّر به "يَهْوَه" هو "الإنسانوية"، وهو ينطلق من القول بأن العالم مشلول بسبب السعي وراء الربح. ويعيد الأحكام هنا إلى ما جاء في التوراة.

وهو يرى أيضاً أن تتحد كل أمم الأرض لتكون "حكومة واحدة"، وأن الطريقة الأنجع للوصول إلى ذلك هي "خلق عملة عالمية موحدة ولغة موحدة". ويريد أيضاً إلغاء الخدمة العسكرية التي تلقن العنف للشباب، وتحويلها إلى خدمة مدنية.

وأما من الوجهة الدينية، فإنّ الديانة الرائيلية هي ديانة ملحدة تنكر وجود "الله" عزّ وجلّ، وتنكر وجود الروح وبالتالي البعث والحساب في اليوم الآخر، وهي تدعو إلى إباحة العلاقات الجنسية الشهوانية، بدعوى أن "الخالقين" ما أوجدوا لدى الإنسان من حاسة إلاّ ليستمتع بها.

إنَّ يَهْوَه وفريقه، يرونَ للإسهام في إقناع الناس في الأرض بهذه التصورات، تأمين مقر سفارة قرب القدس لاستقبالهم على الأرض، وإذا تم ذلك، وتبدد الطبع الحربي للإنسان عبر العالم "سيسلمون إنسان الأرض ميراثهم العلمي"، "وإذا بقي الإنسان عنيفاً، ويتطور بطريقة خطيرة على بقية العوالم، سندمر هذه الحضارة في جميع النقط التي تحتفظ بثروات علمية. وستكون هناك مرةً أخرى "سدوم وعمورة" في انتظار أن تصبح الإنسانية أخلاقياً أهلاً لمستواها العلمي".

"يَهْوَه" إذن لا يمدُّ إلى الناس في الأرض، أو بعضهم، بالجزرة فقط، ولكنّه يلوِّح بالعصا أيضاً.

مَنْ هو "يَهْوَه" بعد كلّ هذا الذي أسلفنا؟

إنَّهُ "رئيس مجلس الخالدين" في ذلك الكوكب البعيد عن الأرض الذي لم يشأ أن يعطي اسمَهُ لرائيل، ربّما زيادة في الحذر حتى لا تحاول وكالة ناسا غزوه.

يعيش الإنسان هناك ما بين 750 - 1250 سنة، أي كأعمار البشر من آدم إلى نوح. ولكنهم يستطيعون استنساخه، مختارين سناً معيناً لأخذ خلية منه، فمتى ما أنتجوا من هذه الخلية نسخة جديدة، وهي تحتفظ بما اختزنته الذاكرة في التجارب السابقة. ومن بين سبعة ملايين من السكان في ذلك الكوكب، هناك فقط سبعمائة خالد. وعمر يَهْوَه ـ حسب قوله ـ 25 ألف سنة، سكن خلالها 25 جسماً حتى الآن. وكان أول من أنجزت عليه تجربة الاستنساخ. ولذلك هو "رئيس مجلس الخالدين". وقد ترأس شخصياً عملية خلق الحياة على الأرض.

وبالطبع فإنَّ هذا المنطق لا يستطيع الوقوف على قدميه أمام استنتاجات العلماء حول عمر الحياة وتطورها على أرضنا. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: بغضِّ النظر عن مضمون رواية يَهْوَه لأحداث التاريخ، سواء كانت صحيحة أو فاسدة، ماذا عن مدى صدقية التجربة التي عاشها رائيل نفسه، والذي يقول إنّه بعد لقاءاته الأولى مع "يَهْوَه" عام 1973، أخذه يَهْوَه في رحلة إلى الكوكب الآخر في عام 1975؟

يفترض رائيل منذ البداية أنَّ الناس يمكن أن يرتابوا في روايته، فيقول "أودُّ أن أبيِّن للمرتابين أنِّي لا أشرب الخمر، ولا أعاني من نقص في النوم، ولا يمكن خلق هذه الحكاية أو القيام بحلم لستة أيام متتالية".

لكنّ موضع ارتيابنا إذا ارتبنا لا يكمن في الأسباب التي أوردها رائيل، بل في سبب لم يورده، كأن يكون قد مرَّ بمرض الانفصام في الشخصية لبعض الوقت، ورأى ما رأى تحت تأثير هذا المرض وما يرافقه من هلوسات سمعية وبصرية. إلاَّ أنه إن صحَّ ذلك، وجب أن يكون قد تلقى العلاج، ومن ثم أن يكون قد عرف لاحقاً بزيف الرؤى. وهذا ما لم يذكره عنه رائيل شيئاً البتة.

دعونا لا نتوقف عند نقطة الارتياب هذه، وأن نصدِّق ما رواه رائيل عن تجربته، لنحاول التعرف على شخصية "يَهْوَه" الحقيقية كما تطرحها هذه الرواية.

السؤال الأول الذي نطرحه هو التالي: إذا وجدت حياة على كوكب آخر في مجموعتنا الشمسية، فهل أصحاب هذه الحياة هم من الإنس أم من الجن؟

لقد قدَّمَ يَهْوَه نفسه أحياناً على أساس أنهم من الإنس مثلنا، وأخرى على أساس أنهم نوع آخر. لكنَّ وصف رائيل لما رأى يرجح النوع الآخر.

وعلى كل حال، فإنّ تحديد يَهْوَه لشخصية "الشيطان" تكفي لاستخلاص الجواب. فالشيطان كان واحداً من بين الايلوهيم ينتمي إلى المجموعة التي عارضت دائماً خلق مخلوقات ذكية على كوكب قريب منهم كالأرض، باعتبارهم تهديداً محتملاً لكوكبهم".

ونحن نعرف أن القصّة ترد في القرآن الكريم كما يلي (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربِّه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً) (الكهف50).

كان إبليس إذن من الجن، وهذا يرجح أنَّ أهل الكوكب الذين هو منهم هم بدورهم من الجن.

وما الجن؟

يقول تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجانَّ خلقناهُ من قبل من نار السموم) (الحجر 26-27).

وهذا يؤكد رواية "يَهْوَه" في أنَّ الجان وجدوا قبل أن يوجد الإنسان، لكنّه من زاوية أخرى ينفي رواية يَهْوَه عن صنع الإنسان على صورة الجن (أو ما أسماهم هو بالايلوهيم)، وذلك لاختلاف الجوهر بين مَنْ خلقوا من نار السموم ومن خلقوا من الطين. وهذا الاختلاف في الجوهر لا يكمن فقط في تركيب الجسد، ولكن

أيضاً في قدرة الجن على الاستتار أو التخفّي. يقول تعالى (يا بني آدمَ لا يفتننكم الشيطانُ كما أخرج أبويكم من الجنَّة ينزعُ عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) (الأعراف 27).

ونحن نميلُ إلى الاعتقاد بأنَّ الشيطان الذي يجري ذكره هنا هو جزء من تكوين الإنسان الفخّاري الذي دخل فيه عنصر ناري. فالملائكة الذين سجدوا هم ملائكة الجسد والشيطان الذي تمرَّد هو أيضاً من عصبونات الدماغ، لذا فإنّه يرانا من حيث لا نراه. وهذا ما نفهمه من قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنّك من الصاغرين) (الأعراف 11-13).

فالهبوط منها هنا يعني الهبوط من نفس الإنسان، ولذلك فإنّه حين طلب أن ينظر قال له (إنَّكَ من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم). وهذا الوقت المعلوم هو يوم القيامة. وقد قال البعض "إنّه باق إلى موت الخلق كلّهم فيموت" (9). وهذا استنتاج منطقي، طالما أن إبليس جزء من الدماغ ومن التركيب الجيني للإنسان. ولكن كما أنَّ هناك ملائكة في السماء، وحيث يعلم الله، مثلما هناك ملائكة في جسد الإنسان نفسه، فمن المحتمل أيضاً أن يكون هناك إبليس مجرد، غير إبليس المقيم في جسد الإنسان.

ووفق رواية "يَهْوَه" لرائيل، فإنّ إبليس "الشيطان"، "الخالق". "واثق من أن الإنسان لن يأتي منه شيء حسن، الشيطان هذا المرتاب الذي يساند من طرف المعارضين لحكومتنا في الكوكب البعيد، أخضع المسيح لعدة اختبارات من أجل أن يرى ما إذا كان ذكاؤه إيجابياً، وإذا ما كان يحترم ويحبُّ خالقيه. ولما تأكدوا من أنّهم يمكن أن يضعوا ثقتهم في المسيح تركوه يعود وأن يؤدِّي مهمته".

لنلاحظ أنَّ رأي "يَهْوَه" في الشيطان "إبليس" على هذا النحو هو رأي إيجابي، فالأمر يشبه أن يترك لشخص أو لجنة من المعارضة في الكونغرس أو مجلس العموم البريطاني اختبار وزير من الحكومة لإقرار مشروع يتبناه، فإذا اقتنعت، أعطي الضوء الأخضر للتنفيذ.

على كلِّ حال، لم يكن إبليس الجنيّ الوحيد، بل كان واحداً من الجن.

فماذا لدينا أولاً عن قصّة العلاقة قديماً بين الإنس والجن؟ وهل تتفق مع القصّة التي رواها يَهْوَه لرائيل؟.

يقول وهب بن منبَّه إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الجنَّة وخلق فيها أجناس الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ثم خلق النار بعد الجنّة بألف عام، فزفرت النار وتغيّظت، فتطاير منها الشرر، فخلق اللهُ من ذلك الشرر إبليس والجان وأسكنهم الجنة يسبحون الله تعالى كما يرون الملائكة يفعلون. ويعبدُ اللهَ إبليسُ مع الملائكة" (10).

ويضيف وهب: إنَّ إبليس والجان كانوا لا يتناسلون في الجنّة، وأنَّ الجان تنافسوا في الجنة، وطغى بعضهم على بعض، وعصوا الله، وسفك بعضهم دم بعض، فعجَّ الملائكة إلى الله بالدعاء (...) فغضب اللهُ على

الجان فأوحى إلى جبريل أن أخرج الجان من جواري وطهِّر منهم جنَّتي. فأخرجهم جبريل من الجنة إلى أرضنا هذه، فأسكنهم جزائر البحار وقفار الأرض، وبقي إبليس مع الملائكة يعبد الله. ثم خلق الله آدم عليه السلام لما شاء كيف شاء حيث شاء في سابق علمه المكنون وحكمه النافذ من أديم الأرض (11).

ويقول الهمذاني: "وكانت الجن عمّاراً للأرض ومستخلفين فيها، وسمُّوا الجنّ لأنهم يجتنُّون عن النظر إليهم أي يستترون. ومنه قيل للولد في الرحم جنين، ومنه الجنَّةُ والمجنُّ. ويقال إنَّ الجنَّ جنس من الملائكة لقوله)إلاّ إبليس(فاستثناء منهم، وقيل ليسوا من الجن وإنما هو استثناء من غير جنسه" (12).

لقد تعاملنا في الماضي مع هذه الحكايات على أنّها أساطير. ولكن كان بوسعنا أيضاً أن نفترض بأنَّ من سمُّوا بالجن ممن عمروا الأرض قبل ظهور الإنسان العاقل هم نوع إنسان نياندرتال. ومما رجَّح من مثل هذا الاستنتاج القول إنَّ شيثاً كان "يدعو الثقلين الجن والإنس" (13) وأن نوحاً "أقام يدعو الثقلين الجن والإنس ألف سنة إلاّ خمسين عاماً" (14).

فالثقلان: الجنُّ والإنسُ في ذلك الزمان، لا بُدَّ أنهما إنسان نياندرتال والإنسان العاقل، إلاّ إذا ثبت أنَّ الأمر كان خلاف ذلك.

وبينما يتكلم مؤرخونا القدامى عن لجوء الجن إلى القفار وجزر البحارن فإنَّ يَهْوَه يقول لرائيل إنَّ الايلوهيم "لكي لا يزعجوا من طرف الإنسان، أقاموا قواعدهم فوق أعالي الجبال، حيث نجد أثراً لحضارات عظمى (الهملايا، البيرو،..الخ) وكذلك في أعماق البحار. وتدريجياً هجرت القواعد الموجودة في أعالي الجبال ليستقروا في قواعد أعماق البحار، والتي هي صعبة البلوغ من طرف الإنسان. كما أنَّ فريق أوائل الخالقين المبعدين كانوا مختفين في أعماق البحار".

ثمة في هذا الكلام ما يتقاطع مع كلام وهب بن منبَّه عن نفي الجنّ إلى أرضنا، وما يتقاطع مع كلام الهمذاني من أنهم كانوا يجتنون عن النظر إليهم. ولكن إذا كانوا هم الأقوى علمياً، ويملكون أسلحة نووية دمَّروا بها سدوم وعمورة، فلماذا يؤثرون التخفي عن أعين الناس، ويختارون قواعد خفية بعيدة عن البشر؟ ولماذا يسعون إلى نوع من "معاهدة عدم اعتداء" ينظمها رائيل قبل أن يأتوا ليظهروا أنفسهم صراحة إلى الناس؟

أسئلة عديدة تصعب الإجابة عليها، ولكن قد يكون في قوله تعالى (وجعلوا بينهُ وبين الجنَّةِ نسباً ولقد علمت الجنَّةُ إنهم لمحضرون) (الصافات 158)، قد يكون في هذه الآية ما يفسِّر بعضَ ما أوردنا. فالهروب ليس من الإنس، بل من الله، واللجوء إلى التجدُّد عن طريق الاستنساخ محاولة لإرجاء الموت، أو الهرب من الحساب. لكنَّ الحساب آتٍ قصر العمر أو طال. أما الموتُ فيتجدد فإن كان "يَهْوَه" قد تواجد في 25 جسداً حتى الآن، فهذا يعني أنّه ذاق الموت حتى الآن 24 مرة. وهذا الواقع هو مصداق لقوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متَّ فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا

ترجعون) (الأنبياء 34-35). ولا شك أنَّ من يحظى بالفوز العظيم هو من يذوق الموت مرّة واحدة ويكون له الخلود في الجنة بعد ذلك.

إن جنس الإنسان محصور وجوده في الحياة الدنيا على كوكب الأرض، فإن وجدت مخلوقات شبيهة على كواكب أخرى مهما تعددت، فهي ليست من جنسه. وهذا ما نستخلصه من قوله تعالى (وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تُحشرون) (المؤمنون 79).

وإنّ الجنّ، خلافاً للإنس، لهم وجودهم في الأرض وفي كواكب أخرى بعيدة عن الأرض، ولكن ضمن المجموعة الشمسية، ولكنه محظور عليهم النفاذ منها إلى السماء الأعلى. يقول تعالى (إنّا زينّا السماءَ الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب* فاستفتهم أهم أشدُّ خلقاً أم من خلقنا إنَّا خلقناهم من طين لازب) (الصافات 6-10). ويقول تعالى (يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان) (الرحمن 33)، فإذا جاء الجنُّ إلينا من كوكب آخر بصحن طائر كما حدث مع رائيل فليس في ذلك غرابة. وإذا ما تواجد الثقلان: الجن والإنس في مكانين متباعدين أو التقيا فليس في ذلك غرابة. ومن لا يلتقيان على الأرض يمكن أن يلتقيا في الجنّة أو في جهنم. يقول تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون) (الأعراف 179). كما يقول تعالى (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنِّ والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربَّنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكلٍ ضعفٌ ولكن لا تعلمون) (الأعراف 38).

وثمة علاقة ما بين شياطين الإنس والجن. يقول تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً شياطين الإنس والجنِّ يُوحي بعضهم إلى بعض زخرفَ القولِ غروراً ولو شاءَ ربك ما فعلوهُ فذرهم وما يفترون) (الأنعام 112). كما يقول تعالى (وقال الذين كفروا ربَّنا أرنا اللذين أضلاَّنا من الجنِّ والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) (فصلت 29).

كما أنَّهُ ثمَّة علاقة ممكنة بين الإنس والجن. يقول تعالى (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجنِّ قد استكثرتم من الإنسِ وقال أولياؤهم من الإنس ربَّنا استمتع بعضنا ببعضٍ وبلغنا أجلنا الذي أجَّلت لنا قال النارُ مثواكم خالدين فيها إلاّ ما شاءَ اللهُ إنَّ ربَّك حكيم عليم) (الأنعام 128).

وكما جاء للإنس رُسُلٌ جاءَ للجنِّ رُسُلٌ أيضاً. يقولُ تعالى (يا معشر الجنِّ والإنس ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاءَ يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرَّتهم الحياةُ الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) (الأنعام 130).

وهناك من الإنس من عبدوا الجنّ أو جعلوهم شركاء لله. يقول تعالى (وجعلوا للهِ شركاءَ الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علمٍ سبحانه وتعالى عمّا يصفون) (الأنعام 100). كما يقول تعالى (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقولُ للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أكثرهم بهم مؤمنون) (سبأ 40-41).

وممَّا يُدَلّلُ على أنَّ للجنِّ وجودٌ خفيٌّ في الأرض حولنا ما جاء في سورة الجنِّ، حين استمع نَفَرٌ من الجنِّ لتلاوة القرآن الكريم. وممَّا قالوهُ بعد أن آمنوا (وأنه تعالى جدُّ ربِّنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كانَ يقول سفيهنا على اللهِ شططا * وأنَّا ظننا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذباً * وأنَّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنِّ فزادوهم رهقاً * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث اللهُ أحداً * وأنَّا لمسنا السماءَ فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنَّا نقعد منها مقاعدَ للسمع فمن يستمعُ الآنَ يجدُ لها شهاباً رصداً * وأنَّا لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمن في الأرض أم أراد بهم ربُّهم رشداً * وأنَّا منّا الصالحونَ ومنَّا دون ذلكَ كنّا طرائقَ قِددا * وأنّا ظنّنا أن لن نعجزَ اللهَ في الأرض ولن نعجزَهُ هرباً * وأنّا لمّا سمعنا الهُدى آمنَّا به فمن يؤمنُ بربِّهِ فلا يخافُ بخساً ولا رَهَقاً * وأنّا منّا المسلمون ومنَّا القاسطونَ فمن أسْلَمَ فأولئك تحرَّوا رَشَداً * وأمَّا القاسطون فكانوا لجهنَّمَ حطباً) (الجن 3-15).

ولعلَّ القرآن الكريم أراد أن يقطع على سفيهِ الجنِّ إمكانية الإدِّعاء بأنَّ القرآن الكريم هو من إنشاءِ جماعته أو إنشائه، حين قال تعالى (وقل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثلهِ ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً) (الإسراء 88).

السؤال الآن: هل حدث أن اجتمع الإنسان والجن معاً وجهاً لوجه؟ وهل كان التزاوج بين الإنس والجن ممكناً؟ وهل من المحتمل أن يكون بنوا إسرائيل (أو اليهود) نتاج هذا التزاوج؟

لنحاول الإجابة على هذه الأسئلة!

عندنا أولاً قصَّة سليمان عليه السلام كما جاءت في القرآن الكريم، بينما تفادت التوراة ذكر أي شيء عن تسخير عفاريت الجن لسليمان، ربما بقصد التستر على الحقيقة الأعظم حول أصل بني إسرائيل أو اليهود.

يقول تعالى (وورث سليمانُ داودَ وقال يا أيُّها الناسُ عُلِّمنا منطقَ الطيرِ وأوتينا من كلِّ شيء إنَّ هذا لهو الفضلُ المبين * وَحُشِرَ لسليمانَ جنوده من الجنِّ والإنس والطيرِ فهم يوزعون) (النمل 16-17). فهاهم الجنُّ ضمن جنود سليمان. وقد لا يكون مهماً أن نعرف أكانوا من كوكب الأرض أم جاءوا من كوكب آخر في الفضاء، وإن كان الاحتمال الثاني هو الأقوى في ضوء مطالعة بقيِّة الصورة.

يقول تعالى (ولسليمان الريحَ عاصفةً تجري بأمرهِ إلى الأرض التي باركنا فيها وكنَّا بكلِّ شيء عالمين * ومن الشياطين من يغوصونَ لَهُ ويعملون عملاً دونَ ذلكَ وكنَّا لهم حافظين) (الأنبياء 81-82). ولعل قوله تعالى هنا (وكنَّا لهم حافظين) يشير إلى قدومهم من كوكب آخر تسوده طبيعة مختلفة مما استلزم حفظهم على الأرض وفي جوِّها بطريقة هو الأعلم بها. ويقول تعالى أيضاً عن سليمان (فسخَّرنا لهُ الريحَ تجري

بأمره رخاءً حيث أصاب * والشياطين كل بنَّاءٍ وغوَّاص * وآخرينَ مقرَّنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنُن أو أمسِكْ بغيرِ حساب) (ص 36-39). وهذا يعني أنَّ الجنَّ قاموا أو ساهموا في عمليات البناء التي نسبت لسليمان. وأمَّا حاجتَهُ إلى الغواصين فلا بُدَّ أنّها كانت بعيدة في البحار وليس في القدس.

ويقول تعالى (ولسليمان الريحَ غُدوُّها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجنِّ من يعمل بين يديه بإذنِ ربِّهِ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقهُ من عذاب السعير) (سبأ 12).

ومعنى ذلك أنَّه توفرت لسليمان وسيلة للطيران. وهذا ما يمكن أن يعطي لقصة رائيل مع يَهْوَه مصداقية تاريخية حول قدرات الجنِّ في ذلك الكوكب، إذ أن معرفة بني إسرائيل أو سكان مملكة سليمان بسرِّ الطيران لم تثبت بعد وفاة سليمان، مما يدلّل على أنَّ هذا السرَّ كان محفوظاً لدى الجنّ وانتهى بانفضاضهم من حول سليمان بعد موتِهِ.

ويقول تعالى عن تسخير الجنِّ في خدمة سليمان (يعملونَ لهُ ما يشاءُ من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) (سبأ 13).

ولنلاحظ أنَّ كلمة (محاريب) وردت هنا بالجمع وليس بالمفرد، مما يعني أن سليمان أقام العديدَ من المعابد وليس (هيكلاً) واحداً هو الذي يدَّعيه اليهود. كما أنَّ عدم العثور على التماثيل والجفان والقدور التي صنعت لسليمان في حفريات الآثار في فلسطين، ترجِّحُ أنّه مارس هذا النشاط في مواقع أخرى بعيدة.

وفي قصّة سليمان مع ملكة سبأ (قالَ يا أيها الملأ أيُّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجنِّ أنا آتيكَ به قبل أن تقوم من مقامك وإنِّي عليهِ لقويٌّ أمين) (النمل 39).

وفي تلك الظروف قامت علاقة قويَّة بين "بني إسرائيل" وبين الشياطين الذين سُخِّروا لسليمان، إلى حَدِّ اتباعهم للشياطين.

لنتمعَّن في قوله تعالى عن بني إسرائيل (واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلكِ سليمانَ وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناسَ السحرَ وما أُنزلَ على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحَدٍ حتى يقولا إنَّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفر) (البقرة 102).

وواضح هنا أنَّ اختلاطاً واسعاً حدث بين الجن (الشياطين) وبين بني إسرائيل. والسؤال الآن هو التالي: هل كان نتاج هذا الاختلاط هو تعلُّم السحر من الشياطين، أم أنَّ وقائع زواج قد حدثت؟ وأين موقع يَهْوَه الذي يقدم لنا الآن نفسه بالصورة التي جاءنا بها رائيل باعتباره "رئيس مجلس الخالدين" في كوكب الجن من هذه القصّة؟

لنتذكر الآن ما كنّا قد أثبتناه سابقاً، من أنَّ ظهور الأسماء اليهوية قد حدث في زمن سليمان. وعند ذاك حاولنا البحث عن المصدر في الأسماء اليهوية السبأية، ولكن ها نحن أمام احتمالٍ ثانٍ، وهو أن يكون يَهْوَه هو رئيس الجنّ الذين سُخِّروا لخدمةِ مُلكِ سليمان. ومن الممكن أن يكون قد انطبق آنذاك المثل القائل "غابَ القطُّ العبْ يا فأر"، فوفق ما ورد في القرآن الكريم فإن سليمان لم يمت غالباً في القدس ويدفن فيها، بل في

مكان ناءٍ بعيد. لنتمعَّن في قولِهِ تعالى (فلمَّا قضينا عليه الموتَ ما دلَّهم على موتِهِ إلاّ دابَّة الأرضِ تأكل منسأته فلما خرّ تبيَّنت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) (سبأ 14).

فلو كان موته في القدس أو في عاصمة ملكِهِ، وسط حاشيته وبين أهل بيته، لما حدث هذا. لكنَّ حدوث هذا يعني أنَّه كان غائباً عن عاصمة ملكه. فمن كان يقوم على شؤونها بدلاً منه؟ وكيف كان سلوك الشياطين من الجنِّ في غيابه؟ وهل حدث زواج أبناء الايلوهيم ببنات الناس في ذلك الظرف بالذات وليس قبل طوفان نوح؟ أم أن الحادثة تكررت؟

سيطرح هنا السؤال: "وهل الزواج بين الجنِّ والإنس ممكن؟".

إذن ما معنى قولهم (ربَّنا استمتع بعضنا ببعضٍ) غير احتمال إقامة علاقات جنسية بين الطرفين؟

لكنَّ صدفة التاريخ أيضاً. ولعلَّها لم تكن صدفة أبداً، ستقدم لنا الدليلَ مواكباً لفترة مُلكِ سليمان أيضاً. ففي حديث مرفوع إلى ابن عباس، أنَّ الهدهاد ابن شرحبيل رأى شجاعاً أبيض اقتتل مع شجاع أسود، وأغاثه الهدهاد بالماء مرتين، فلم يزل الأبيض حتى قتل الأسود، ثم مضى عن وجهه الهدهاد حتى غاب عنه، ومضى الهدهاد إلى شعب عظيم فاختفى فيه، فبينما هو مستتر بشجر أراك إذ سمع كلاماً فراعه، فسلَّ سيفه. فأقبل إليه نفر جانٍ حسان الوجوه عليهم زيٌّ حسن. فدنوا منه فقالوا: عم صباحاً يا هدهاد. لا بأس عليك. وجلسوا وجلس، فقالوا له: أتدري مَنْ نحن؟ قال: لا. قالوا: نحن من الجن، ولك عندنا يد عظيمة. قال: وما هي؟ قالوا له: هذا الفتى أخونا من أبناءِ ملوكنا (**) هرب له غلام أسود فطلبه فأدركه بين يديك، فكان ما رأيت وفعلت فنظر الهدهاد إلى شاب أبيض أكحل في وجهه آثار خداش. قال له: أنت هو؟ قال: نعم. قالوا له: ما جزاؤك عندنا يا هدهاد إلاّ أخته نزوجها منك وهي رواحة بنت سكن (***) فزوَّجوه إياها (15) وكان نتاج هذا الزواج بلقيس ملكة سبأ التي تزوَّجها سليمان عليه السلام وفق الرواة، وكان ابنه رحبعام منها، وهو من خلفه في الملك، ومن بعده انقسمت المملكة.

فالزواج بين الإنس والجن ممكن إذن، وهذا ما قاله يَهْوَه لرائيل عن زواج الايلوهيم ببنات الناس، والذي نجمت عنه ذرية هي الشعب الإسرائيلي. فحتى لو سلَّمنا بأنّ هذا حدث قبل طوفان نوح فما الذي يمنع أن يكون قد تكرر في زمن سليمان؟ وهذا رحبعام نتاج زواج مختلط من هذا القبيل.

إنَّ منطق يَهْوَه في تفسير ذكاء هذا الشعب "المهجَّن" من الجنِّ والإنس لا يختلف عن منطق وهب بن منبّه حين قال إنَّ الجنَّ حين استشعروا نية سليمان في الزواج من بلقيس قالوا "كنا نصيب في سليمان رحمة النبوة، فيسأل عما نريد فإذا هو تزوج بلقيس أتتنا فطنة الجن وحيل الإنس وكيد النساء فلم نصب راحة فكيف إذا اجتمعت مع أعوانها من الجن والإنس أهل القسوة والتطاول على من دونهم لم نأمن على أنفسنا الهلكة (16) فها هي تتكرر هنا قصة الجبابرة والطغاة. وهي أيضاً قصة الشعب الذي وصفه أنبياؤه، ووصفه "يَهْوَه" أيضاً في رسالته إلى رائيل يوم 13 كانون الأول/ ديسمبر عام 1999 بالشعب ذي الرقبة

الصلبة. فهذه الرقبة الصلبة عند قتلة الأنبياء لم تجئ من فراغ، ولم يورثها لهم يعقوب عليه السلام الذي زعموا أنّه إسرائيل، بل هي إحدى الصفات الوراثية لشعب هجين ربّما نتج عن تزاوج الإنس والجن.
وإذا كان هذا الشعب قد تنكّر لإله موسى كما يعترف فرويد، فإن علاقته مع يَهْوَه وجماعة الايلوهيم لم تكن أفضل، كما يتضح من الكتاب المقدس، وكما يتضح أيضاً من كلام يَهْوَه لرائيل.
يقول يَهْوَه في رسالة إلى رائيل (13 كانون الأول/ ديسمبر 1999):
"لقد طلبنا أن تُشَيَّدَ سفارة من أجل استقبالنا قرب القدس لكن سلطات الشعب ذي الرقبة الصلبة رفضت عدة مرات منحنا التصريحات والحصانة الضروريين. إنَّ تفضيلنا للقدس هو عاطفي مطلق. بالنسبة إلينا فالقدس في كلِّ مكان هناك حيث يحبنا الناس ويحترموننا ويرغبون في استقبالنا. أي الرائيليون. فاليهود الحقيقيون بالأرض لم يعودوا هم شعب إسرائيل لكن كل الذين يعترفون بنا كخالقين، ويتمنون رؤيتنا عائدين. فالرابط الذي كان لنا مع شعب إسرائيل على مقربة من التفكك، والتحالف الجديد قربت نهايته. لم يبق لهم إلاّ وقت قصير لكي يفهموا خطأهم قبل أن يشتتوا مرَّة أخرى".
ويقول "يَهْوَه" في رسالته: "يا شعب إسرائيل! لقد فوَّضنا إليك رسالة موجهة إلى الإنسانية جمعاء، ولكنك عوض نشرها احتفظت بها بغيرة لقد قاسيت وقتاً طويلاً كعقاب لك على أخطائك، لكن وقت العفو قد حان. وكما كان متوقعاً، قلنا للشمال أعطِ وللوسط لا تحجز، فأتيت بأبنائك وبناتك من أطراف الأرض، كما كتب إشعياء، وتمكنت من استرجاع أرضك. وبإمكانك أن تعيش فيها بسلام إذا أنت استمعت إلى آخر الأنبياء، ذلك الذي أنبأناكَ به، وأن تعينه على القيام بما أمرناه به. إنها آخر فرصة لك، وإلاّ سيستقبل بلد آخر قريب منكم مرشد المرشدين، وستشيَّدُ سفارتنا على أرضه. وسيكون محميَّاً وتعمُّهُ السعادة، وستدمَّرُ من جديد دولة إسرائيل".
"أنت ابن إسرائيل الذي لا زلت لم ترجع بعد إلى أرض أجدادك. انتظر قبل أن ترجع إليها حتى ترى ما إذا قبلت الحكومة أن يشيد عليها سفارتنا، وإذا رفض ذلك لا ترجع إليها. ستكون من الذين سينقذون من الهلاك، ويمكن لذريتك يوماً ما أن تعود إلى الأرض الموعودة، عندما يحين الوقت".
ويقول رائيل إن الحركة الرائيلية الدولية، طلبت ولمرات عديدة، من الحكومة الإسرائيلية ومن الحاخام الأكبر للقدس، الحصول على الحصانة لتشييد السفارة قرب القدس، حيث خلق الايلوهيم الكائنات البشرية الأولى. فالمعبد اليهودي الأول ـ حسب قوله ـ كان في الواقع أول سفارة، حيث بنيت حولها المدينة العتيقة. فالالوهيم ينتظرون إذاً أن تمنحهم دولة إسرائيل الحصانة للسفارة الجديدة (المعبد الثالث) لكن لم تعطِ إسرائيل أيّ جواب إيجابي حتى الآن.
يلاحظ هنا أنَّ رائيل لم يذكر بصراحة هيكل سليمان باعتباره المعبد الأول أو السفارة الأولى. وأما قوله إن المدينة العتيقة بنيت حول المعبد، أي بعد بنائه فإنّه أمر يستدعي التحقق التاريخي متى بنيت المدينة العتيقة؟ وأما عن مسرح خلق الكائنات البشرية الأولى فعلماء عصرنا يتحدثون عن أفريقيا وليس عن بيت المقدس.

وإذا كان المقصود بالسفارة الأولى هو هيكل سليمان، فعلينا أن نتذكر أن الجنَّ سُخِّروا لسليمان بالذات، ومن الممكن أن يكونوا هم بناة هذا الهيكل وأن يكونوا عدُّوه مقراً لهم أو بالأصح مقراً لسيِّدهم يَهْوَه "رئيس مجلس الخالدين" عندهم.

تلك كانت بعض معطيات البدعة الرائيلية، والتي تقدم لنا يَهْوَه سواء عن حق أو عن باطل في ثوبٍ جديد، ولكن أيضاً في سياق محاولة لنفي الإيمان بوجود الله عزَّ وجلّ.

يقول رائيل "ما دام الإنسان لم يقدر على إدراك صنيعة الايلوهيم علمياً، فإنّه من الطبيعي أن يؤمن الإنسانُ بإلهٍ غير ملموس. لكن الآن بفضل العلم يمكن للإنسان أن يدرك المادة، ما لا نهاية له في الصغر وما لا نهاية له في الكبر، وليس له الحق في أن يستمر في إيمانه بالإله الذي كان يؤمن به أسلافه البدائيون".

وهو يدَّعي أنّه حين أخذه "يَهْوَه" إلى كوكب "الخالقين" رأى هناك يسوع المسيح وموسى وإيليا وبوذا، وقال له يَهْوَه: "وبعيداً شيئاً ما يمكنك رؤية محمد الذي لقبني بـ "الله" في كتابه لأنّه لم يتجرأ على تسميتي احتراماً لي".

وهكذا يكون يَهْوَه الرائيلي قد ادَّعى أنَّ القرآن الكريم من كتابة محمد صلعم، وأن إغفال القرآن الكريم لاسم "يَهْوَه" بهذه الصيغة كان نتيجة عدم جرأة محمَّد على تسميته باسمه احتراماً له، فسمَّاه الله. والآن يريد يَهْوَه أن يمحو اسم الله من الأرض، وأن يجعل الناس يعبدون أو يحترمون خالقيهم الممثلين ـ حسب رواية رائيل ـ بيَهْوَه وشركائه في مجلس الخالدين، ومن ضمنهم بالطبع ذلك الذي يحملُ اسم إبليس (أو الشيطان).

وتعقيباً على البدعة الرائيلية هذه، وتفنيداً لها، نكتفي بإيراد بعض ما جاء في القرآن الكريم مما يشكّلُ تفنيداً لها:

1 ـ يقول تعالى (إنَّ اللهَ لا يغفرُ أن يُشْرَكَ بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاءُ ومن يشرك باللهِ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً * إن يدعونَ من دونهِ إلاَّ إناثاً وإن يدعون إلاَّ شيطاناً مريداً * لعَنَهُ اللهُ وقالَ لاتخذنَّ من عبادكَ نصيباً مفروضاً * ولأضلّنهم ولأمنينَّهمْ ولآمرَنَّهُمْ فليبتكنَّ آذانَ الأنعامِ ولأمُرَنَّهمْ فليغيرنَّ خلقَ اللهِ ومن يتخذ الشيطانَ وليّاً من دون اللهِ فقد خَسِرَ خُسْراناً مبيناً * يعدهم ويمنيِّهم وما يعدهم الشيطانُ إلاَّ غروراً) (النساء 116-120). ونلاحظ في هذه الآيات إشارتها إلى الاستنساخ وما يرتبط به من وعودٍ حول إطالة الأعمار واستعادة الحياة بعد الموت من خلال هذه التقنية.

2 ـ يقول تعالى (اللهُ وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلماتِ إلى النورِ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النورِ إلى الظلمات أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون) (البقرة 257). ولنلاحظ هنا أنَّ الطاغوت اعتبرت جمعاً ممّا يعني وجودَ عِدَّة شركاء في "الطاغوت" وليس شيطاناً واحداً.

3 ـ يقولُ تعالى (ومن الناسِ من يجادلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ويتَّبعُ كلَّ شيطانٍ مريد * كُتِبَ عليهِ أنَّهُ من تولاَّهُ فإنَّهُ يضلُّهُ ويهديهِ إلى عذاب السعير) (الحج 3-4). فإذا كان "يَهْوَه" هو حقاً من قام بغوايةِ رائيل ليجادلَ في اللهِ بغير علمٍ ويسعى لتدمير "معجزة الله" فإنّه يكون مصنَّفاً كشيطان مريد.

4 ـ يقولُ تعالى (لَخلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خلق الناسِ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون) (غافر 57). وفي هذه الآية ردٌّ مفحم على يَهْوَه الرائيلي، الذي يعترف بأنَّ خلق السموات والأرض لم يكن من فعلِ جماعته، ويدَّعي خلقَ الإنسان بطريقة الاستنساخ. فمن خلق السموات والأرض وما فيهما غير الله؟.

5 ـ يقولُ تعالى (وما كان لبشرٍ أن يكلِّمهُ اللهُ إلاَّ وحياً أو من وراءِ حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنهِ ما يشاءُ إنَّهُ عليٌّ حكيم) (الشورى 51). وما حدث مع رائيل من لقاء مباشر مع "يَهْوَه" وجهاً لوجهٍ، واجتماعهما معاً، يخالفُ هذه الصيغة. ولنلاحظ أنَّ هذه الصيغة قد انطبقت على سيرة كل الأنبياء ذوي العزم، بما فيهم موسى وعيسى ومحمد. أمَّا مَنْ ادَّعوا رؤية "يَهْوَه" من أنبياء اليهود مثلما يقول رائيل الآن، فالأرجح بالطبع أنَّهم رأوا شيطاناً من الجن وليس الله، مما يفسِّر سِرَّ مشاهداتهم التي وصفوها بالتفصيل. وهذا ما أسرَّ به يَهْوَه لرائيل عن ظهوراته السابقة.

6 ـ يقولُ تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى اللهِ لهم البشرى فبشِّرْ عبادِ) (الزمر 17). وواضح هنا مرة أخرى أن "الطاغوت" عومل بالجمع في كلمة "يعبدوها"، ممّا يرجِّح أن المقصود بالطاغوت أولئكَ "الايلوهيم" الذين جاءوا من كوكب في الفضاء حسب رواية رائيل.

7 ـ يقولُ تعالى (أليسَ اللهُ بكافٍ عبدَهُ ويخوِّفونك بالذين من دونهِ ومن يُضلل اللهُ فما له من هاد) (الزمر 36). وما يمارسه رائيل الآن هو تخويف الناس ممن هم (من دونهِ)، وطلب الكفِّ عن عبادة الله وتوجيه كل الاحترام لهم.

8 ـ يقولُ تعالى (إنَّ الذين يحبُّون أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرةِ واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمون) (النور 19). وهذا ما يفعله رائيل في ديانته التي تدعو إلى إباحة العلاقات الجنسية ويعتبر هذه الإباحية من أعمدة ديانته.

9 ـ يقولُ تعالى (قل من ربُّ السمواتِ والأرضِ قلْ اللهُ قل أفاتخذتم من دونهِ أولياءَ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرَّاً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلماتُ والنور أم جعلوا للهِ شركاءَ خلقوا كخلقِهِ فتشابه الخَلْقُ عليهم قل اللهُ خالق كل شيء وهو الواحد القهَّار) (الرعد 16). ونلاحظ أنَّ بدعة رائيل في عبادة من هم دون الله عزَّ وجل قامت على ادِّعاءِ أنَّهم خلقوا كخلقه، لكن روايتهم تنطوي على الاعتراف باستنساخهم من خلق أوَّل لم يكونوا فاعليه.

10 ـ يقول تعالى (قل يا أيّها الناسُ إن كنتم في شكٍ من ديني فلا أعبدُ الذين تعبدونَ من دونِ اللهِ ولكن أعبدُ الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين) (يونس 104). وفي هذه الآية رد مفحم على منطق يَهْوَه الرائيلي. فالله عزَّ وجلَّ يخصُّ نفسه هنا بأنَّه الذي يتوفَّى الناس. ويَهْوَه الرائيلي لم يزعم أنَّه وجماعته قادرون على تحديد آجالهم أو آجالِ سواهم أو منع الموت عنهم. فالذي يتوفى منهم يتوفاه الله أما استنساخه من خلية منه ليعيش في جسدٍ جديد وإلى أجل مسمَّى عند الخالق فقضية مختلفة. وهكذا فإنَّ يَهْوَه مات 24

مَرَّة ليس باختياره، بل باختيار من خلقه. وهكذا فإنَّه إذا تشابه الخلقُ عليهم فإنَّ الوفاة تفحمهم إذ لا يستطيعون لها ردّاً.

وختاماً (يريدون أن يطفئوا نور اللهِ بأفواههم ويأبى اللهُ إلاّ أن يُتِمَّ نورَهُ ولو كره الكافرون) (التوبة 32).

* * *

هوامش (11) يَهْوَه رجل من كوكب في الفضاء:

(1): نعتمد في هذا العرض على الترجمة العربية لكتابي رائيل: "الرسالة" و"سكان الفضاء أخذوني على كوكبهم"، إلاّ ما أشير إليه في النص من التضمينات. وقد أخذ نصّا الكتابين عن موقع رائيل على الانترنيت.

(2): كولين ماكيفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987، ص17.

(3): نفس المصدر، ص19.

(4): نفس المصدر، ص21.

(5): الكتاب المقدس ـ كتب الشريعة الخمسة، دار المشرق ـ بيروت، ص77.

(6): الهمذاني، الاكليل، ج1، ص42.

(7): انظر كتابنا: طوفان نوح، دار الجليل، دمشق.

(8): كمال الصليبي، خفايا التوراة، دار الساقي، ص77 وما بعدها.

(*): من المهم ملاحظة أن السواستيكا تلك هي الصليب المعقوف رمز النازية.

(9): كتاب التيجان في ملوك حمير، ص15.

(10): نفس المصدر، ص10، ص11.

(11): نفس المصدر، ص13.

(12): الأكليل ج1، م.س، ص23، ص24.

(13): التيجان، ص27.

(14): نفس المصدر، ص31.

(**): من أكثر ملوك الجن شهرة عند من يمارسون السحر "شمهورش". وقد يكون معنى هذا الاسم "سام هو الرأس" حيث "شم" في العبرية سام وروش (رأس). وعليه فإن إصرارهم على الانتساب لسام وادِّعاء أن سام هو ابن نوح قد يكون سرُّه كامناً في اسم شمهورش وعلاقتهم به.

(***): في تفسير الآلوسي "ريحانة بنت السكن".

(15): التيجان، ص145، وص146.

(16): نفس المصدر، ص171.

*　　*　　*

(12)

يَهْوَه في المأثور الإسلامي

من المعروف أن الموروث الإسلامي في جميع صوره وأشكاله، سكت عن موضوع ربوبية "يَهْوَه"، فلم يتحدث عنها بشكل مباشر سواء على نحو إيجابي أو سلبي. ولعلَّ الأساس في هذا السكوت، حقيقة الإيمان وليس شكله، وأن مسألة الإيمان ضميرية. فليس الاسم المعطى للإله هو المشكلة، وإنّما مفهومنا لهذا الاسم، ونيَّتنا تجاه الخالق هي الأساس. وما يدرينا أنّ كثيراً من الأقوام، التي تؤمن بإلهٍ أعلى في السماء، بأسماء كثيرة حسب لغاتها، ونعدها بحكم شكل عبادتها وثنية، هي في نظر السماء أقوام صالحة.

وعلى كل حال، ينطلق الإسلام في المسائل الخلافية مع أهل الكتاب من منطق قوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنَّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن لهُ مسلمون) (العنكبوت 46).

ورغم الظلم الواقع علينا من قبل اليهود منذ غزوهم لفلسطين واغتصابهم لها وتشريدهم لأهلها من المسلمين والمسيحيين العرب، إلاّ أنَّ ذلك لا يحولُ في مثل هذه الدراسة بيننا وبين محاولة استقصاء الحقيقة حول "يَهْوَه" من مصادرها المتعددة. مخضعين بحثنا في جميع مراحله لمنطق البحث العلمي الموضوعي.

وقبل أن نبدأ المحاولة، لا بُدَّ وأن نتذكر أنَّ الدين عند الله الإسلام، وأنَّ إبراهيم عليه السلام هو الذي سمَّانا بالمسلمين، وأنَّ ديانة موسى وداود وسليمان وعيسى كانت هي الإسلام. أما اليهودية فقد تبلورت في أواسط الألف الأول قبل الميلاد حاملة مفاهيم لا تتفق مع الإسلام، بل إنَّ هناك اتهاماً واضحاً لها في القرآن الكريم بأنه يخالطها الشرك. وإذا كان مفهوماً موقف الإسلام من اعتبار بعض النصارى أنَّ المسيح إله، أو ابن الله، فلا بُدَّ من وجود أساس قوي لاتهام اليهودية بالشرك. وعلينا أن نبحث عن هذا الأساس.

يقولُ تعالى (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) (البقرة 135). ويقول تعالى (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) (آل عمران 67). وفي الحالتين، فإن نفي يهودية إبراهيم أو نصرانيته مقترنة بالقول (وما كان من المشركين) تنطوي على اتهام للديانتين بالشرك.

ويعمِّم القرآن الكريم هذا المفهوم على ديانة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، فيقول تعالى (أم تقولون إنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم اللهُ ومن أظلمُ ممَّن كتم شهادةً عنده من اللهِ وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملون) (البقرة140).

إنَّ نفي الصفة اليهودية أو النصرانية عن الآباء الأنبياء، ووصف ديانة موسى وداود وسليمان وعيسى بالإسلام، لا بُدَّ أنها تنطوي على وجود مأخذ جوهري في اليهودية والنصرانية. ويمكننا أن نفهم هذا المأخذ بشكل جلي من قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هوَ المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل

اعبدوا اللهَ ربِّي وربّكم إنّه من يُشركُ باللهِ فقد حَرَّمَ اللهُ عليه الجنَّة ومأواهُ النارُ وما للظالمينَ من أنصار) (المائدة 72).

في هذه الآية جانبان مهمان:

أولاً ـ ذلك المتعلّق بمن اعتقدوا أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ قد تجسَّد في شخص المسيح عليه السلام.

ثانياً ـ قولُ السيِّد المسيح لبني إسرائيل بالذات، أي لليهود (اعبدوا اللهَ ربِّي وربّكم). فإن كان "يَهْوَه" هو الله، فقد كان اليهود يعبدونَ يَهْوَه. وإنْ كان يَهْوَه هو الله لوجب أن يعبُدَ المسيحيون يَهْوَه. وهذا لم يحدث. ثمَّ إنَّ المسيحَ يقول لهم (إنَّه من يُشركُ باللهِ فقد حرَّم اللهُ عليه الجنَّة). وفي هذا اتهام لهم بالشركِ وجَّهَهُ السيد المسيح. فهل كانت عبادة يَهْوَه إلى جانب الله (إيل) هي مصدرُ هذا الشرك؟ وعليه وَجَبَ أن نفهم أنَّ اللهَ هو الله وأنَّ يَهْوَه هو يَهْوَه، وأنَّ يَهْوَه ليس الله، وأن عبادة هذا غير عبادة ذاك؟

أسئلة شائكة بطبيعة الحال، ولكنّ القضية تحتاج إلى التقصِّي بتمعُّن والبحث عن مختلف الحيثيات، وعدم الوقوف عند حيثية واحدة.

لا نعتقد بأنَّ قول بعض اليهود أن عزيراً ابن الله (أي عزرا الوراق) هي مصدر اتهام السيِّد المسيح لهم بالشرك، أو أنَّ هذه الواقعة تفسِّر الدوافع القويّة لإرسال السيد المسيح عيسى بن مريم كلمةُ اللهِ مؤيداً بالروح القدس لدعوتهم إلى إيمان جديد، وتعزيز مهمة السيد المسيح بمهمة النبي يحيى (يوحنا المعمدان). ولنلاحظ أنّه كما أنَّ النصارى لم يقولوا بألوهية يَهْوَه، كذلك لم يقل بها الصابئة المندائيون الذين يعتبرون أنفسهم أتباع النبي يحيى. بينما يمكن تفسير دوافع اليهود في اضطهاد النبيِّين بأنَّ وراءها تمسكهم بعبادة يَهْوَه بالذات، ولو أنَّ هذه المسألة لم تطرح في الأناجيل.

يقول تعالى (ولقد آتينا موسى الكتابَ وقفَّينا من بعده الرسلَ وآتينا عيسى بن مريم البيِّناتِ وأيَّدناهُ بروح القدس أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلون * وقالوا قلوبنا غلفٌ بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون) (البقرة 87-88).

وهنا تبدو مشكلة "هوى النفس" بالنسبة لليهود صفةً دائمةً ملازمةً لهم، مثلما هي صفة "الكفر" تلاحقهم، وهي بالتأكيد ليست كفراً باليهودية، بل كفراً من خلال التمسُّك باليهودية.

يقولُ تعالى (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم). كما يقول تعالى (ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أن ينزَّل عليكم من خير من ربكم) (البقرة 105). والسؤال هنا بالطبع، لم وصفوا بالكفر إن كانوا يهوداً؟ لا بُدَّ من لغز يكمن في مضمون الإيمان اليهودي. ولعلَّ هذا اللغز بدأ منذ زمن داود، بدلالة لعنهم على لسان داود ثم تكرار اللعنة على لسان السيِّد المسيح. ولنلاحظ قولَهُ تعالى لداود (يا داود إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللهِ إنَّ الذين يضلُّونَ عن سبيلِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يوم الحساب) (ص 26).

إنَّ الربطَ بين قولِهِ لداود (ولا تتَّبع الهوى) وبين لعن داود للذين كفروا من بني إسرائيل، والذين ضلُّوا عن سبيل الله، ممّا يرجِّح أنهم اتخذوا إلهاً آخر، ونسوا يوم الحساب، ولنتذكر ما يقوله رائيل المعاصر على لسان يَهْوَه الذي تجلّى له رجلاً من الفضاء في إنكار الروح وإنكار البعث دون الاحتفاظ بالخلايا وإعادة استنساخها من قبل علمائه، إنَّ هذا الربط يجعلنا نتساءل ماذا كان اسم الإله الذي اعتمده من كفروا؟ وهل كان هو الهوى مما دعا إلى القول لداود)ولا تتَّبع الهوى(. إنّه سؤال في السياقْ.

يستوقفنا في القرآن الكريم قولُهُ تعالى (ألَمْ تَرَ إلى الذين يزعمونَ أنَّهم آمنوا بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزلَ من قبلكَ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أمروا أن يكفروا به ويريدُ الشيطانُ أن يضلَّهم ضلالاً بعيداً) (النساء 60).

ما هو المقصود بالطاغوت هنا؟

إنَّهُ بكلِّ تأكيد ليس ملكاً من ملوك الأرض. وقد رأينا في آيات سابقة أنّه يدلّ على جماعةٍ وليس على شخصٍ واحد. وهو ليس الشيطان، ولكنّه شريكٌ للشيطان، أو يقوم الشيطانُ على خدمته؟ ثم إنَّ قولَهُ تعالى (وقد أمروا أن يكفروا به) يعني أنَّ هناكَ أنبياءَ حملوا هذا الأمر لهم. فهل هم داود وعيسى إذا نحن ربطنا مضمون هذه الآية مع سياق الآيات السابقة. وعندئذ هل المقصودُ بالطاغوت هو يَهْوَه؟ ما زال من المبكر اعتماد إجابة على هذا السؤال.

يقول تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون باللهِ ولا باليومِ الآخرِ ولا يُحَرِّمونَ ما حرَّمَ اللهُ ورسولُهُ ولا يدينونَ دين الحقِّ من الذين أوتوا الكتابَ حتى يعطوا الجزية عَنْ يدٍ وهم صاغرون) (التوبة 29). وهذه الآية كما نرى تخصُّ اليهود حصراً، إذ أن النصارى يؤمنون باليوم الآخر، بينما هذا الإيمان غائب عن اليهودية، وهذا ما لاحظه فرويد عن حق. ولكن كيف يوصف هؤلاء بأنّهم (لا يؤمنون بالله) وهم يؤمنون بيَهْوَه إلاّ إذا كان يَهْوَه ليس هو الله؟ سؤال آخر يطرحُ نفسه علينا، ولعلّه يفسِّر لنا قولُهُ تعالى (وَدَّت طائفةٌ من أهلِ الكتابِ لو يضلونكم وما يضلُّون إلاَّ أنفسهم وما يشعرون) (آل عمران 69) حيث سنلتقي لاحقاً مع آيات تشير إلى أنّ بعض اليهود حاولوا إقناع المسلمين بعبادة إلههم يَهْوَه. وعلى أية حال، فإنَّ هذه الصورة تبدو واضحة جليّة في قولِهِ تعالى (وجعلوا لله أنداداً ليُضلُّوا عن سبيلِهِ قل تمتَّعوا فإنَّ مصيركم إلى النار) (إبراهيم 30). فمن هؤلاء الأنداد؟ وهل يَهْوَه هو المقصود بالدرجة الأولى؟ كما يقول تعالى (وجعلوا لله شركاءَ الجنّ وخَلَقَهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عمَّا يصفون) (الأنعام100). وهذه الآية تذكّرنا بشخصية يَهْوَه كما قدَّمها لنا رائيل. رجل من كوكب آخر. رجل من الجن! وهذا الجديد في قصّة رائيل هناك قصّة أو قصص قديمة تشابهه. يقول تعالى (تاللهِ لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلكَ فزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم فهو وليُّهم اليوم ولهم عذابٌ أليم) (النحل 63) فهل اليهود من ضمن هذه الأمم أم خارجها؟ وعندئذ ما هي العبادة التي زيَّنها الشيطان لهم؟ ومن هو وليُّهم اليوم؟ لعلّ الجواب يتحدَّد أكثر في قولِهِ تعالى (فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالةُ إنّهم اتخذوا الشياطينَ أولياءَ من دون اللهِ ويحسبون أنّهم مهتدون) (الأعراف 30). كما يقول

تعالى (ألا إنَّ للهِ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرضِ وما يتَّبع الذينَ يدعونَ من دونِ اللهِ شركاءَ إن يتَّبعون إلاَّ الظنَّ وإنْ هم إلاَّ يخرصون) (يونس 66).

لنحاول أن نتقدَّم الآن إلى الأمام خطوةً أخرى.

ثمة اتهامات تتكرر في القرآن الكريم وبشكل خاص لليهود بأنَّهم يتخذون مع اللهِ إلهاً آخر. فلنرصد بعض هذه الآيات قبل أن نتساءل من يكون:

1 - يقولُ تعالى (إنّا كفيناكَ المستهزئين * الذين يجعلونَ مع اللهِ إلهاً آخر فسوف يعلمون) (الحجر 95-96).

2 يقولُ تعالى (وقالَ اللهُ لا تتخذوا إلهين اثنين إنَّما هو الهٌ واحدٌ فإيَّاي فارهبون) (النحل 51).

3 - ويقولُ تعالى (والذين لا يدعونَ مع اللهِ إلهاً آخر ولا يقتلونَ النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ولا يزنونَ ومن يفعلُ ذلك يلقَ أثاماً) (الفرقان 68).

4 - يقولُ تعالى (ولا تدعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ لا إلهَ إلاَّ هوَ كلّ شيء هالك إلاَّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون) (القصص 88).

6 - يقولُ تعالى (لا تجعل مع اللهِ إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) (الإسراء 22).

7 - يقولُ تعالى (ذلكَ ممَّا أوحى إليكَ ربُّكَ من الحكمةِ ولا تجعل مع اللهِ إلهاً آخر فتُلقى في جهنَّم ملوماً مدحوراً) (الإسراء 39).

8 - يقولُ تعالى (الذي جعلَ مع اللهِ إلهاً آخرَ فألقياهُ في العذاب الشديد) (ق 26).

9 - يقولُ تعالى (وَمَنْ يَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخر لا برهانَ له به فإنّما حسابُهُ عند ربِّهِ إنَّهُ لا يفلحُ الكافرون) (المؤمنون 117).

10 - يقولُ تعالى (أم لهم إلهٌ غيرُ اللهِ سبحان اللهِ عمَّا يشركون) (الطور 43).

11 - يقولُ تعالى (قُلْ أفغيرَ اللهِ تأمروني أعبُدُ أيُّها الجاهلون * ولقد أُوحي إليكَ وإلى الذين من قبلكَ لئن أشركتَ ليحبطَنَّ عملكَ ولتكوننَّ من الخاسرين) (الزمر 64-65).

من الواضح في كلِّ هذه الآيات أنَّ التحذير ينصبُّ على "إله آخر" غير الله أو نداً لله. فمنْ المقصود به؟

قد يقولُ البعضُ إنَّ الأمر هنا قد لا يتعلَّقُ بيَهْوَه تحديداً، فالذين قالوا بألوهية السيّد المسيح، أو كونه ابن الله، مقصودون أيضاً. مثلما هم اليهود مقصودون في قولهم إن العُزير ابن الله.

لهؤلاء نقول: حسناً، ولكن كيف يفسِّرون قولهُ تعالى (تبارك الذي نزَّلَ القرآنَ على عبدِهِ ليكون للعالمين نذيراً * الذي لهُ مُلكُ السموات والأرضِ ولم يتَّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملكِ وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً) (الفرقان 1-2). فهنا حالتان: حالة الولد وحالة الشريك. فإن انصرف الذهن في الأولى إلى الاعتقاد المتعلق بالسيِّد المسيح، فأين سينصرف الذهن في الحالة الثانية؟ وهل هنا غير يَهْوَه؟

ومثل هذا يمكن أن نستخلصه من قوله تعالى (قُلْ أيّ شيء أكبرُ شهادةً قلْ اللهُ شهيد بيني وبينكم وأُوحي إليَّ هذا القرآنُ لأنذركم بهِ وَمَنْ بَلَغَ أإنكم لتشهدون أنَّ مع اللهِ آلهة أخرى قُلْ لا أشهدُ قُلْ إنَّما هو إلهٌ واحدٌ وإنني

بريءٌ مما تشركون * الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونَهُ كما يعرفون أبناءَهم الذينَ خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) (الأنعام 19-20). إنَّ الحديث هنا عن (آلهة أخرى) وليس إلهاً واحداً شريكاً يعني أنَّ الأمر لا يقف عند الاعتقاد المتعلّق بألوهية السيِّد المسيح. فمن يكون الآلهة الآخرون عند أهل الكتاب؟ وهل يَهْوَه واحدٌ منهم أم لا؟.

لعلَّ الجواب على هذا السؤال يتَّضح بشكل أكبر في قوله تعالى (وإذا ذكر اللهُ وحدَهُ اشمأزت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونِهِ إذا هم يستبشرون) (الزمر 45).

وواضح هنا أنَّ المقصود هم اليهود حصراً، من خلال وصفهم بأنّهم لا يؤمنون بالآخرة. ويكون المقصود على أنّه من دون الله هو يَهْوَه.

ويتأكد هذا المفهوم من مخاطبته تعالى لهم بالقول (ذلكَ بأَنَّهُ إذا دُعِيَ اللهُ وحدَهُ كفرتم وإن يُشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) (غافر 12). فمن هو الإله الذي إذا جرى الشركُ به آمنوا إنْ لم يكن يَهْوَه؟!.

من المثير للانتباه هنا أن نذكر أنّه في آيات عديدة، يجري تناول من جرى اتخاذه أو اتخاذهم أنداداً لله، وكونهم من دونِهِ. واستعراض بعض الآيات التي تتناول هذا الجانب قد تساعدنا في استكمال الصورة. فتعالوا نتابع معاً هذه الآيات:

1 - يقولُ تعالى (ذلك بأنَّ اللهَ هو الحقُّ وأنَّ ما يدعونَ من دونه الباطلُ وأنَّ اللهَ هو العليُّ الكبير) (لقمان30).

2 - يقولُ تعالى (هو الحيُّ لا إلهَ إلاَّ هو فادعوهُ مخلصين له الدين الحمد للهِ ربِّ العالمين * قُلْ إنِّي نُهيتُ أنْ أعبُدَ الذينَ تدعونَ من دون اللهِ لما جاءني البيِّنات من ربِّي وأمرتُ أن أسلم لربِّ العالمين) (غافر 65-66).

وواضح هنا أن ثمّة نهياً جاء من السماءِ بعدم عبادة الذين يدعونَ من دونِ الله، مما يعني وجود إشكالية أو التباس حول ألوهيتهم. والمرجَّح في هذه الحالة أن يكون المقصود هو يَهْوَه كإله لليهود يتمسكون به بإصرار كإله خاص.

3 - يقولُ تعالى (قل أئنكم لتكفرونَ بالذي خلقَ الأرضَ في يومين وتجعلونَ له أنداداً ذلك ربّ العالمين) (فصلت 9).

4 - يقولُ تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلِنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) (الزخرف 45).

5 - يقولُ تعالى (قلْ لو كانَ معه آلهةٌ كما يقولونَ إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً) (الإسراء 42).

6 - يقولُ تعالى (وقل الحمدُ للهِ الذي لم يتَّخذ ولداً ولم يكنْ له شريك في الملكِ ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ وكبِّرهُ تكبيراً) (الإسراء 111).

7 - ويقولُ تعالى (وللهِ الأسماء الحسنى فادعوهُ بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) (الأعراف 180).

8 ـ ويقولُ تعالى (ما اتَّخذَ اللهُ من وَلَدٍ وما كان مَعَهُ من إلـهٍ إذاً لذهبَ كلُّ إلـهٍ بما خلقَ ولعلا بعضهم على بعض سبحان اللهِ عمَّا يصفون) (المؤمنون 91).

9 ـ يقولُ تعالى (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ بما أشركوا باللهِ ما لم ينزِّل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) (آل عمران 151).

10 ـ يقولُ تعالى (فلا تجعلوا للهِ أنداداً وأنتم تعلمون) (البقرة 22).

11 ـ يقولُ تعالى (ومن الناس من يتَّخذُ من دون اللهِ أنداداً يحبُّونهم كحبِّ اللهِ والذين آمنوا أشدُّ حبَّاً للهِ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرونَ العذابَ أنَّ القوة للهِ جميعاً وأنَّ اللهَ شديدُ العذاب) (البقرة 165).

12 ـ يقولُ تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيِّين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) (آل عمران 80).

13 ـ يقولُ تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) (الزخرف 45).

وإذا أردنا أن نضع يدنا على محصِّلة الآيات السابقة، وصلة اليهود بها، يكفي أن نتمعَّن في قولِهِ تعالى (وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوهُ وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربَّك في القرآنِ وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً) (الإسراء 45-46). وواضح أنَّ المقصود هنا أنّهم يفزعون إذا لم يذكر "يَهْوَه" الذي يعتبرونه إلههم الخاص. وهو أمر نستخلصه أيضاً من قوله تعالى عن اليهود بالذات (ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوتِ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً) (النساء 51).

ها نحن نعود ثانية إلى الطاغوت، وما هو أو هم بملوك طغاة في الأرض كما قد يتوهم البعض، بل مخلوقات لها سطوتها. ويمكن لما جاء به رائيل أن يفسِّر لنا تماماً هذه الكلمة، فلا تبقى مجرَّد مفهوم غامض. وإذا كان اليهود يردُّون كل طقوس ديانتهم إلى يَهْوَه فإنّ الله سبحانه وتعالى يقول عنهم (أم لهم شركاءٌ شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللهُ ولولا كلمة الفصلِ لقضي بينهم وإنَّ الظالمين لهم عذاب أليم) (الشورى 21).

الآن نستطيع أن نقترب أكثر من قصّة اليهود مع إلههم الخاص يَهْوَه. ثمّة مفردتان تردان في القرآن الكريم مراراً وتكراراً كلّما تعلق الأمر باليهود، أولاهما هوى بمعنى سقط والثانية الهوى بمعنى اتباع الأهواء. فهل من علاقة لهاتين اللفظتين باسم "يَهْوَه"؟

يقولُ تعالى مخاطباً بني إسرائيل (كلوا من طيِّبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلُّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) (طه 81). إنَّ (هوى) هنا وإن عنت السقوط إلاّ أنّها أيضاً تعني عبادة الأهواء، أي الوقوع في قبضة الشيطان أو الطاغوت.

ونحن نعرف أنَّ الغضب قد نزل بهم. يقولُ تعالى (وضُربَت عليهم الذلّةُ والمسكنةُ وباءوا بغضبٍ من اللهِ ذلك بأنَّهم كانوا يكفرون بآياتِ اللهِ ويقتلون النبيّين بغير الحق ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدون) (البقرة 61). وأنبياؤهم يعترفون بأنّ اللهَ غضب عليهم وأسلمهم ليعبدوا جند السماء، فما الذي يمنع الاستنتاج في أنَّ جند السماء هم يَهْوَه وفريقه؟

لعلَّ محاكمة هذا السؤال تردُ في قوله تعالى (قُلْ إنَّما يُوحى إليَّ أنَّما إلهكم إلهٌ واحدٌ فهل أنتم مسلمون * فإنْ تولّوا فقلْ آذنتكم على سواءٍ وإن أدري أقريبٌ أم بعيدٌ ما توعدون * إنّه يعلم الجهرَ من القولِ ويعلم ما تكتمون * وإن أدري لعلَّه فتنة لكم ومتاعٌ إلى حين * قل ربِّ احكم بالحقِّ وربُّنا الرحمن المستعانُ على ما تصفون) (الأنبياء 108-112).

(لعله فتنةٌ لكم) تعبيرٌ يقرِّب المسألة من نقطة البداية المتمثلة بالغضب الإلهي عليهم.

إنَّ المسألة ستتضح أكثر وبشكل جليّ بما يبيِّن الصلة بين عبادة يَهْوَه واتباع الأهواء في قولهِ تعالى (قُلْ إنِّي نُهيتُ أن أعبدَ الذين تعبدونَ من دونِ اللهِ قل لا أتَّبعُ أهواءكم قد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين * قل إنِّي على بيِّنة من ربِّي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إنْ الحكمُ إلاَّ للهِ يقصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين) (الأنعام 56-57). نعتقد أن النصّ هنا أكثر من واضح في النهي عن عبادة الذي يعبده اليهود من دون الله، أي يَهْوَه، وألاَّ يتّبع أهواءهم.

عندئذ تصبح دلالة "الأهواء" في السياق هي الإشارة لعبادة يَهْوَه بشكل خاص. وتتكرر في العديد من الآيات بما يؤكد هذه الدلالة.

1 ـ يقولُ تعالى (ولنْ ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتى تتَّبع ملتهم قُلْ إنَّ هُدى اللهِ هوَ الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلمِ ما لك من اللهِ من وليٍّ ولا نصير) (البقرة 120).

2 ـ يقولُ تعالى (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلِّ آيةٍ ما تبعوا قبلتكَ وما أنتَ بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعضٍ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنَّك إذاً لمن الظالمين) (البقرة 145).

3 ـ يقولُ تعالى (وما تفرقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلمُ بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربِّكَ إلى أجلٍ مسمًّى لقضي بينهم وإنَّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب * فلذلك فادعُ واستقمْ كما أُمرتَ ولا تتبع أهواءهم وقل آمنتُ بما أنزل اللهُ من كتابٍ وأمرتُ لأعدل بينكم اللهُ ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ولا حجّة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير * والذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيبَ له حجَّتهم داحضة عند ربِّهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) (الشورى 14-16).

4 ـ يقولُ تعالى (واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناهُ آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناهُ بها ولكنَّهُ أخلد إلى الأرض واتبعَ هواه فمثله كمثل الكلب إنْ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذَّبوا بآياتنا فاقصص عليهم لعلَّهم يتفكرون) (الأعراف 176).

5 ـ يقولُ تعالى (أفمن كان على بيِّنةٍ من ربِّه كمن زُيِّنَ له سوءُ عمله واتبعوا أهواءهم) (محمد 14).

6 ـ يقولُ تعالى (ومنهم مَنْ يستمع إليكَ حتى إذا خرجوا من عندكَ قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع اللهُ على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) (محمد 16).

7 ـ يقولُ تعالى (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوَّة ورزقناهم من الطيِّبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بيِّنات من الأمر فما اختلفوا إلاَّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إنَّ ربَّك يقضي بينهم يوم القيام فيما كانوا فيه يختلفون * ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبعها ولا تتَّبع أهواء الذين لا يعلمون) (الجاثية 16-18).

قد يقولُ البعضُ إنَّ هذه الآيات وإن تكرَّر فيها الحديث عن اتباعهم الأهواء إلاَّ أنّها لا تكفي للدلالة على وجود صلةٍ وثيقة بين عبادة يَهْوَه واتباع الأهواء.

ولهؤلاء نقول: تعالوا نتمعَّن في هذه الصلة في الآيات التالية:

1 ـ يقول تعالى عن اليهود في زمن النبي صلعم (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبلُ قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنَّا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند اللهِ هو أهدى منهما أتَّبعه إن كنتم صادقين * فإنْ لم يستجيبوا لكَ فاعلم أنَّما يتبعونَ أهواءهم وَمَنْ أضلّ ممَّن اتَّبع هواهُ بغير هدىً من اللهِ إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الظالمين) (القصص 48-50).

هل اتباع الهوى هنا هو اتباعُ هوى النفس أم اتباع يَهْوَه؟

يبدو أنَّ اتباع هوى النفس واتباع يَهْوَه يعبِّران عن حقيقة واحدة متى تحوَّلت الأهواء نفسها إلى إله في نظر من يتبعون أهواءهم.

2 ـ ونتقدم خطوةً ثانيةً إلى الأمام لنقف بتمعُّن أمام قوله عزَّ وجلّ (أرأيتَ من اتخذ إلهه هواهُ أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسبُ أن أكثرهم يسمعونَ أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا) (الفرقان 43-44). وهنا فإنّ الآية واضحة كل الوضوح في المطابقة بين (الهوى) كإله ويَهْوَه كإله أيضاً. فهذا هو ذاك.

3 ـ وتتأكد الدلالة نفسها في قوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلَّهُ اللهُ على علمٍ وختم على سمعِهِ وقلبهِ وجعل على بصرهِ غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) (الجاثية 23).

وهنا لا بُدَّ وأن ترنَّ في أسماعنا أقوال بعض أنبيائهم من أن الله غضب عليهم وأسلمهم ليعبدوا جند السماء وفرض عليهم فرائض ليست صالحة عقاباً لهم.

وعندئذ هل يكون يَهْوَه هو الربّ أم طاغوت أطلق لتعقُّبهم وإبقائهم رهن الضلالة؟

يبدو أن الجواب بات الآن واضحاً، وصار من الممكن لنا أن نقبل بمنطق فرويد حين وصف يَهْوَه بالشيطان، وبمنطق رائيل وهو يصف لقاءه معه ورحلته إلى الكوكب الذي يتولى صفة "رئيس مجلس الخالدين" فيه، وتكليفه لرائيل بتحطيم "معجزة الله" في الأرض، واختياره لبني إسرائيل باعتبارهم ذريته.

ولقد حذرنا القرآن الكريم في آيات كثيرة من دور الشيطان والطاغوت ويكفي أن نشير هنا إلى بعض هذه الآيات.

يقولُ تعالى (إنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيَّن لهم الهدى الشيطانُ سوَّل لهم وأملى لهم) (محمد 25). ويقول تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيِّضُ له شيطاناً فهو له قرين * وإنَّهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنَّهم مهتدون) (الزخرف 36-37). ويقول تعالى (ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنَّهُ فاتَّبعوه إلاَّ فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطانٍ إلاَّ لنعلم من يؤمنُ بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ * قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرَّة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شِركٍ وما له منهم من ظهير) (سبأ 20 /22).

وإنّه لأمر يستوجب التفكير أنّه عندما نادى الله عزَّ وجلّ نبيّه موسى في الوادي المقدس طوى قال له (إنَّ الساعة آتيةٌ أكادُ أخفيها لتُجزى كل نفسٍ بما تسعى * فلا يصدنَّك عنها من لا يؤمن بها واتَّبع هواهُ فتردَّى) (طه 15-16). فهل كانت توجد بين بني إسرائيل جماعة تعبد يَهْوَه منذ ذلك الحين؟ أم أن ذلك كان تحذيراً لموسى عليه السلام مما سيقع في قابل الأيام؟

*   *   *

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.

2. الكتاب المقدس، طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، 1985

3. الكتاب المقدس ـ كتب الشريعة الخمسة، دار المشرق، بيروت، 1987

4. أبو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني، الاكليل ج1، تحقيق محمد بن علي الأكوع، منشورات المدينة، صنعاء، الطبعة الثالث, 1986

5. د. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الأمواج، بيروت، ط2، 1987

6. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ.

7. أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1960

8. أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، دار النهار، بيروت.

9. ايفان ليسنر، الماضي الحي، ترجمة شاكر سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1981

10. جيمس هنري بريستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة زكي سوس، دار الكرنك، القاهرة 1961

11. سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي، القاهرة.

12. سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت 1983

13. عباس محمود العقاد، أبو الأنبياء الخليل إبراهيم، كتاب اليوم، القاهرة 1953

14. عبد الرحمن غنيم، طوفان نوح، دار الجليل، دمشق 2001

15. د. عبد المنعم الحفني، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية، دار المسيرة، بيروت 1980

16. علي فهمي خشيم، آلهة مصر العربية، الدار الجماهيرية ودار الآفاق الجديدة، ليبيا 1990

17. د. علي أبو عساف، نصوص من أوغاريت، وزارة الثقافة، دمشق 1988

18. د. فؤاد حسنين علي، اليهودية واليهودية المسيحية، القاهرة 1968

19. فريدريك ديلتش، بابل والكتاب المقدس، ترجمة إيرينا داود، دار العربي، دمشق 1987

20. قاسم طوير، ايبلا ـ عبلاء الصخرة البيضاء (ترجمة وتأليف)، مطبعة سورية، دمشق 1984

21. كارين أرمسترونغ، الله والإنسان، ترجمة محمد الجورا، دار الحصاد، دمشق 1996

22. ك. غ. يونغ، الإله اليهودي، ترجمة نهاد خياطة، دار الحوار، اللاذقية 1986

23. كمال الصليبي، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقي، بيروت ولندن، ط3، 1994

24. كولين ماكيفيدي، أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987

25. ل. ماسينون وب. كراوس، أخبار الحلاج، لا روز، باريس 1936

26. ماكس شابيرو ورودا هندريكس، معجم الأساطير، ترجمة حنا عبود، دار الكندي، دمشق 1989

27. محمد عمر حمادة، تاريخ الصابئة المندائيين، دار الوثائق، دمشق 1997

28. مرسيا الياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، 1987/1986

29. موري هوب، السحر السلتي العملي (بالانكليزية) The Aquarian Press إنكلترا 1987

30. هنري س. عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس لبنان 1988

31. هيرودوت يتكلم عن أرض مصر، تحقيق أحمد بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987

32. د. وديع بشور، الميثولوجيا السورية ـ أساطير آرام، دمشق، ط2، 1989

33. وهب بن منبِّه، كتاب التيجان في ملوك حِمْيَر، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء 1347هـ.

***

الصحف والإنترنت:

1. كلود فريلون (رائيل) كتاب الرسالة على الانترنت.

2. كلود فريلون (رائيل) كتاب سكان الفضاء أخذوني على كوكبهم على الانترنت.

3. أحمد عثمان، جريدة الشرق الأوسط، العددان 7964 و7978

4. زئيف هيرتسوغ، هآرتس 1999/10/29

*　　*　　*

النهاية